تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق
الدكتور محمد إبراهيم يحيى
أستاذ مساعد تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية - زليتن - ليبيا

المجلد الرابع

تفسير الحداد



دار المدار الإسلامي

تفسير الحدّاد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحدّاد اليمني

تحقيق

الدكتور محمّد إبراهيم يحيى

أستاذ تفسير القرآن وعلومه

بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية

زليتن - ليبيا

الجزء الرابع

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2003 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4165/ 2001

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-062-X

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb

بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

سُورَةُ يُوسُفَ

سورة يوسف عليه السلام مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية، وألف وسبعمائة وست وسبعون كلمة، وسبعة آلاف ومائة وست وستون حرفاً[1]. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**علموا أقرأكم سورة يوسف، فأيما مسلم قرأها وعلمها أهله أو ما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً**»[2]. وبالله التوفيق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ ألر تقدم تفسيره. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ قيل معناه: هذه آيات الكتاب المبين، وقيل معناه: سورة يوسف آيات الكتاب، على القول الذي يقال: إن ـ ألر ـ اسم السورة.

---

(1) في النسخة (ف): .. وتسعمائة وست وستون كلمة، وتسعة آلاف وسبعمائة وست وسبعون.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره: 108 بسنده.
والزمخشري في الكشاف: 2: 348.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لأنه يبين الهدى والرشد. وقيل: المبين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي إنا أنزلنا القرآن على مجاري كلام العرب في مخاطبتهم لكي تدركوا معناه، وتفهموا ما فيه، ولو نزل بغير لغة العرب لم يعلموه.

قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي نحن نبين لك أحسن البيان. والقاص: هو الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. واختلف العلماء لم سميت أحسن القصص من بين الأقاصيص؟ فقيل: سماها أحسن القصص لأنه ليس قصة في القرآن تتضمن من العبر، والحكم، والنكت ما تتضمن هذه القصة، وقيل: سماها أحسن القصص لامتداد الأوقات فيما مبتدأها إلى منتهاها. قال ابن عباس: كان بين رؤيا يوسف ومسير أبيه وإخوته إليه أربعون سنة[1]. وقيل: سماها أحسن القصص لأن فيها ذكر الأنبياء، والملائكة والصالحين، والإنس، والجن، والأنعام، والطير، والملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء والجهال، والرجال، والنساء، وحيلهن، ومكرهن، وفيها أيضاً ذكر التوحيد، والفقه والسير، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشرة، والتدبير، والمعاش، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة والفوائد الجليلة التي تصلح للدين والدنيا. وقيل: أحسن بمعنى أعجب. كذا في تفسير الثعلبي[2]، وقيل: أراد بأحسن القصص جميع القصص الذي في القرآن، فإن الله تعالى ذكر في القرآن أخبار الأمم الماضية، وحال رسلهم عليهم السلام، وذكر جميع ما يحتاج العباد إليه إلى يوم القيامة بأعذب لفظ في أحسن نظم وترتيب.

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أوحينا إليك هذا القرآن ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ وقد كنت من قبل نزول جبريل عليك بالقرآن غافلاً عن قصة يوسف، وعن الحكمة فيها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ قرأ طلحة بن مصرف: يوسف ـ بكسر

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 257.

(2) الثعلبي، الكشف والبيان، ورقة: 109.

السين[1]. وقرأ ابن عامر: يا أبت ـ بفتح التاء في جميع القرآن، وأصله على هذا: يا أبتا، ثم حذف الألف وأبقى الفتحة دالة عليها، قال رؤبة:

.... ∴ يا أبتا عليك أو عساك

وقرأ الباقون: يا أبت ـ بالكسر على ياء الإضافة تقدر بعدها، وقيل: كسرت لأنها أجريت مجرى تاء التأنيث[2].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال المفسرون: رأى يوسف عليه السلام تلك الرؤيا وهو ابن اثنتي عشرة سنة. قال ابن عباس: وذلك أنه قال لأبيه: يا أبت إني رأيت في المنام أحد عشر كوكباً نزلت من أماكنهن فسجدن لي، ورأيت الشمس والقمر نزلا من أماكنهما فسجدا لي، وأراد بذلك السجود سجود التحية والعبادة لله عز وجل كما تقدم في سجود الملائكة لآدم عليه السلام. قال: وكانت الليلة ليلة القدر ليلة الجمعة، وكان تأويل رؤياه عند يعقوب: أن الشمس والقمر هو، وخالته فإن أم يوسف ـ وهي راحيل ـ كانت قد ماتت، وأن الأحد عشر كوكباً إخوة يوسف، وكانوا أحد عشر أخاً له، وأنهم كانوا كلهم يخضعون ليوسف. وإنما تأولها يعقوب على ذلك لأنه لا شيء أضوأ من الشمس والقمر ويهتدي بضوئهما أهل الأرض، ثم لا شيء بعدهما أضوأ من الكواكب، فدلت رؤياه على أن الذين يخضعون له أئمة الهدى الذين يهتدي الناس بهم.

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ ثانياً ليس بتكرار لأنه أراد بالرؤية الثانية رؤية سجودهم له. وإنما حملت الآية على الرؤيا لا على الرؤية بالعين لأنا نعلم أن الكواكب لا تسجد حقيقة للآدميين، ولهذا قال يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾. وعن ابن عباس أنه قال: لما قص يوسف رؤياه على أبيه انتهره وزجره لئلا يفطن إخوته، وقال له في السر: إذا رأيت رؤيا بعدها فلا تقصص رؤياك على إخوتك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ وإنما كان قصها على يعقوب فقط. وهذا القول أقرب إلى ظاهر الآية، أي لا

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 109.

(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 3.

تخبرهم بذلك لكيلا يحملهم الحسد والأنفة من الخضوع له على إنزال الشر به والاحتيال لهلاكه. والكيد: هو طلب الشر بالإنسان على جهة الغيظ عليه. واختلف النحاة في هذه اللام في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ قال بعضهم معناه: فيكيدوك، واللام صلة، كقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1]، وقال بعضهم: هو مثل قولهم: نصحتك ونصحت لك وأشباهه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدو ظاهر العداوة لبني آدم فلا تذكر رؤياك لإخوتك لئلا يحملهم الشيطان على الحسد وإنزال الضر بك. وهذا أصل في جواز ترك إظهار النعمة عند من يخشى حسده وكيده وإن كان الله تعالى قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾[2]. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي مثل ما رأيت من سجود الشمس والقمر والكواكب كذلك يصطفيك ربك ويختارك.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قيل معناه: من تأويل الرؤيا، لأن فيه أحاديث الناس عن رؤياكم، وقيل معناه: يعصمك عواقب الأمور والحوادث، ويقال: ويعلمك الشرائع التي لا تعلم إلا من قبل الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي يتم نعمته عليك بالنبوة كما أتمّ النبوة على أبويك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي ويتم نعمته أيضاً على أولاد يعقوب بك، لأن ذلك يكون شرفاً لهم، أي تكون النبوة فيهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأمور ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. وفي بعض التفاسير أن يعقوب عليه السلام كان خطب إلى خاله ابنته راحيل على أن يخدمه سبع سنين فأجابه، فلما حل الأجل

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 154.
(2) سورة الضحى (93)، الآية: 11.
(3) رواه البيهقي في الشعب: 5/ 277، رقم: 6655، وأبو نعيم في الحلية: 5/ 215 من حديث معاذ.

زوجه ابنته الكبرى ليا، فقال يعقوب لخاله: لم يكن هذا على شرطي. قال: إنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة، فهلم فاخدمني سبع سنين أخرى وأزوجك راحيل. وكان الناس يجمعون بين الأختين. فرعى يعقوب سبع سنين أخرى وزوجه راحيل، ودفع إلى كل واحدة من ابنتيه أمة تخدمها فوهبتا الأمتين ليعقوب عليه السلام، فولدت له ليا: يشجر، وزيالون، وروبيل، وشمعون، ويهوذا، ولاوي، وولدت له راحيل: يوسف، وبنيامين، وولدت الأمتان: نفتالي، ودان، وجاد، وآشر. فعاد جملة بنيه اثني عشر ولداً سوى البنات. قال قائل: إن كان يعقوب علم أن الله يجتبي يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث فلماذا قال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؟ وكيف قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ مع علمه أن الله سيبعثه رسولاً؟ فالجواب: أنه عليه السلام كان عالماً من طريق القطع أن الله سيبلغه هذه المنزلة، ولكن كان مع ذلك يخاف من وصول المضار إليه بكيدهم وإن لم يخف الهلاك. وأراد بقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ الزجر لهم عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه، ولذلك لم يصدقهم في قولهم فأكله الذئب، بل حاجهم بما يظهر به كذبهم. وقيل أراد بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ التخليص من السجن كما خلص الله إبراهيم عليه السلام من النار وإسماعيل[1] من الذبح.

قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ معناه: لقد كان في خبر يوسف وإخوته عبرة للسائلين عنهم. وقرأ ابن كثير: آية للسائلين[2]، كأنه جعل شأنه كله آية للسائلين، وذلك أن اليهود سألت النبي

(1) في النسخة (س): وإسحاق.
(2) مكي، الكشف: 2/ 5.

صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فأخبرهم بها كما في التوراة فعجبوا منه وقالوا: من أين لك هذا؟ قال: «**علمنيه ربي**». وقيل معناه: للسائلين أي لمن سأل عن أمرهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ هذه لام قسم تقديره: والله ليوسف وأخوه بنيامين أحب إلى أبينا منا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة، سموا عصبة لأن بعضهم يتعصب ببعض ويعين بعضهم بعضاً. والعصبة: ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل إلى الخمسة عشر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خطأ بين في ترك العدل في المحبة بيننا، ويقال: لفي خطأ بين من التدبير باختياره الصغيرين لا منفعة له فيهما علينا مع أنا نسعى في منافعه ونرعى له غنمه ونتعهدها.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ اختلفوا في قائل هذا القول، قال وهب: قاله شمعون، وقال مقاتل: قاله روبيل[1]، وقوله: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ يعنون بعدوه على وجه يقع به اليأس من اجتماعه مع أبيه.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي يخل لكم وجهه من يوسف وتخلص محبته لكم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي وتوبوا بعد ذلك عن هذا الذنب وتصلح حالتكم مع أبيكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قال أكثر المفسرين: القائل لهذا: هو يهوذا، وكان أعقلهم وأشدهم قوة. والمعنى: أنه قال لهم: ألقوه في قعر البئر ليلتقطه بعض السيارة على الطريق. والغيابة: هو الموضع الذي غاب عن بصرك. والجب: هي البئر التي لم تطو بالحجارة.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ معناه: قال لهم إن كنتم لا بد فاعلين به أمراً فاعدلوا إلى هذا الأمر وإلا فاتركوا لكل ذلك. والظاهر من قوله: الجب

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 110.

أنه جب يشار إليه معروف. قال وهب: هو بأرض الأردن على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب[1]. فلما أبرموا هذا التدبير وعزموا عليهم، تلطفوا للوصول إلى مرادهم، وجاؤوا إلى أبيهم فقالوا كما قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أي مالك لا تأمنا عليه فترسله معنا وإنا له لناصحون في الرحمة والبر.

قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي نذهب ونجيء وننشط: يقرأ كلاهما بالنون والياء[2]. والرتع: هو التردد يميناً وشمالاً للاتساع في الملاذ. ومن قرأ: يرتع - بالياء، فهو من يرتعي، أي يرعى ماشيته. واللعب: هو الفعل الذي يطلب منه الفرح من غير عاقبة محمودة، وهو على وجهين: مباح ومحظور كما قال عليه السلام: «**كل لعب حرام إلا ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، ونبله بقوسه، وتأديبه فرسه**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من الأسواء وعن كل ما تخافه عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي ليحزنني ذهابكم به لأنه يفارقني فلا أراه. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ذكر شيئين: الحزن لذهابهم به والخوف عليه من أن يجده الذئب وحده وقت غفلتهم عنه فيأكله. وكان يعقوب قد رأى في منامه كأن ذئباً قد عدا على يوسف فكان خائفاً عليه، فمن ذلك قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

---

(1) المصدر نفسه.
(2) مكي الكشف: 2/ 6.
(3) رواه النسائي في سننه: 6/ 185، باب تأديب الرجل فرسه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي ونحن جماعة ترى الذئب قد قصده ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي لعاجزون. والخسران هنا: العجز.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي فأرسله معهم، فلما ذهبوا به واتفقت دواعيهم أن يجعلوه في الجب. قال السدي: خرجوا به من عند أبيهم وهم مكرمون له، فما صاروا في البرية أظهروا له العداوة، فجعل أخ له يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، لا يرى فيهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه لو تعلم ما صنع بابنك. فقال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب فدلوه فيه، فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، وقال: يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به. فقالوا: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يلبسونك ويؤنسونك. فدلوه حتى إذا بلغ نصف البئر ألقوه أرادوا أن يموت. وكان في البئر ماء فسقط فيه وآوى إلى صخرة فقام عليها وجعل يبكي، فنادوه فظن أن الرحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بالحجارة ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام(1).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ قال المفسرون: أوحى الله إلى يوسف في البئر تقوية لقلبه: لتصدقن رؤياك ولتخبرن إخوتك بصنعهم هذا بعد اليوم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنك يوسف في وقت إخبارك إياهم بأمرهم. وكان فيما أوحى إليه: أن اصبر على ما أصابك، واكتم حالك، فإنك تخبرهم بما فعلوا بك. وعن ابن عباس قال: كان يومئذٍ ابن سبع عشرة سنة، وبقي في الجب ثلاثة أيام. وفي بعض الروايات أنه لما ألقي في الجب جعل يقول: يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب اجعل لي من أمري فرجاً، ومخرجاً. فأوحى الله إليه وهو في البئر: اصبر على ما أصابك، واكتم حالك فإنك تخبر إخوتك عما فعلوا بك في وقت لا يعرفونك حتى تكون أنت الذي تخبرهم به. كذا في تفسير عبد الصمد. ثم عمدوا إلى سخلة

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 263.

فذبحوها وجعلوا دمها على قميص يوسف[1] ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ كما قال تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ أي يتباكون على يوسف وقالوا: يا أبانا إنا ذهبنا ننتضل، أي نتسابق في الرمي، وقيل: نتسابق في الاصطياد ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ليحفظه ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي بمصدق لنا في أمر يوسف لفرط محبتك له ونقمتك إيانا فيه، وإن كنا نتحمل الصدق عندك في غير هذا الحديث. ثم أروه قميصه ملطخاً بالدم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أي بدم ذي كذب. فلما نظر يعقوب إلى القميص قال: ما عهدت ذئباً حليماً مثل هذا الذئب كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه!؟ ولو أنهم كانوا خرقوا قميصه حين لطخوه بالدم لكان ذلك أبعد من التهمة عنهم، ولكن لا بد في المعاصي من أن يقترن بها الخذلان فقال لهم يعقوب: كذبتم ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أي زينت لكم أنفسكم في هلاك يوسف فضيعتموه. ويقال: إن يعقوب لما قال لهم: لو أكله الذئب لشق قميصه، قالوا: قتله اللصوص. قال: لو قتله اللصوص لما تركوا قميصه هل يريدون إلا الثياب والمتاع؟ فسكتوا متحيرين.

قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي فصبر جميل أولى من الجزع. والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ معناه: أستعين بالله على الصبر فيما تقولون: وروي أن شريحاً كان جالساً للقضاء فجاءته امرأة تبكي وتشكو، فقيل له: يوشك أن تكون هذه مظلومة. فقال شريح: قد جاء إخوة

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 110 عن ابن عباس.

يوسف أباهم عشاء يبكون وهم كذبة[1].

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي جاءت قافلة من المسافرين بعد أن مكث يوسف عليه السلام في الجب ثلاثة أيام، روي أنهم جاؤوا من قبل مدين يريدون مصر، فأخطأوا الطريق وتحيروا فجعلوا يهيمون حتى وقعوا في الأرض التي فيها الجب، فأرسل كل منهم واردهم. والوارد: الذي يتقدم القوم لطلب الماء[2]. فوافق الجب مالك بن ذعر ـ وهو رجل من العرب من أهل مدين ـ فأدلى دلوه في البئر فتعلق بها يوسف فلم يقدر على نزعه، فنظر فرأى غلاماً قد تعلق بالدلو، فنادى أصحابه وقال: يا بشراي هذا غلام. قالوا: ما ذاك يا مالك؟ قال: غلام أحسن ما يكون من الغلمان. فاجتمعوا عليه فأخرجوه. قال كعب: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن صغير السرة، وكان إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه، لا يستطيع أحد وصفه، وكان حسنه كضوء النهار، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يصيب المعصية. ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ من قرأ ياء: يا بشراي بياء الإضافة فهو خطاب للفرح على القلب كمن قال: يا فرحي ويا طوباي ويا أسفي، ومن قرأ

---

(1) تفسير الزمخشري: 2/ 307.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 265.
(3) المصدر نفسه.

بغير ياء الإضافة[1]. فمعناه: تبشير الأصحاب، كما يقال: يا عجبا، ويراد به: يا أيها القوم اعجبوا.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أسر الذين وجدوا يوسف من رفقائهم ومن القافلة مخافة أن يطلب أحد منهم الشركة معهم في يوسف عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على المصدر، أي قالوا فيما بينهم: إنا نقول إن أهل الماء استبضعوا بضاعة لنبيعها لهم. ويجوز أن يكون ﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على الحال على معنى أنهم كتموه حين اعتقدوا التجارة فيه. ويقال: إن قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ راجع إلى إخوة يوسف، فإنه روي أنهم جاؤوا بعد ثلاثة أيام فلم يجدوه في البئر، فنظروا فإذا القوم نزول بقرب البئر فإذا هم بيوسف، فقالوا لهم: هذا عبد قد أبق منا منذ ثلاثة أيام، وقالوا ليوسف: لئن أنكرت أنك عبد لنا لنقتلنك. وقالوا للقوم: اشتروه منا. فذلك معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ بأن طلبوا من يوسف كتمان نسبه. إلا أن القول الأول أقرب إلى ظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بيوسف، وهذا يجري مجرى الوعيد قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي باعه إخوته من مالك بن ذعر بعشرين درهماً، فأصاب كل واحد منهم درهمين، فلم يأخذ يهوذا نصيبه وأخذ الباقون. وقال الضحاك: باعوه باثني عشر درهماً. وقال ابن عباس معنى قالوا: ﴿بَخْسٍ﴾ أي بثمن حرام لأن ثمن الحر حرام. ويسمى الحرام بخساً لأنه لا بركة فيه. وقال الكلبي: باعوه باثنين وعشرين درهماً[2].

وقوله تعالى: ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وذكر العدد عبارة عن القلة.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي لم يكن فيه رغبة ولا في رده إلى أبيه، ولم يعلموا منزلته من الله تعالى، يعني أن إخوة يوسف كانوا في يوسف

---

(1) مكي الكشف: 2/ 7.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 111.

من الزاهدين لأنهم لم يعرفوا كرامته على الله تعالى. وقيل معناه: كانوا في ثمنه من الزاهدين، إنما غرضهم أن يغيبوه عن أبيه. وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته. وشروه: أي باعوه. قال الشاعر:

وشريت برداً ليتني ∴ من بعد برد كنت هامه[1]

أي بعت برداً: وهو غلامه. ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف ومعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه فإنه آبق سارق كاذب وقد تبرأنا إليكم من عيوبه. فحمله مالك بن ذعر على ناقة وسار به نحو مصر، وكان طريقهم على قبر أمه، فلما بلغ قبر أمه أسقط نفسه من على الناقة وهو يبكي ويقول: يا أماه ارفعي رأسك من الثرى وانظري إلى ولدك يوسف وما لقي بعدك من البلايا، يا أماه لو رأيت ضعفي وذلي لرحمتني، يا أماه لو رأيتني وقد نزعوا قميصي وشدوني، وفي الجب ألقوني، وعلى حر وجهي لطموني، وبالحجارة رجموني. وفقده مالك بن ذعر فصاح في القافلة: ألا إن الغلام رجع إلى أهله. فطلبوه فوجدوه، فقال له رجل منهم: يا غلام قد أخبرنا مواليك أنك آبق سارق فلم نصدق حتى رأيناك. فقال: والله ما أبقت ولكنكم مررتم على قبر أمي فلم أتمالك أن رميت نفسي عليه. فرفع يده ولطم وجهه وجره حتى حمله على ناقته، وذهبوا به حتى قدموا مصر، فأمره مالك بن ذعر حتى اغتسل، ولبس ثوباً حسناً، وعرضه على البيع، فاشتراه قطفير بن رويجب ـ وهو العزيز بمصر ـ وكان على خزائن الملك الأعظم وصاحب أمره[2]. قال وهب: ترافع الناس في ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً، فابتاعه قطفير بهذا الثمن وأتى به إلى منزله، قال لامرأته ـ واسمها راعيل ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي أحسني إليه طول مقامه عندنا عسى أن ينفعنا في أمورنا أو أن نبيعه فنربح في ثمنه، أو نتخذه ولداً نتبناه. وكان العزيز عقيماً أو حصوراً لا يولد له. وإنما قال ذلك لما رأى على يوسف من الجمال والعقل والهداية إلى الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كما خلصناه من البئر

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 111.

ومن إخوته، كذلك مكناه في أرض مصر وملكناه فيها حتى بلغ ما بلغ[1].

قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي لنعلمه من ضروب العلوم ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي لا يقدر أحد على دفع ما أراد من أمره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن الله غالب على أمره وهم المشركون.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ قال ابن عباس: لما بلغ ثماني عشرة سنة آتيناه النبوة والفقه، وجعلناه حكيماً عليماً. قال: والأشد من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، ويقال: أقصاه اثنتان وثلاثون سنة، فأما الاستواء فهو أربعون سنة[2]. وقال الحسن: أعطي يوسف الرسالة عند هذه الحالة، وكان أعطي النبوة من قبل. ويقال معناه: آتيناه حكماً وعلما: أي آتيناه الحكم بين الناس، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز أمره أن يحكم بينهم لما رأى من عقله وأمانته وعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كما جازينا يوسف على صبره على المحن، كذلك نجزي المحسنين في قولهم وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي راودته امرأة العزيز ـ واسمها زليخاء وكان يوسف من أحسن البشر، وكان كضوء النهار ونور الشمس، وكان بحيث لا يستطيع آدمي أن يصفه. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ أي طالبته بمرادها منه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ عليه وعليها وطلبت منه أن يواقعها.

---

(1) المصدر السابق.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 112.

قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قال المفسرون: أغلقت سبعة أبواب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي هلمّ إلى ما هيِّئ لك. قرأ ابن كثير: هيت ـ بفتح الهاء وضم التاء، وقرأ أهل المدينة والشام بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء[1]، وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، معناها جميعاً: هلم وأقبل. قال مجاهد: تدعوه إلى نفسها، وهي كلمة حث[2].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله أن أفعل ما لا يجوز لي فعله، وقيل: أعتصم بالله عن فعل ما تدعينني إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي ذهب أكثر المفسرين[3] إلى أن معناه: أن زوجك سيدي أحسن تربيتي ومنزلتي مدة مقامي عنده لا أخونه في أهله. سماه رباً للرق الذي كان ثبت له في الظاهر عليه، وقيل معناه: إن ربي أحسن لي بتخليصي من البئر ومما قصدني قومي من الهلاك، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يأمن ولا ينجو من عذاب الله القوم الذين يظلمون أنفسهم، أراد بهم الزناة، ويجوز أن يكون أراد: لو فعل ما دعته إليه لكان ظالماً لزوجها في أهله. وفي قوله: ﴿هَيۡتَ﴾ خلاف: من فتح التاء فلسكونها وسكون الياء قبلها نحو كيف وأين، ومن ضم التاء فعلى أنها مبنية على الضم نحو حيث ومنذ، ومن قرأ بفتح الهاء وكسرها فلأن الأصل في التقاء الساكنين حركة الكسر، ويجوز أن يكون مبنياً على الكسر مثل: أمس وجير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال الحسن: أما همّها فأخبث هم وهو العزم على الفاحشة، وأما همه فهو ما طبع عليه الرجال من شهوة النساء من دون عزم على الزنا. واختلف أهل العلم في ذلك، فروي عن ابن عباس أنه سئل: ما بلغ من أمر يوسف؟ فقال: حل الهميان وجلس منها مجلس

---

(1) مكي الكشف: 2/ 8.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 270.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 277.

الخاتن[1]. وعن ابن مليكة[2] قال: سألت ابن عباس: ما بلغ من أمر يوسف؟ قال: استلقت له على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك والسدي[3]. وروي عن ابن عباس أنه لما راودت يوسف جعلت تذكر محاسنه وتشوقه إلى نفسها فقالت: يا يوسف ما أحسن عينيك! قال: هما أول ما يسير إلى الأرض من جسدي. قالت ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله. قالت ما أحسن شعرك! قال: هو أول ما ينتشر مني. قالت: ما أحسن صورتك! قال: ربي صورني. قالت: يا يوسف صورة وجهك أنحلت جسمي. قال: الشيطان يعينك على ذلك. قالت: فراش الحرير قد بسطته قم فاقض حاجتي. قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة. قالت: ادخل في الستر معي. قال: ليس شيء يسترني من الله. فلم تزل تدعوه إلى اللذة ويوسف شاب مستقبل يجد من شبق الشباب ما يجد الرجل، وهي حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به وهمّ بها. فهذه أقاويل جلة أهل التفسير. وقال جماعة من المتأخرين: لا يليق هذا بالأنبياء عليهم السلام، وأولوا الآية، فقال بعضهم: همّ بالفرار، وهذا لا يصح لأن الفرار مذكر، وقيل: هم بضربها ودفعها ومخاصمتها، وقال بعضهم: معنى قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ تمناها أن تكون له زوجة. وقال أهل الحقائق: الهم همان: هم مقيم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ونية ورضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به، وهم عارض وارد وهو الخطرة والفكرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف والعبد غير مأخوذ به. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به**»[4].

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 270.

(2) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، زهير بن عبد الله بن جدعان التيمي القرشي: قاضي مكة، من الأئمة الحفاظ التابعين، روى عن جده وعائشة وأم سلمة والعبادلة، وحدث عنه ابن جريج ونافع والليث. توفي سنة سبع عشرة ومائة هجرية.
تذكرة الحفاظ: 1/ 191.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 113.

(4) رواه مسلم في صحيحه في شرح النووي: 2/ 147، باب تجاوز الله تعالى عن حديث النفس.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من أحد إلا لقاه الله تعالى قد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكرياء فإنه لم يهم ولم يفعل**»[(1)]. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال أبو العباس أحمد بن يحيى: همت المرأة بالمعصية مصرة على ذلك، وهم يوسف بالمعصية ولم يأتها، وقيل: همت به المرأة عازمة على الزنا، ويوسف عارضه ما يعارض الشباب من خطرات القلب وحديث النفس، فلم يلزمه هذا الهم ذنباً، إذ الرجل الصائم يخطر بقلبه شرب الماء البارد فإذا لم يشربه كان غير مؤاخذ بما هجس في نفسه. وقال الزجاج: همّ بها وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، إلا أن الله تعالى تفضل عليه بأن أراه البرهان، ألا تراه[(2)] قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾[(3)].

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ واختلفوا في هذا البرهان: قال ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد: رأى صورة يعقوب عاضاً على أنامله، وقال قتادة: سمع صوتاً: يا يوسف أتهم بفعل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ ويقال: خرج كف بينهما بلا جسد مكتوب فيه ثلاثة أسطر[(4)] أحدها: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(5)]. والثاني: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾[(6)]، والثالث: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾[(7)]. وعن محمد بن كعب القرظي قال: معنى ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي لولا ما علمه من قبح الزنا، ووجوب العقوبة عليه، وهذا كله محذوف الجواب، وجوابه: لولا ذلك لعزم على القبيح أو عمل على مقتضى شهوته.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي كما مكنا له في الأرض كذلك أريناه البرهان لنصرف عنه السوء، أي الخيانة والفحشاء: يعني الزنا.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 114.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 101.
(3) سورة يوسف (12)، الآية: 53.
(4) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 114 هذه الأقوال.
(5) سورة البقرة (2)، الآية: 281.
(6) سورة الإسراء (17)، الآية: 32.
(7) سورة الانفطار (82)، الآية: 10 ـ 11.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي إنه ممن أخلصوا دينهم لله. ومن قرأ بفتح اللام[1] فمعناه: من عبادنا الذين أخلصناهم واصطفيناهم.

قوله تعالى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿25﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿26﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿27﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿28﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿29﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ قال السدي: وذلك أن زليخاء قالت ليوسف حين أغلقت الأبواب: ما أحسن شعرك! إلى آخر الكلام وقد تقدم ذلك حتى هم بها، فلما رأى البرهان قام مبادراً إلى الباب هارباً فاتبعته المرأة فأدركته فلما أحست بقوته خرقت مؤخر قميصه كمانعة له من الخروج. والقد: قطع الشيء بين اثنين طولاً[2].

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي صادف زوجها عند الباب جالساً، فلما رأته المرأة هابته فقالت سابقة بإلقاء الذنب على يوسف: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني الزنا إلا أن يودع في السجن أو يعذب بعذاب أليم، يعني الضرب الوجيع. فلما قالت المرأة ذلك لم يجد يوسف بداً من تبرئة نفسه فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي طالبتني بمرادها من نفسي فأبيت وفررت منها فأدركتني فشقت قميصي. وكان مع زوجها بالباب ابن عم حكيم، فقال ابن عمها: إن كان شق القميص من قدامه فهي صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن

---

(1) قال مكي في الكشف: 2/ 9، قرأ نافع وأهل الكوفة بفتح اللام.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 324.

قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾. وقال الضحاك: كان الشاهد صبياً في المهد أنطقه الله تعالى. قيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي فلما رأى ابن عمها قد القميص من خلف، ويقال: فلما رأى زوجها ذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ من مكركن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ثم قال ليوسف بعدما ظهرت براءته: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي أمسك عن ذكره حتى لا ينتشر في البلد وفيما بين الناس، ثم أقبل عليها وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ فإن الخطأ كان منك ثم ألقيته على يوسف. وقد احتج مالك، والحسن بن حيي[2] في الحكم بالعلامة بهذه الآية أن اللقطة إذا ادعاها مدَّع، ووصفها وجب على الملتقط أن يدفعها إليه[3] على مذهبهما، ولا حجة لهم في هذا لأنه لا خلاف بين الفقهاء أن الأملاك، والأيدي لا تستحق بالعلامات، فإن العطار والدباغ إذا اختلفا في عطر في أيديهما لم يكن العطار أولى به من الدباغ، وكذلك الإسكافي والصيرفي إذا اختلفا في خف في يد الصيرفي لم يستحقه الإسكافي لأجل أن ذلك من صناعته. وعن مجاهد: أن امرأتين اختصمتا إلى شريح في ولد هرة، فقال شريح: ألقوها مع هذه الهرة فإن هي درت وقرت واستقرت فهي لها، وإن هربت وفرت فليست لها[4]. وكان هذا القول من شريح على جهة ما يغلب في الظن ليستحي المبطل من المدعين فيقر فيحكم عليه بالإقرار.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 275.
(2) أبو عبد الله، الحسن بن صالح بن حيي الكوفي: فقيه زيدي مجتهد متكلم، أصله من همذان. من مؤلفاته: «الجامع» في الفقه توفي سنة ثمان وستين ومائة.
الشيرازي، طبقات الفقهاء: 85 ـ تذكرة الحفاظ: 1/ 216.
(3) الباجي، المنتقى: 7/ 136، الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 161.
(4) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 172.

لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿31﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿32﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قال ابن عباس: هن أربع نسوة: امرأة ساقي الملك، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة صاحب دوابه[1]. قلن في امرأة العزيز تدعو فتاها إلى نفسها.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي قد خرق حبه حجاب قلبها فلا تعقل غيره، ويقال: قد أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها. والشغاف: جلد يشتمل على القلب، يقال: شغفه إذا رماه فأصاب ذلك الموضع منه كما يقال: كبده إذا أصاب كبده. وقوله تعالى: ﴿حُبًّا﴾ نصب على التمييز، كأنهن قلن: أصاب حبه وسط قلبها وسويداء قلبها. وقرأ أبو رجاء، والشعبي: شعفها ـ بالعين المهملة[2]، ومعناه: ذهب الحب كل مذهب، مشتق من شعاف الجبال أي رؤوسها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خطأ بين في حب عبدها. فجعلن يفشين هذا في المدينة، فبلغ ذلك زليخاء، فهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي فلما سمعت بكلام هؤلاء النسوة وذمهن لها أرسلت إليهن فدعتهن لوليمة أعدتها لهن. ويقال: إنما سمي قول النسوة مكراً لأنها كانت أطلعتهن واستكتمتهن فأفشين سرها.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي أصلحت وهيأت لهن أمكنة يقعدن عليها ووسائد يتكين عليها. وفي قراءة ابن عباس: متكا ـ بالتخفيف من غير همز، قال: والمتك: الأترج[3]. قال وهب: دعت أربعين امرأة[4] وأعدت لهن أترجاً وبطيخاً.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 276.
(2) تفسير الطبري: 6/ 66.
(3) المصدر نفسه: 16/ 72.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 116.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتقطع بها الفواكه والأترج على ما جرت به العادة. ويقال: كانت وضعت لهن خبزاً ولحماً وهذه الفواكه، وقالت ليوسف اخرج عليهن، وذلك أنها كانت قد أجلسته في مجلس غير الذي كن قد جلسن فيه. قال عكرمة: وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على النجوم[1]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مررت ليلة أسري بي فرأيت يوسف، فقلت: يا جبريل من هذا؟ فقال: يوسف**». قالوا: كيف رأيته يا رسول الله؟قال: «**كالقمر ليلة البدر**»[2]. وروي أن يوسف عليه السلام كان إذا مشى في أزقة مصر يرى نور وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والماء على الجدار[3].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج عليهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي عظم عندهن وبلغ من شغل قلوبهن برؤيته ما قطعن أيديهن بالسكاكين. قال قتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها وهن لا يشعرن. ويقال: معنى أكبرنه أي حضن، ويقال: معنى أكبرنه: أمنين. قيل: إنهن كن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لاشتغال قلوبهن برؤية يوسف. قال وهب: وبلغني أن سبعاً من الأربعين متن في ذلك المجلس وجداً بيوسف عليه السلام[4].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي قلن معاذ الله أن يكون هذا آدمياً، بل هو ملك كريم في السماء. فشبهنه بالملك وهن لم يرين الملك، ولكن الناس إذا وصفوا بالحسن شبهوا بالملك. ومعنى: حاش لله: أي تنزيهاً لله. وفي قراءة الحسن: إن هذا إلا ملك ـ بكسر اللام، ويقرأ: ما هذا بشرى: أي بعبد مشترى[5]. وليست هذه القراءة بشيء.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 278.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) ابن الجني، المحتسب: 1/ 342 ـ 343.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي قالت زليخاء: فذلكن الذي لمتنني في حبه وشغفي به. و«ذا» إشارة إلى يوسف، و«كن» ضمير المخاطبة لهن. ثم أقرت لهن فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي دعوته إلى مرادي فامتنع بالعفة، ولئن لم يفعل ما آمره وأدعوه إليه ليسجنن في السجن ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي الأذلاء فيه مع السراق. وجعلت تقول هذا القول منها تخويفاً له وهو جالس يسمع. قال ابن عباس: فلما قالت زليخاء هذا القول قال هؤلاء النسوة ليوسف: أطع مولاتك[1]. فقال ما قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي قال يوسف يا رب نزول السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه من قبيح الفعل، والسجن أسهل عليّ من المعصية. ومن قرأ: السجن ـ بفتح السين، فهو المصدر[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي وإلا تلطف بي بما يصرف عني كيدهن أمل إليهن بهواي وأكن بمنزلة الجاهلين في فعلي. وفي هذا دليل أن النسوة طلبن منه مثل ما طلبت امرأة العزيز منه، فإنه روي أنهن لما رأين يوسف استأذن امرأة العزيز أن تخلو كل واحدة منهن به وتدعوه إلى امرأة العزيز وإلى طاعتها، فلما خلون به دعته كل واحدة منهن إلى نفسها[3].

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أي فأجابه ربه في دعائه فصرف عنه كيدهن وعصمه من الفواحش ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائرهم ونياتهم.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 279.
(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 44.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 116.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾ أي ثم بدا للعزيز وأصحابه من بعدما رأوا العلامات من شق القميص وقطع الأيدي وقضاء ابن عمها عليها أن يحبسه إلى مدة حتى تنقطع مقالة الناس. ويأتي على هذا الحديث مدة فحبسه بعد ظهور عذره خمس سنين.

قوله تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ روي أنه دخل على يوسف بعد دخوله بخمس سنين عبدان للملك، هو صاحب شرابه وصاحب طعامه غضب عليهما الملك، واتهم صاحب الطعام أنه يريد أن يسمه، وصاحب الشراب بأنه مالأه على ذلك، وذلك أن أعداء الملك أرادوا المكر بالملك، واغتياله فطلبوا منه هذين وضمنوا لهما مالاً ليسما طعام الملك وشرابه، فأبى الساقي وقبل الخباز الرشوة فسم الطعام، فلما حضر وقته قال الساقي: أيها الملك لا تأكل فإنه مسموم، وقال الخباز: لا تشرب أيها الملك فإنه مسموم. فقال الملك للساقي: اشرب. فشرب فلم يضره، فقال للخباز: كل من طعامك، فأبى فجربه الملك على دابة فأكلت من الطعام فماتت، فأمر الملك بحبسهما. وكان يوسف قد قال لأهل السجن لما دخله: إني أعبر الأحلام. فقال أحد هذين الفتيين لصاحبه: هلم فلنحدث هذا العبد العبراني نترايا له. فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً[1]. قال ابن مسعود: ما رأيا شيئاً إنما كانا تحالما عليه ليجربا علمه[2]. وقال قوم: كانا رأياها على حقيقة ويقين. فقال له الساقي: أيها

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 112.

(2) المصدر نفسه.

العالم إني رأيت كأني في بستان، وإذا بكرمة عليها ثلاثة عناقيد فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتهم وسعيت إلى الملك فشربه. وقال الخباز: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال من خبز وألوان الأطعمة، فإذا سباع الطير تنهشه. وإنما سمي العنب عصيراً باسم الخمر بلغة عمان، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: إني أراني أعصر عنباً[1]. قال الأصمعي: أخبرني المعتمر أنه لقي أعرابياً معه عنب فقال: ما معك؟ قال: خمر[2].

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي العالمين الذين أحسنوا العلم، وقيل: من المحسنين إلينا إن فعلت ذلك وفسرت رؤيانا. وعن الضحاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه، وإذا ضاق وسع عليه، وإذا احتاج سأل له[3]. وقال قتادة: إحسانه أنه كان يداوي مريضهم، ويعزي حزينهم[4]. قال: فكره يوسف أن يعبر لهما لما علم فيه من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي لا يأتيكما طعام تطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتفسيره وأوانه أي طعام أكلتموه. قالا له: هذا من فعل الكهنة. قال: ما أنا بكاهن وإنما ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي شريعة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وباقي الآية ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿39﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 112 ـ وابن الجني، المحتسب: 1/ 343.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 112.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 282.
(4) تفسير الطبري: 16/ 99.

لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (40)
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن
رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي
عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (42)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (39)﴾ وذلك أن يوسف رأى أهل السجن وبين أيديهم أصنام يعبدونها فدعاهم إلى الإسلام وألزمهم الحجة فقال لهم: أرباب متفرقون شتى لا تضر ولا تنفع خير أم الله الواحد القهار لا ثاني له؟ ثم بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ آلهة من غير أن تكون لتلك التسمية حقيقة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي من حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما القضاء والأمر والنهي إلا لله ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي الذي أدعوكم إليه هو الدين القائم الذي يرضاه الله لا عوج فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ معنى الآيات: أما أحدكما وهو الساقي فيسقي سيده ـ يعني الملك ـ خمراً، وأما العناقيد الثلاثة التي رآها فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرجه الملك ويعود إلى ما كان عليه، وأما الآخر فيصلب، والسلال التي رآها فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرجه الملك في اليوم الرابع فيصلبه فتأكله الطير من رأسه. فقال الخباز: إني لم أر شيئاً. فقال لهما يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي فرغ من الأمر الذي سألتم عنه فهو كائن رأيتما أم لم تريا. ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي قال يوسف للذي علم أنه ناج منهما وهو صاحب الشراب: اذكرني عند سيدك الملك أني مظلوم عدا عليّ إخوتي فباعوني وأنا حر، فحبست في السجن.

قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك، أي شغله عن ذكر ذلك بما كان يدعو إليه من اشتغاله بركوب شهواته وخدمته للملك، وقيل معناه: أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه

حين التمس من الناجي منهما أن يذكره عند سيده، وكان من حقه أن يتوكل على الله في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي لبث بسبب ذلك في السجن بضع سنين. والبضع: فيما بين الثلاث إلى التسع. وفي الخبر أنه بقي في السجن بعد هذا القول سبع سنين. وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**رحم الله أخي يوسف لو أنه ذكر ربه ولم يستغث الملك لم يلبث في السجن ما لبث**». قال: ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس[1]. وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك. فبكى يوسف وقال: يا رب أنستني كثرة البلوى[2]. ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه وقال: يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: ربك يقرئك السلام ويقول لك: أما استحييت مني إذ استغثت بالآدميين؟ فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين. قال يوسف: أهو عني إذاً راض؟ قال: نعم. قال: إذاً لا أبالي[3].

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿44﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ روي أن يوسف مرض في السجن، فأمر الله جبريل أن يعوده فعاده، فعرفه يوسف لكثرة اختلافه إلى آبائه، فقال له جبريل: يا طاهر بن الطاهرين رب العزة يقول لك: من حببك إلى أبيك من

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 112.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 118.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 287.

بين إخوتك؟ قال: هو. قال: فمن أنقذك من بين أيدي إخوتك؟ قال: هو. قال: فمن سهل لك السيارة في الأرض القفر حتى أخرجوك من قعر الجب؟ قال: هو. ثم نشر جبريل جناحه وأشار إلى الأرض فانفرجت قال: يا يوسف انظر ما ترى؟ قال: أرى هواء. ثم أشار إلى الأرض ثانياً فانفرجت كلها حتى نظر يوسف إلى الصخرة التي عليها الأرضون فقال له جبريل: ما ترى؟ قال: صخرة عليها ذرة. قال: فما ترى في فم الذرة؟ قال: أرى طعاماً. قال: رب العزة يقول لك: أنا أذكر هذه الذرة في هذا الموضع ثم أنساك على وجه الأرض، أما استحييت مني حتى تقول لعبد مثلك: اذكرني عند ربك ولم تقل: يا رب؟ فعند ذلك قال يوسف: يا رب فأسألك بمنك القديم، وفضلك العميم إلا غفرت لي. قال: الآن يا يوسف أغفر لك، وأخرجك من السجن. ثم كان من رؤيا الملك ما كان[1]. ومعنى الآية: أن الملك واسمه ريان بن الوليد رأى في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر من أنهار مصر، فخرج من بعدهن سبع بقرات عجاف، فابتلع العجاف السمان فدخلن في بطونهن فلم يستبن منهن شيء فعجب منهن، ورأى سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات أخر يابسات، التوت اليابسات على الخضر، فغلبن خضرتهن ولم يستبن عليهن شيء منهن. فأرسل الملك في هذه الرؤيا إلى السحرة والكهنة فجمعهم ثم قصّ عليهم ذلك، وقال لهم: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَىٰ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿44﴾﴾ أي قالت الكهنة والسحرة: هذه الرؤيا أباطيل الأحلام الكاذبة، وما نحن بتعيين رؤيا الأحلام المختلفة بعالمين، ليس لها عندنا تأويل.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿46﴾﴾.

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 118.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾﴾ أي قال صاحب الشراب الذي نجا من السجن والقتل وتذكر بعد سنين، ويقال: بعد انقراض أمة. والأمة في اللغة: هي المدة الكبيرة، كما أنها في الجماعة: هي الجماعة الكثيرة. ومن قرأ: بعد أمه، فمعناه: بعد نسيان[1]. وقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ قول صاحب الشراب لما عجز الكهنة عن تأويل رؤيا الملك، جاء ووقف بين يديه فخاطبه بلفظ الجماعة كما يخاطب الملك وقال: أنا أخبركم بتعبير هذه الرؤيا فأرسلون إلى السجن. ثم قال: أيها الملك أنت غضبت عليّ فحبستني أنا وخبازك، فرأينا فيها رؤيا فقصصناها على رجل في السجن عالم صالح صادق فأخبرنا بها، فكان كما أخبرنا فأرسلون إليه. فأرسلوه فدخل عليه السجن وقال: يا يوسف أيها الصديق. وحذف كلمة النداء اختصاراً. والصديق: الذي يجري على عادته في الصدق والتصديق بالحق ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر يتبعهن سبع بقرات هالكات من الهزال، وفي سبع سنبلات خضر وأخر يابسات التوين على الخضر وغلبن خضرتهن.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأن أرجع بتأويل ذلك إلى الملك والناس فيعلمونه. فقال له يوسف: أما سبع بقرات سمان فهي سبع سنين خصيبة، وأما سنبلات خضر فهو الخصب والرخص في سني الخصب، وأما سبع بقرات عجاف فهي السنون السبع الجدبة، وأما سبع سنبلات يابسات فهي القحط والغلاء في السنين الجدبة. ثم علمه يوسف عليه السلام كيف يصنعون.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿47﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿49﴾﴾.

---

(1) ابن الجني، المحتسب: 1/ 344.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على ما هو عادتكم في الزراعة، وقيل معنى قوله: ﴿دَأَبًا﴾ بجد واجتهاد.

قوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦ﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله ولا تدرسوه إلا قليلاً مما تأكلون من ذلك في كل سنة. وإنما أمرهم بهذا لأن الحنطة إذا كانت في سنبلها كانت أبقى منها إذا ديست، وأنها إذا ديست تآكلت وفسدت بمضي المدة عليها.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي قحطة ضيقة على الناس يأكلون فيها ما ادخرتم لهن من زرع السنين المخصبة إلا شيئاً قليلاً تحصنونه في موضع من المواضع، ونسب الأكل إلى السنين القحاط على جهة التوسع، لأن الأكل كان يقع فيها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ هذا من خبر يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله كما قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوا عنها[1]. والمعنى: أن يوسف عليه السلام قال له: ثم يأتي من بعد هذه السنين الأربع عشرة سنة فيها يغاث الناس. يجوز أن يكون هذا من الغوث الذي يغيث الله به في تلك السنة عباده، فيتركون فيها زرعهم وفواكههم وأعنابهم ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر، أي يأتيهم الله بالأمطار والخصب في تلك السنة. قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ـ بالتاء، لأن الكلام كله خطاب، وقرأ الباقون بالياء رده إلى الناس[2]. قال أكثر المفسرين: يعصرون العنب خمراً، والزيتون زيتاً والسمسم دهناً. أراد: يعصرون الأعناب والثمار والحبوب من كثرة العنب والخير، وقيل معناه: ينجون من البلاء والشدة. والعصرة: النجاة، قال الشاعر:

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 128.
(2) مكي الكشف: 2/ 11.

.... ∴ ولقد كان عصرة المنجود[1]

ومن قرأ: تعصرون ـ بضم التاء ونصب الصاد[2]، فمعناه: تمطرون، من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾[3]. فلما رجع الرسول إليه وأخبره بمقالته، قال الملك: ائتوني به. فذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ قال له إن الملك يدعوك. قال له يوسف: ارجع إلى سيدك الملك فاسأله حتى يسأل عن شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن أكن صادقات على يوسف أم كاذبات عليه؟ وليعلم صحة براءتي، ويعلم أني مظلوم بالحبس، وأبى أن يخرج مع الرسول. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لقد عجبت من صبر أخي يوسف وكرمه، ولو كنت أنا الذي دعيت إلى الخروج لبادرتهم إلى الباب، ولكنه أحب أن يكون له العذر**»[4].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ فيه إضمار قبله،

---

(1) هذا عجز بيت صدره: صادياً يستغيث غير مغاث......
هو من قول أبي زيد الطائي من قصيدة يرثي بها ابن أخيه اللجلاج، وكان مات عطشاً في طريق مكة. (جمهرة أشعار العرب: 138، اللسان: نجد، وعصر).

(2) ابن جني، المحتسب: 1/ 344.

(3) سورة النبأ (78)، الآية: 14.

(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 408، كتاب التعبير، والبغوي في سننه: 1/ 144، رقم: 63.

تقدير الكلام: فرجع الرسول إلى الملك فأعلمه بذلك، فأرسل الملك إلى النسوة فأحضرن ثم قال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي ما شأنكن إذ طلبتن يوسف عليه السلام عن نفسه. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ هذا جواب النسوة للملك بكلمة التنزيه، نزهن يوسف عما اتُّهم به.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي من قبيح.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي تبين وظهر الحق ليوسف، أنا دعوته إلى نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قوله إنه لم يراودني. قال ابن عباس: فرجع صاحب الشراب إلى يوسف فأخبره بذلك، فقال يوسف: ذلك الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه في شأن النسوة ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب في زوجته في حال غيبته عني. قال أهل الوعظ: قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟[1] فقال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ فإن صحت هذه الرواية كان المعنى: وما أبرىء نفسي من الهم، أي ما أزكيها. وتزكية النفس مما يذم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلا ما عصمني ربي بلطفه. و«ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ﴾[2] وفي هذا دليل أن أحداً لا يمتنع من المعصية إلا بعصمة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لذنوب المذنبين رحيم بهم بعد التوبة.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿54﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿55﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿56﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿57﴾﴾.

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 143.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 3.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي قال الملك: ائتوني بيوسف أجعله خالصاً لنفسي أرجع إليه في تدبير مملكتي وأعمل على إشارته. فلما جاءه الرسول قال: أجب الملك. قال: الآن فخرج يوسف، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره، وأعوذ بك من شره، وشر غيره، ثم سلم عليه يوسف بالعربية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل. ثم دعا له بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة[1]. فلما رأى الملك حداثة سنه قال لمن بمثله[2]: إن هذا علم تأويل رؤياي ولم يعلمه السحرة ولا الكهنة. ثم أجلسه وقال له: إني أحب أن أسمع تأويل رؤياي شفاهاً منك: فقال: أيها الملك: رأيت سبع بقرات سمان حسان كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه، فبينا أنت تنظر إليهن، ويعجبك حسنهن إذ نضب النيل وغار ماؤه، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر مقلصات البطون، ليس لهن ضروع، ولهن أضراس وأنياب، وأكف كأكف الكلاب فاختلطن بالسمان فافترسنهن افتراس السباع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن ومشمشن مخهن وحطمن عظامهن، فبينا أنت تتعجب إذا بسبع سنبلات خضر وسبع أخر سود في منبت واحد وأصولهن، إذ هبت الريح فجعلت اليابسات السود على الخضر المثمرات، فاشتعلت فيهن النار فاحترقن، فهذا ما رأيت من رؤيا. فقال الملك: والله إن هذه الرؤيا، وإن كانت عجباً، فإن الذي سمعت منك أعجب، فما ترى فيها؟ فقال له: تأويلها كذا وكذا. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي قال له الملك: إنك اليوم لدينا متمكن من فعل ما تريد، نافذ القول والأمر، قد ظهرت أمانتك، وظهر كذب النساء عليك، ولم يظهر منك خيانة.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 293.

(2) في النسخة (ف): عنده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾ أي قال يوسف: اجعلني على خزائن أرضك واجعل تدبيرها إليّ. وأراد بذلك الخزائن التي جمع فيها طعام الأرض وأموالها التي كان مصيرها إلى الملك. وكانت أرض مصر أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً. وإنما سأل يوسف ذلك لصلاح الخلق، لأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لإقامة العدل ووضع الأشياء مواضعها، فعلم يوسف أنه لا أحد أقوم بذلك منه. قوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي حافظ للخزائن عالم بوضعها مواضعها، وقيل: بجميع ألسن الغرباء الذين يأتونك فإنه كان يتكلم بالعربي، والعبراني، والسرياني، والقبطي، وقيل: عالم بساعات حاجات الناس، وذلك أنه أمر الخبازين أن يجعلوا غداء الملك نصف النهار، فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار. فلما كانت الليلة التي وقع فيها الجوع من أول السنين الجدبة، أمر الخبازين أن يجعلوا غداءه مع عشائه ففعلوا، فوقع الجوع في نصف الليل فهتف الملك: يا يوسف الجوع الجوع. فقرب إليه طعامه. وفي الآية دليل على أنه يجوز للإنسان أن يمدح نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[1] النهي عن تزكية النفس للفخر والسمعة.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي كما برأنا ساحته وخلصناه من الحبس، كذلك مكنا له في أرض مصر يتبوأ منها، أي يتنزل منها حيث يشاء. روي أن الملك توّجه وأعطاه سيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، ثم أمره أن يجلس عليه فجلس، ولزم الملك بيته وفوض إليه كل أموره، وذلت له سائر الملوك، فلطف يوسف بالناس، وأقام فيهم العدل، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، فأحبه الناس كلهم، وآمن كثير منهم.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي نخص بأنعمنا من نشاء ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

---

(1) سورة النجم(53)، الآية: 32.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ولثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا للذين آمنوا بالله وكتبه ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والفواحش.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿58﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿59﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿60﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿61﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ وهم عشرة جاؤوا من عند أبيهم في سني القحط لطلب الطعام كما يجيء غيرهم، فدخلوا عليه وكلموه بالعبرانية وعليه ثياب حرير وطوق ذهب وهو جالس على سرير ملكه، فعرفهم أنهم إخوته، وكانوا لا يعرفونه لطول العهد لأنهم كانوا رأوه صغيراً ولم يظنوا أنه يصير ملكاً، فأمارهم وأحسن إليهم وفاوضهم في الحديث حتى حدثوه بحديث أبيهم وقالوا: إنا لنا أباً شيخاً كبيراً، وكنا اثني عشر فهلك واحد منا في الغنم ووجدنا قميصه وعليه دم، فأتينا به أبانا، وله أخ هو آثر إلى أبينا منا. فقال لهم: ائتوني بأخ لكم من أبيكم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ أي لما أعطاهم الميرة وكال لهم كيلهم قال لهم: ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أعطي الناس حقوقهم على التمام؟ ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ للأمور منازلها ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿60﴾﴾ مرة أخرى.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿61﴾﴾ أي سنطلبه من أبيه وإنا لضامنون أنا سنجيء به. وخاف يوسف أن لا يكون عند أبيهم من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى، فأمر أن تجعل دراهمهم في أوعيتهم على غير علم منهم بذلك[1].

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ

(1) تفسير الثعلبي، ورقة 0: 121.

يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا
نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ (63) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ أي قال يوسف لخدامه من مماليكه: اجعلوا دراهمهم ودنانيرهم التي جاؤوا بها في رحالهم لكي يعرفوا هذه الكرامة مني، ويقال: كي يعرفوا أنها دراهمي فيرجعوا فيردوها عليّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي منع منا الكيل فيما يستقبل إن لم ترسل معنا أخانا يكتل لنا وله. ومن قرأ: يكتل ـ بالياء، أي يكتل أخونا يأخذ لنفسه حملاً[1] ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي حتى نرده عليك. ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف من قبل فضيعتموه وغيبتموه عني، ولئن أرسلت معكم بنيامين فعلى الله أتوكل، فإن حفظ الله خير من حفظكم. ومن قرأ: خير حافظاً ـ أي خير حافظ، وكلاهما نصب على التمييز[2]. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قال كعب: لما قال يعقوب: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ قال الله تعالى: وعزتي لأردن عليك كلاهما بعدما توكلت علي[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي لما فتحوا أوعيتهم وجدوا دراهمهم ردت إليهم قالوا لأبيهم، ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي ما نظلم ولا نكذب فيما أخبرناك به، أن ملك مصر أكرمنا وألطفنا. وهذا إذا كان قوله: ما نبغي، من البغي. فأما إذا كان من الطلب فمعناه الاستفهام دون الجحد. وموضع ما «نصب تقديره»: أي شيء تريد. وفي قراءة عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ما تبغ، معناه: ما تطلب[4].

---

(1) مكي الكشف: 2/ 12.
(2) نفسه: 2/ 13.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 302.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 122.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ابتداء كلام معناه: أن دراهمنا وهي ثمن الطعام الذي اشتريناه بمصر ردت إلينا.

قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نمتار لأهلنا. يقال: مار فلان لأهله إذا حمل إليهم قوتهم من غير بلده. ومن قرأ: نمير - بضم النون، أي نجعلهم أصحاب ميرة[1]. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من أن يضيع، ونزداد حمل بعير إذا كان هو معنا. وسمي الحمل كيلاً لأنه يكال.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي هين سريع لا حبس فيه إن أرسلته معنا.

قوله تعالى:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿66﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال ابن عباس: خاف يعقوب على بنيه العين لجمالهم وقوتهم وهم كلهم بنو أب واحد[2]. ثم رجع إلى علمه وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما أدفع عنكم من قضاء الله إن كان قد قضى عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما القضاء إلا لله، إليه فوضت أمري وأمركم، مع التمسك بطاعته والرضاء بقضائه. ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾﴾. واختلف العلماء في أمر العين، فقال بعضهم: هي حق، واستدلوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عوذ الحسن والحسين ورقى لهما من العين وقال: أعيذهما بالله من كل عين لامة[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: «**العين**

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 334.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 303.
(3) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 67، رقم: 4711.

حق»[1]، وقال بعضهم: إنه يمتد من عين الناظر أجزاء تتصل بما يستحسنه فيؤثر فيه كما يؤثر اللسع من النار والسم. وأنكر بعض العلماء الإصابة بالعين لأنه لا شبهة في أن الأمراض والأسقام لا تكون إلا من فعل الله، لأن الإنسان لا يقدر على ذلك. وفي قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ بيان أنه لا ينفع حذر من قدر.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ (70)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي لما دخلوا مصر من أبواب متفرقة. وكان بمصر أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها كلها كما أمرهم.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما كان ينفع عنهم شيئاً من قضاء الله يغني لو قدر الله أن تصيبهم العين لأصابتهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي دخولهم مصر من أبواب متفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي يعقوب ذو يقين ومعرفة بالله وبأمر الدين لتعليمنا إياه أن لا يصيب أحداً شيء إلا بقضاء الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي ضم أخاه بنيامين إلى نفسه، وقيل: أذن له بالدخول عليه وحبس إخوته بالباب. فلما دخل

---

(1) رواه مسلم في صحيحه: بشرح النووي: 4/ 170، الطب والمرض والرقى، وابن ماجه في سننه: 2/ 1066، رقم: 3234.

عليه قال له: ما اسمك؟ قال: بنيامين. قال: ما اسم أمك؟ قال: رحيل. قال: فهل لك إخوة؟ قال: نعم، عشرة. قال: هل لك أخ من أمك؟ قال: كان لي أخ من أمي هلك. قال: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ فقال: أيها الملك ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا رحيل. فجعت يوسف الغيرة فبكى، ثم وثب عليه واعتنقه وقال له: إني أنا أخوك. وبكى كل واحد منهما لما أعلمه يوسف أنه سيحتال في احتباسه عنده[1]، ثم أذن لأخوته بعد ذلك بالدخول عليه، فدخلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تحزن بما كانوا يعملون بي وبك من حسدنا وصرف وجه أبينا عنا، فقد جمع الله بيني وبينك وأرجو أن يجمع الله بيننا وبين يعقوب، ثم أوفى يوسف لأخوته الكيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي فلما كال لهم أمر أصحابه المختصين به أن يجعلوا الصاع في رحل أخيه بنيامين. وسمي الصاع سقاية لأنه كان قبل ذلك مما يسقي به الملك الخمر وكان من ذهب. وقال ابن عباس: كان قدحاً من زبرجد، وقيل: كان من فضة مموه بالذهب[2]، وكان الشرب في مثل ذلك الإناء جائز في شريعتهم. فلما كان في أيام القحط أمر الملك أن يكال به الطعام للناس. قيل: لما قال يوسف لبنيامين إني أنا أخوك، قال له: فإني لا أفارقك أبداً. قال يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي، فأخاف إن أحبسك معي ازداد غمه، ثم لا يمكنني حبسك إلا أن أشهرك بأمر فظيع. قال: لا أبالي فافعل ما شئت. قال: فإني أدس صاعي هذا في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي حبسك معي[3]. فلما رحل إخوة يوسف نادى مناد: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿70﴾﴾ وكان هذا النداء على ظن من هؤلاء الموكلين بالصاع أنهم كذلك. ولم يكن هذا النداء بأمر يوسف ولا بعلمه، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يؤمرون بالكذب. ومن قال: إن هذا النداء

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 305.

(2) المصدر نفسه.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 124.

كان بأمر يوسف فيحتمل أن يكون معناه: إنكم لسارقون يوسف على أبيه حين غيبتموه عنه. والعير: اسم لقافلة الحمير دون قافلة الإبل، ثم كثر استعماله في كل قافلة.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي قال إخوة يوسف: وأقبلوا على المنادي وأصحابه ماذا تطلبون ولماذا تنسبوننا إلى السرقة؟ قالوا نطلب صاع الملك. والصواع والصاع واحد وهو السقاية.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي ولمن جاء بالصاع حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي كفيل. قال هذا القول المؤذن، وقال لهم أيضاً: إن الملك قد اتهمني وأخاف عقوبته وسقوط منزلتي عنده إن لم أجد الصاع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي حلفوا بالله وقالوا: لقد علمتم ما جئنا لنفسد في أرض بالسرقة بين الناس ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ ما تطلبونه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي ما جزاء من سرق إن كنتم كاذبين. قالوا: جزاء السارق من وجد في رحله أخذ عبداً بسرقته فاسترقاقه جزاؤه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي هكذا نجزي السارقين في أرضنا وهي سنّة يعقوب عليه السلام[1]. حكموا على أنفسهم بما كان يطلب يوسف من احتباس أخيه.

قوله تعالى:

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 307.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿76﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي فبدأ فتى يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، فلما فتش وعاء أخيه وجد الصاع فيه، فلما رأى إخوة يوسف ذلك تحيروا ونكسوا رؤوسهم وقالوا لبنيامين: يا ابن المشؤومة وأخا المشؤوم ما الذي حملك على أن تسرق صواع الملك فتفضحنا وتزري بأبيك يعقوب؟ فجعل يحلف بالله ما سرقته ولا علم لي بمن وضعه، فلم يقبلوا منه وقالوا له: فمن وضعه في متاعك؟ قال: الذي وضع بضاعتكم في رحالكم في المرة الأولى. فقالوا فيما بينهم: لعل هذا الملك يريد بنا أمراً. فبينما هم في الخصومة إذ أقبل فتى يوسف فأخذ برقبة بنيامين وذهب به إليه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي كذلك صنعنا ليوسف حتى أخذ أخاه. وفي هذا دليل على أن يوسف كان مأذوناً له من جهة الله في هذه الحيلة ليضاعف الثواب ليعقوب على فقدهما.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما كان ليأخذ أخاه في قضاء الملك، لأن من حكم الملك في السارق: أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق، فلم يكن يوسف متمكناً من حبس أخيه عنده في حكم الملك لولا ما كاد الله له تلطفاً حتى وجد السبيل في ذلك، وهو ما جرى على ألسنة إخوته: أن جزاء السارق الاسترقاق، فأقروا به وكان ذلك مراده، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وكان ذلك بمشيئة الله.

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي في العلم كما رفعنا درجة يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي وفوق كل عالمٍ عالمٌ حتى ينتهي العلم إلى الله.

قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿77﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ

إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿78﴾ قَالَ مَعَاذَ
ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿79﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي قال إخوة يوسف: إن يسرق بنيامين سقاية الملك فقد سرق أخ له لأبيه وأمه من قبل ـ يعنون يوسف ـ وذلك أن عمة يوسف كانت تحبه وهو صغير، وكان يعقوب لا يتركه عندها فاحتالت وجاءت بمنطقة أبيها إسحاق فشدتها على وسط يوسف تحت القميص ثم قالت: فقد سرق منطقة أبي فأنا آخذه بذلك. فهي التي أراد إخوته بإضافتهم السرقة إليه. وعن مجاهد: أن يوسف جاءه سائل يوماً فسرق بيضة من البيت فناوله إياها فعيروه بذلك[1]. وقيل: كان يخبىء الطعام من المائدة للفقراء. وقيل: جاءه سائل ولم يكن في المنزل معه أحد فأعطاه جدياً من غير أمر أبيه، فهذه سرقته.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أسر يوسف هذه الكلمة في نفسه ولم يظهرها لهم جواباً، بل قال في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي صنيعاً من يوسف فيما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ به يوسف.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ روي أن يهوذا كان أشد بني يعقوب غضباً، وكان إذا غضب صاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت، وكان إذا غضب تقوم كل شعرة من جسده وينتفخ فلا يسكن غضبه حتى يمسه واحد من آل يعقوب، فقال يهودا لبعض إخوته: انظروا كم سوقاً بمصر؟ فنظروا فإذا هي عشرة، فقال لإخوته اكفوني أمر هذه الأسواق حتى أكفيكم أمر الملك ثم قال: تباعدوا عني. فأمر يوسف ابناً له صغيراً فقال له: اذهب فمسّ ذلك الرجل. فدنا منه فمسه فذهب غضبه، ثم هم أن يصيح ثانياً، فقام إليه يوسف فركضه برجله ليريه أنه شديد ودفعه، ثم أخذ بتلابيبه فجذبه فوقع في الأرض ثم قال: إنكم لترون يا معشر العبرانيين أن أحداً ليس

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 310.

مثلكم في الشدة. فقال يهودا لأخوته: هل مسني أحد من آل يعقوب؟ قالوا: لا. فذلّ يهودا عن ذلك[1]. وقالوا: يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً في السن فذكروا هذا على جهة الاسترحام، وقيل معناه: كبير القدر لا يحبس ابن مثله، فخذ أحدنا مكانه عبداً، وقيل: رهناً، كذا في تفسير عبد الصمد. وفي هذا دليل أنه كان يجوز للإنسان أن يرق نفسه لغيره، وقد نسخ هذا بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى كل من يأتيك وقد أوفيت لنا الكيل ورددت علينا بضاعتنا وقضيت حاجتنا، فإن رددت معنا أخانا كان أعظم منة علينا من جميع ما سبق. قال يوسف: معاذ الله، وهذا نصب على المصدر، أي أعوذ بالله معاذاً أن آخذ بالسرقة إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذا فعلنا كنا ظالمين بحبس من لم نجد متاعنا عنده. ويجوز أن يكون أراد: إنا إذاً لظالمون عندكم وفي حكمكم.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿80﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿81﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿82﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي لما يئسوا من يوسف أن يرد أخاهم عليهم انفردوا متناجين فيما بينهم يتشاورون كيف يرجعون إلى أبيهم، وماذا يقولون له؟ والنجي: مصدر يعبر به عن الواحد والجمع، وقد يجمع النجي أنجية. قال الشاعر[2]:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 126.

(2) سحيم بن وثيل بن عمرو اليربوعي التميمي: شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام، وتوفي سنة ستين هجرية.

إنـي إذا مـا الـقـوم صـاروا أنـجـيـه ∴ واخـتـلـفـت أعـنـاقـهـم كـالأرشـيـه

هـنـاك أوصـيـنـي ولا تـوصـي بـيـه[1]

قـولـه تـعـالـى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم روبيل ـ وكان أكبرهم في السن ـ: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً من الله لتردنه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي وتعلموا تفريطكم من قبل هذا، فلن أبرح أرض مصر حتى يأذن لي أبي في البراح أو يحكم الله لي في موت أو وصول إلى أخي فأردده إلى أبي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لا يحكم إلا بالحق. ثم قال لإخوته كما قال الله تعالى: ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك. وقرأ ابن عباس: سرق ـ بضم السين وتشديد الراء[2]. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ إخبار عن ظاهر وجود الصاع في رحل بنيامين أنه هو الآخذ له ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي ما كنا ندري باطن الأمر في السرقة أنه سرق أو كذب عليه.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ أي سل من شئت من أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر، فإن هذا أمر شائع فيهم يخبرك به من سألته. وسمي المصر قرية لأن العرب تسمّي الأمصار والمدائن قرى، وقيل: أرادوا بالقرية قرية من قرى مصر وهي التي ارتحلوا من مصر إليها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي واسأل أهل القافلة الذين رجعنا معهم، وكان قد صحبهم قوم من كنعان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقول لك. فقال لهم يعقوب كما قال الله تعالى:

---

(1) قال هذا الرجز للشاعر سحيم يصف به قوماً جدّ بهم السير فرقدوا فوق الركاب واضطربوا عليها اضطراب الأرشية بالدلاء، وشد بعضهم بالحبال خوف السقوط. وضرب مثلاً لنزول الأمر المهم واختلاف الآراء واضطرابها. (الخزانة: 10/ 247، اللسان: نجا ـ شرح شواهد المغني: 7/ 231، الزجاج، معاني القرآن: 3/ 124).

(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 313، الفراء، معاني القرآن: 2/ 53.

قوله تعالى:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿83﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿84﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿85﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿86﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: إن ابني لا يسرق، وإنما سهلت لكم أنفسكم أمراً أن قلتم فيه سرق، فأمري صبر جميل لا جزع فيه.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي بيوسف وبنيامين وروبيل، إنه هو العليم بعباده الحكيم في تدبير أمر خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي أعرض عنهم لشدة الحزن وقال: يا أسفي على يوسف، أي أقبل أيها الأسف فقد حان وقتك. والأسف والحزن واحد، وقيل الأسف: أشد الحزن.

قوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي ابيضت عيناه من شدة البكاء من الحزن، وإلا فالحزن لا يبيض العين، والحزن والدمع مما لا يمكن الاحتراز عنه كما قال صلى الله عليه وسلم: «**القلب يحزن والعين تدمع**»(1).

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممسك للحزن يتردد حزنه في جوفه. وقال عطاء: الكظيم: الحزين. وقال الضحاك: كميد. وقال ابن عباس: مهموم. وقال مقاتل: لم يبصر بعينيه ست سنين حتى كشفه الله بقميص يوسف. قيل: بلغ من حزن يعقوب حزن سبعين ثكلا(2).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 15/ 175، وأبو داود في سننه: عون المعبود: 8/ 398، رقم: 3110، باب البكاء على الميت.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 127، فقد ذكر هذه الأقوال.

مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي قال أولاد يعقوب: والله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون دنفاً أو تموت. والحرض: الذائب البالي. وعن الحسن: حتى تكون حرضاً ـ بضمتين، أراد: كالأشنان الدنوف. وقال الربيع: الحرض: يابس الجلد على العظم، وقيل: هو الضعيف الذي لا حراك به. وإنما أضمر «لا» في قوله: تفتؤ، لأن العرب تقول: والله تدخل هذه الدار، تريد بذلك نفي الدخول، فإذا أرادت الإيثار قالت: لتدخلن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي قال يعقوب: إنما أشكو غمي وحزني إلى الله. والبث: هو تفريق الحزن الذي لا يكاد يصبر عنه صاحبه حتى يبثه. وروي أن رجلاً قال ليعقوب عليه السلام: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: حزني على يوسف. قال: فما الذي قوس ظهرك؟ قال: حزني على أخيه. فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ وعزتي لا أكشف ما بك حتى تدعوني. فقال عند ذلك: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي ولو كانا ميتين لأحييتهما لك حتى تنظر إليهما. وقيل: إن رجلاً دخل عليه فقال له: يا يعقوب مالي أراك قد انهشمت وفنيت؟ فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف. فأوحى الله إليه: أتشكوني إلى خلقي، وعزتي وجلالي فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي. فقال: قد غفرتها لك. فكان بعد ذلك يقول: إذا سئل: أشكو بثي وحزني إلى الله[1]. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ فقال: لا. قال: لأنك شويت وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه. كذا في تفسير الثعلبي[2]. ويقال: إن سبب ابتلاء يعقوب أنه كان له بقرة ولها عجل، فذبح عجلها بين يديها وهي تخور فلم يرحمها يعقوب، فأخذه الله به وابتلاه بفقد أعز أولاده[3]. من وسيط الواحدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 317.
(2) ورقة: 128.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 317.

وأنا سنسجد له. وقيل: اعلم أن يوسف حي لم يمت لأنه روي أن ملك الموت دخل على يعقوب فقال له يعقوب: هل قبضت روح ابني[1] يوسف في الأرواح؟ قال: لا، وستراه عاجلاً. كذا في تفسير عبد الصمد. فعند ذلك قال يعقوب لأولاده كما قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿87﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿88﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا واستخبروا واطلبوا يوسف وأخاه. وقال ابن عباس معناه: فالتمسوا يوسف وأخاه ولا تيأسوا من روح الله، أي لا تقنطوا من فرج الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وسئل ابن عباس عن الفرق بين التجسس والتحسس فقال: التحسس في الخير، والتجسس في الشر. وروي أن يعقوب كتب كتاباً إلى عزيز مصر: بسم الله الرحمن الرحيم. من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز مصر. أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، ابتلى الله جدي إبراهيم بأن طرح في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وابتلى عمي إسماعيل بالذبح ففداه الله بكبش عظيم، وابتلى أبي بالعمى، وابتليت أنا بغيبة ابني يوسف فذهب بصري، وزعمت أن ابني سرق، وما ولدت سارقاً، فخل سبيل ابني وإلا فإن الله يفعل ما يشاء. ثم دفع الكتاب إلى أولاده وقال لهم: إذا دخلتم عليه فقولوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر[2]. كذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي فلما دخلوا على يوسف في المرة الثالثة قالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، أي الشدة من القحط

---

(1) في النسخة (ف): ولدي.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 128.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي قليلة كاسدة. والمزجاة: هي الشيء اليسير الذي يدفع به. روي أنهم جاؤوا بمتاع العرب مثل: الأقط والجبن والسمن والصوف، وقيل: جاؤوا بدراهم رديئة لا تنفق في الطعام، وقال الضحاك: النعال والأدم[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي أوف لنا الكيل كما كنت توفي في السنين الماضية، ولا تنظر إلى قلة بضاعتنا في هذه السنة ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي تفضل علينا بنقصان السعر. وقال سفيان بن عيينة: سألوا الصدقة وهم أنبياء، وكانت حلالاً لهم، وإنما حرمت على النبي صلى الله عليه وسلم. وكره مجاهد أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علينا، الصدقة إنما هي ممن يبتغي الثواب[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي على صدقاتهم بأفضل منها.

قوله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ روي أنهم لما دفعوا الكتاب إليه وقرأه أرعد حتى سقط الكتاب من يده، ثم انتحب انتحابة كاد أن ينقطع منها صلبه، وقال لهم عند ذلك: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ وقص عليهم جميع ما عملوه به من إلقائهم إياه في الجب، وبيعهم له، وقولهم إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، وفعلهم بأخيه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 320.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 129.

حتى صار ذليلاً فيما بينهم. وأراد بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ جهالة الصبا، وقيل أراد: إذ أنتم شباب أحداث لا تعرفون أمور الدين. فلما قص عليهم ذلك ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ بصبرنا على الشدة، إنه من يتق المعاصي ويصبر على الشدائد فإن الله لا يبطل ثواب المحسنين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي فضلك علينا بما أنعم عليك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ أي وقد كنا عاصين لله فيما فعلنا. وهذا يدل على أنهم ندموا على ما فعلوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ أي تعيير عليكم اليوم، أي لا أذكر لكم ذنبكم بعد هذا اليوم. وقال ابن عباس: لا لوم عليكم[1].

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بعباده.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ أي قال لهم: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يرجع بصيراً كما كان. قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ روي أنهم كانوا نحواً من تسعين إنساناً.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 247.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾﴾ روي أنه لما خرجت القافلة من العريش وهي قرية بين مصر وكنعان بينهم وبين يعقوب ثمانية أيام، قال يعقوب لولد ولده، وكان أولاده كلهم بمصر: إني لأجد ريح يوسف. روي أن الريح حملت رائحة يوسف إلى أبيه. قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تسفهون في الرأي لقلت إنه حي. وقال الخليل: الفند: إنكار العقل من هرم، يقال شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة لأنها لم تكن في شبابها ذات رأي فتفند. وقال ابن عباس: تفندون: تجهلون. وعن مجاهد: لولا أن تقولوا ذهب عقلك. وقال الضحاك وابن جبير: لولا أن تكذبون، وقيل: لولا أن تقولوا شيخ خرف. وقال أبو عبيدة: تضللون. والفند: الفساد[1]. قال الشاعر[2]:

يا صاحبيَّ دعا لومي وتفنيدي ∴ فليس ما فات من أمري بمردود[3]

وفي بعض الروايات أن ذلك القميص كان من الجنة، وكان الله ألبسه إبراهيم حين ألقي في النار فصارت عليه برداً وسلاماً، ثم كساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قصبة وعلقه على يوسف لما كان يخاف عليه من العين، وأمره جبريل: أن أرسل إليه قميصك هذا فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا عوفي، فلذلك أصاب يعقوب ريحه من بعد ثمانية أيام[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾ البشير: هو يهودا، وذلك أن يهودا قال ليوسف: أنا ذهبت بالقميص وهو ملطخ بالدم إليه، فأنا اليوم أذهب بالقميص إليه، فأخبره بأنه حي وأفرحه كما أحزنته. فكان هو البشير، فحمل القميص وخرج حاسراً حافياً يعدو، وكان معه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً، فلما أتاه ألقاه

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 253، المجاز، لأبي عبيدة: 1/ 318.
(2) هانىء بن شكيم العدوي.
(3) هذا الشعر من البحر البسيط. وفي مجاز أبي عبيدة: 1/ 318 رواية: من «أمر» بغير إضافة.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 130.

على وجهه فارتد بصيراً. قال الضحاك: رجع إليه بصره بعد العماء، وقوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن، ثم قال يعقوب للبشير: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة[1].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي ادع الله أن يغفر لنا ذنوبنا ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي سيئين عاصين لله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ روي أنه قال لهم سوف أدعو لكم ربي ليلة الجمعة آخر السحر هو الغفور لعباده الرحيم بهم، ويقال: إنهم التمسوا منه أن يستغفر لهم على الدوام وأن يجعلهم في ورده في الدعاء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ روي أن يوسف كان بعث إلى يعقوب بمائتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج، فلما دنا من مصر وكان يوسف قد خرج في أربعة آلاف من الجند، فلما رأى يعقوب الخيل قال: ما هذا؟ قالوا: هذا ابنك. فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان. ثم عانق كل واحد منهما صاحبه. وبكيا، فقال يوسف: يا أبت هل بكيت عليّ حتى ذهب بصرك؟ قال: نعم. قال: يا أبت أحزنت عليّ حتى انحنيت؟ قال: نعم. قال: يا أبت أما عرفت أن القيامة تجمعنا؟ قال: إني خشيت أن يسلب دينك فلا نجتمع[2]. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي ضمهما إلى نفسه وأنزلهما عنده. قال عامة المفسرين يعني أباه وخالته، لأن أمه كانت قد ماتت قبل ذلك، وكان موتها حين نفاسها ببنيامين، ولأن بنيامين باللغة العبرانية: ابن الوجع. ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (99)﴾ من العدو والقحط والأسواء كلها.

قوله تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 324 ـ 325.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 131.

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (100)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي رفعهما معه على سريره.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي سجد له أبوه وخالته وإخوته الأحد عشر سجود تحية وتشريف. وكان في ذلك الزمان يسجد الوضيع للشريف. وقد تقدم نسخ هذا السجود في سورة البقرة. وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج إلى بعض القرى فخرج إليه رئيس أهل القرية فسجد له، فقال: ما هذا؟ فقال: هذا شيء نصنعه للأمراء والخلفاء. فقال: اسجد لربك الذي خلقك. ويقال في معنى هذا: إنهم سجدوا شكراً لله على ما أنعم عليهم من اجتماعهم على أحسن الأحوال. ويجوز أن يكون معنى السجود: الميلان والانحناء. وعن ابن عباس أن معناه: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فقوله: (له) كناية عن الله[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ أي هذا السجود تصديق رؤياي التي رأيتها من قبل ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ أي أحسن إليّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾. هذا ثناء منه على الله تعالى بإنعامه عليه إذ خلصه من السجن ونجاه من العبودية، وجاء بأبيه وإخوته من البادية إليه.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ بالحسد ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي لطيف في تدبير عباده وبلطفه جمع بيننا على أحسن الأحوال ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح العباد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرهم. واختلفوا في المدة التي كانت بين رؤيا يوسف وبين تصديقها، قال سلمان رضي الله عنه: أربعون سنة[2]، وقال ابن عباس: اثنتان وعشرون سنة.

قوله تعالى:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 131.
(2) تفسير الطبري: 16/ 273.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (101)﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني ملك مصر أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ أي تعبير الرؤيا وتأويل كتب الدين.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على النصب على النداء، أي يا خالق السماوات والأرض ومنشئهما على غير مثال ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ﴾ أي تتولى حفظي وصيانتي ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي الطف بي لطفاً أثبت به على الإيمان إلى أن يلحقني الموت ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني يلحقه بآبائه الصالحين.

وأما ما كان من أمر زليخاء، فإنه لما مات العزيز وبقيت أرملة قالت: أنا من يوسف على رجاء وأمري كل يوم إلى نقص وذلك بمعصيتي لإله يوسف، فكيف لا أقوم إلى هذا الصنم المشؤوم فأجعله جذاذاً وألحق بيوسف وأسلم على يده لعل إلهه يرحمني ويقضي حاجتي. فقامت وكسرت صنمها وجاءت إلى طريق يوسف فوقفت له في يوم ركوبه، فأقبل مع الأعلام والرايات مكتوب عليها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (108)﴾. فلما سار يوسف بحذاء زليخاء نادت: سبحان من يعز العبيد ويجعلهم ملوكاً بطاعته، ويذل الموالي ويجعلهم عبيداً بمعصيته. فسمع ذلك يوسف فقال: عليّ بصاحبة هذا الكلام. فأتي بها إليه فقال لها: من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قال: لا. قالت: قد أنكرتني. قال: أشد الإنكار. قالت: أنا الذي راودتك عن نفسك فاستعصمت بإله السماء فرفعك ووضعني، وأعزك وأذلني، وأغناك وأفقرني، فعلمت أني في باطل وغرور، فكسرت صنمي وجئتك طائعة مؤمنة أقول: لا إله إلا الله لترحمني. فوقعت رحمتها في قلبه فقال: سلي حاجتك. قالت: أتفعل؟ قال: نعم. قالت: لي ثلاث حوائج يا يوسف: قد ذهب بصري فادع الله أن يرده عليّ لأنظر إلى جمال وجهك. فدعا الله فرد عليها بصرها، فأقبلت تنظر إلى يوسف ثم قالت: وتدعو الله أن يرد عليّ حسني وجمالي وشعري فدعا الله فرد عليها ذلك. فلما نظر يوسف إليها نكص رأسه، فقالت: أما تشاء لي الثالثة؟ قال: وما هي يا رأس الفتنة؟ قالت: تتزوج

بي حلالاً. قال لها: قومي يا رأس الفتنة هذه حاجة ليس في نفسي قضاؤها. قالت: أما أنا فلا أقنط من رحمة الله. فنزل جبريل على يوسف وقال: إن الله يأمرك أن تتزوج بها. فجعلت تحمد الله وتشكره، فتزوجها، فلما دخل بها وجدها عذراء، فولدت له ولدين، وأقام يعقوب عند يوسف ثماني عشرة سنة، ومات قبل يوسف بسنتين.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿102﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿104﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ذلك الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وإخوته من أخبار ما غاب علمه عنك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي وما كنت عندهم إذ عزموا أمرهم على إلقاء يوسف في الجب وهم يمكرون به، وما كان مكرهم، أي إلقاؤهم إياه في البئر.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين بالقرآن والرسول ولو حرصت يا محمد على دعائهم إلى الإيمان وجهدت كل الجهد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي وما يسألهم يا محمد على دعائهم إلى الله من جعل في مالهم فيصدهم ذلك عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما للقرآن إلا موعظة للعالمين.

قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿105﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿106﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿107﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿105﴾﴾ أي وكم من آية دالة على وحدانية الله من ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الأشجار والجبال والنبات وغير ذلك من الحيوانات، يرونها ويشاهدونها ثم لا يستدلون بذلك على أن لها مدبراً حكيماً عليماً قادراً لا يشبهه شيء من المخلوقات. ويقال: أراد بالآيات التي في الأرض آثار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، كان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم ولا يتعظون بهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿106﴾﴾ أي ما يصد أكثرهم بلسانهم بالله إلا وهم مشركون به غيره، لأنهم يؤمنون من وجه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] ويشركون من وجه وهو عبادتهم الأصنام. وقال الحسن: المراد بهذه الآية أهل الكتاب معهم إيمان من وجه وشرك من وجه، فإن مع اليهود إيماناً بموسى وكفراً بمحمد صلى الله عليه وسلم[2].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي أفأمن الكفار أن يغشاهم العذاب من الله أو تأتيهم القيامة بغتة وهم لا يشعرون بنزول العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي هذه الدعوة ديني. وإنما قال «هذه» لأن السبيل يذكر ويؤنث. أدعو إلى الله على معرفة مني بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ معناه: ندعو إلى الله، وقل ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لست معهم على دينهم.

قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿109﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ

(1) سورة الزخرف (43)، الآية: 87.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 132.

مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿110﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿111﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً منسوبين إلى القرى مثلك يوحى إليهم كما يوحى إليك. قال الحسن: لم يرسل الله امرأة ولا رسولاً من أهل البادية، وذلك لأن أهل الأمصار يكونون أثبت عقولاً من أهل البادية وأشد أحلاماً منهم[1].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أفلم يسر أهل مكة في الأرض فيروا آثار ديار الذين من قبلهم من الكفار، فيخافوا أن ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بأولئك.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الكفر والفواحش ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني بقوله: (دار الآخرة) الجنة خير للذين اتقوا الكفر والفواحش ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: أفليس لهم ذهن الإنسانية أن الآخرة الباقية خير من الدنيا الفانية. وأضاف الدار إلى الآخرة على سبيل إضافة الشيء إلى نفسه كما يقال: يوم الجمعة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي حتى إذا استيأس الرسل عن إجابة الأمم، وأيقنوا أن القوم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجعون عنه، جاءهم نصرنا بإهلاك قومهم. ومن قرأ: كذبوا ـ بالتخفيف[2]، فمعناه: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أوعدوهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا يرد عذابنا عن الكافرين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لقد كان في

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 132.

(2) نسب مكي في: الكشف: 2/ 15 هذه القراءة إلى الكوفيين.

قصص من تقدم من الأنبياء عبرة لذوي العقول من الناس، وقيل: إن قصة يوسف وإخوته عبرة لمن أراد أن يعتبر، فيصبر على البلاء والمحن كما صبر يعقوب ويوسف حتى ختم الله لهما بالملك والعلو والفرج من الأحزان، ولا يحسد أحداً كما حسد إخوة يوسف فلم يغن عنهم كيدهم شيئاً.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يختلق، ولكن كان تصديقاً للكتب التي بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما. ومن قرأ: تصديق ـ بالرفع، فعلى إضمار «هو»[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي وتبيان كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم، ودلالة ونجاة من العذاب لقوم يصدقون بمحمد والقرآن.

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 56.

سُورَةُ الرَّعْدِ

سورة الرعد مكية عند ابن عباس إلا آيتين[1]: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[3] إلى آخرها. وقال قتادة: هي كلها مدنية، وعدد حروفها: ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف، وكلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة، وآياتها ثلاث وأربعون آية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ سورة الرعد أعطب من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل**»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
(1) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ
ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى
ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 8.
(2) الآية: 31.
(3) الآية: 43.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 133.
والزمخشري في الكشاف: 2: 365.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ قال ابن عباس: معنى ألمر أنا الله أعلم وأرى[1]. قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات القرآن. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو القرآن أيضاً. وقال قتادة: المراد بقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآيات التي نزلت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وسائر الكتب. والمراد بالذي أنزل إليك: القرآن[2].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ هو الذي رفع السموات وأقامها واقفة على غير عمد ترونها أنتم كذلك بلا عمد هكذا. قال أكثر المفسرين، وعن ابن عباس في رواية: بعمد لا ترونها. كأنه قال: بغير عمد مرئية[3]، والأول أقرب إلى الصحة لأنه لو كان للسماء عماد لكنا نرى ذلك العماد، لأن مثل السموات في ثقلها وارتفاعها وعظمها لا ينقلها عماد إلا ويكون ذلك العماد جسيماً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تقدم تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ تقديره: الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم سخر الشمس والقمر وهو مستول على العرش، لأن استيلاء الله على الأشياء: قدرته عليها، وقدرة الله لا تكون محدثة. وتسخير الشمس إجراؤها لمنافع بني آدم. ومعنى التسخير: أن يكون الشيء مقهوراً لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي إلى وقت معلوم وهو وقت إخفاء الدنيا، فإذا انقضت الدنيا كورت الشمس وانكدرت النجوم.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي يقضي ويبعث الملائكة بالوحي

(1) تفسير الطبري: 16/ 320.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه: 16/ 321.

والتنزيل والرزق والأقضية. وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يأتي بآية في أثر آية ليكون أمكن للاعتبار والفكر.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتستيقنوا بالبعث وبما وعدكم الله به من الثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بسطها طولاً وعرضاً ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي خلق فيها جبالاً ثوابت أوتاداً لها، ولو أراد أن يمسكها من غير الرواسي لفعل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وأجرى فيها أنهاراً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي وخلق من جميع الثمرات من كل شيء لونين اثنين جعل فيها الحلو والحامض والأسود والأبيض.

قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يأتي بالليل ليذهب بضياء النهار فيسكن الناس بالليل، ويأتي بضياء النهار ليمحو ظلام الليل فيتصرف الناس فيه في معايشهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿3﴾﴾ في صنع الله فيستدلون بذلك على توحيده.

قوله تعالى:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿4﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ منها الجبل الصلب، ومنها الأرض الحجرية التي لا يمكن النبات عليها إلا بالمشقة ومنها الأرض السبخة، ومنها الأرض الطيبة. وهذه الأراضي في ذلك متجاورة ملتزقة ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي في بساتين من كروم وزروع. يجوز في القراءة: وجنات، على معنى: وجعل فيها جنات. ومن قرأ: وزرع ـ بالضم، فهو عطف على قطع، لأن الزرع لا

يكون في الجنات. وقراءة العامة: وزرع ونخيل ـ بالكسر على المجاورة[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي مجتمع أصولها في أصل واحد ونخيل متفرق أصولها. والصنوان: جمع الصنو. ومعنى الصنوان: يكون الأصل واحداً، ونخيل متفرقة تخرج منه النخلتان والثلاث والأربع كما ورد في الحديث: «**عم الرجل صنو أبيه**»[2].

قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ إما المطر وإما النهر، ثم يكون بعض أكلها أفضل من بعض في الطعم حتى يكون بعضها حلواً وبعضها حامضاً وبعضها مراً والماء واحد والتراب واحد، وألوان الثمار وطعمها مختلفة وذلك من أدل الدليل على وحدانية الله عز وجل، لأن المحدث لها هو الله، والله تعالى قادر حكيم قد أحدثها على علم منه بها. وقال مجاهد: هذا مثل بني آدم أصلهم تراب واحد ثم منهم صالح وخبيث وكامل الخلقة وناقص الخلقة، وحسن الخلق وسيِّئ[3] الخلق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي لعلامات دالة على توحيد الله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك من الله.

قوله تعالى:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿5﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿6﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿7﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معناه: وإن تعجب يا محمد من تكذيب أهل مكة وإشراكهم بالله مع ما تقدم من الدلائل على توحيد الله، فقولهم أعجب عند العقلاء العارفين حيث قالوا:

---

(1) مكي الكشف: 2/ 19.
(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 56 ـ 57، كتاب الزكاة، من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ومن هذه الطريق نفسها، أحمد في المسند: 2/ 322 ـ 323.
(3) تفسير الطبري: 16/ 339.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أنبعث وترد فينا الروح بعد الموت والبلاء؟ إنما سمي قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أعجب، لأن البعث أسهل في القدرة مما بين الله لهم إذ البعث إعادة إلى ما كان، والإعادة أسهل في طباع الآدميين من الإنشاء.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ أي تغل أيمانهم إلى أعناقهم بالسلاسل في النار، ويكون يسارهم وراء ظهورهم وهم مصفدون من قرونهم إلى أقدامهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب الذي توعدتهم به على وجه التكذيب والاستهزاء قبل الثواب الذي تعدهم به على الإيمان ـ يعني مشركي مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم العذاب استهزاء منهم بذلك فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] الآية..

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ أي مضت من قبلهم العقوبات من الله في الأمم الماضية. والمثلة: العقوبة في اللغة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ أي لذو تجاوز على الناس على ظلمهم لأنفسهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن استحقه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ أي ويقول الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن: هلا أنزل عليه آية من ربه لنبوته، يعنون الآيات التي كانوا يقترحونها عليه، نحو ما ذكره الله تعالى من قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾[2] إلى آخر الآيات.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أي أنت يا محمد معلم بموضع المخافة وليس إنزال الآيات إليك، وإنما هو إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ من جعل هذه الواو للجمع فوصلها بما قبلها كان تقدير الكلام: إنما أنت منذر وهادٍ لكل قوم، ومن قطع هذه الواو كان

---

(1) سورة الأنفال (8)، الآية: 32.
(2) سورة الإسراء (17)، الآية: 90.

المعنى: لكل قوم هاد، أي نبي مثلك يهديهم. وقال سعيد بن جبير والضحاك: الهادي هو الله[1]، والمعنى: أنت منذر تنذر والله هادي كل قوم يهدي من يشاء.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يعني من علقة أو مضغة أو ذكر أو أنثى أو كامل الخلق أو ناقص الخلق أو واحد أو اثنين أو أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما ينقص من الأشهر التسعة في الحمل وما يزداد عليها، فإن الولد قد يولد في ستة أشهر فيعيش، ويولد لسنتين فيعيش. وقال الحسن: وما ينقص السقط وما يزداد التمام. والغيض: هو النقصان[2].

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي بحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، وتدخل فيه الولادة لأنه قدر آجال حياته وموته وصحته ومرضه ونقصان عقله وكماله، وقدر له ما يجري عليه من رزق وما سيكون منه من طاعة ومعصية وولد وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ أي عالم ما غاب عن العباد وما علمه العباد. وقيل: الغيب ما يكون، والشهادة ما كان. الكبير: السيد المالك المقتدر على كل شيء. المتعال: عما يقول المشركون.

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 354 ـ 355، إعراب النحاس: 2/ 352.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 135.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي سواء من أخفى القول وكتمه ومن جهر به وأظهره، فالسر والجهر عند الله سواء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ومن هو مستتر متوار بالليل وسارب بالنهار، أي ظاهر في الطرقات علم الله فيهم سواء. قال الزجاج: معنى الآية: الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات، علم الله فيهم جميعاً سواء[1]. ومعنى السارب: الظاهر بالنهار في سربه، أي في طريقه وتصرفه في حوائجه. وعن قطرب في مستخف بالليل: أي ظاهر وسارب بالنهار، أي مستتر[2]. يقال: انسرب الوحش إذا دخل في كناسه[3]. والقول الأول أبين وأبلغ في وصف علم الغيب.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي للإنسان متناوبات. والكناية في قوله «له» رد على من أسر القول ومن جهر به وهم الآدميون. وقال بعضهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي لله تعالى ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل.

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار. ومن خلفه يعني من وراء ظهره ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء خلوا عنه. واختلفوا في المعقبات، قال بعضهم: الكرام الكاتبون وهم أربعة: ملكان بالليل وملكان بالنهار.

قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله حتى ينتهوا به إلى المقادير فيخلوا بينه وبين المقادير. وقال كعب الأحبار: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن[4].

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 141 ـ 142.

(2) المصدر نفسه.

(3) كناسه: أي جحره ومخبؤه.

(4) تفسير الطبري: 16/ 378.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يسلب قوماً نعمة حتى يعملون بمعاصيه، يعني بهذا أهل مكة بعث فيهم رسولاً منهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف فلم يعرفوا هذه النعمة وغيروها وجعلوها لأهل المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي إذا أراد الله إنزال عذاب على قوم فلا دافع له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولاهم وينصرهم، ويقال: من ملجأ يلجؤون إليه. والموئل: هو الملجأ.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (13) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (15)﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً للمسافر أن يؤذيه ويبل ثيابه وطريقه فلا يمكنه المسير، وطمعاً للمقيم أن يسقي حرثه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (12)﴾ أي يخلق السحاب الثقال بالمطر فيجريه في الجو.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ روي أن الرعد اسم ملك يزجر السحاب ويؤلف بعضه إلى بعض، وتسبيحه زجره للسحاب. قال عكرمة: هو كالحادي للإبل. وعن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم نسألك عن أشياء فإن أصبت فيها اتبعناك وآمنّا بك. قال: «**سلوا**». قالوا: أخبرنا عن الرعد؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق يسوق بها السحاب حيث يشاء الله**». قالوا: صدقت، فما الذي نسمع؟ قال: «**زجر السحاب إذا زجره الملك**». قالوا: صدقت[1].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 137.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ أي لا يسلب قوماً نعمة حتى يعملون بمعاصيه، يعني بهذا أهل مكة بعث فيهم رسولاً منهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف فلم يعرفوا هذه النعمة وغيروها وجعلوها لأهل المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ أي إذا أراد الله إنزال عذاب على قوم فلا دافع له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولاهم وينصرهم، ويقال: من ملجأ يلجؤون إليه. والموئل: هو الملجأ.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿12﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿13﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿14﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿15﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي خوفاً للمسافر أن يؤذيه ويبل ثيابه وطريقه فلا يمكنه المسير، وطمعاً للمقيم أن يسقي حرثه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿12﴾﴾ أي يخلق السحاب الثقال بالمطر فيجريه في الجو.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ روي أن الرعد اسم ملك يزجر السحاب ويؤلف بعضه إلى بعض، وتسبيحه زجره للسحاب. قال عكرمة: هو كالحادي للإبل. وعن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم نسألك عن أشياء فإن أصبت فيها اتبعناك وآمنّا بك. قال: «**سلوا**». قالوا: أخبرنا عن الرعد؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق يسوق بها السحاب حيث يشاء الله**». قالوا: صدقت، فما الذي نسمع؟ قال: «**زجر السحاب إذا زجره الملك**». قالوا: صدقت[1].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 137.

يده إلى البئر فلا يبلغ الماء ولا الماء يرتفع إلى يده[1]. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصواب وذهاب عن الحق، لأن الأصنام لا تستمع ولا تقدر على الإجابة.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ أي ولله يصلي ويعبد من في السماوات والأرض، فالملائكة ومن دخل في الإسلام طوعاً يسجد له طائعاً، والمكره هو الذي قوتل وأسر فأجبر على الإسلام. ويقال: أراد بقوله طوعاً أهل الإخلاص وكرهاً أهل النفاق. قوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ يعني إذا سجد الإنسان سجد معه ظله. قال الحسن: أما ظل الكافر فيسجد له، وأما هو فلا يسجد له، فبئس والله ما صنع![2].

قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة من رب السموات والأرض؟ فإن أجابوك وقالوا: هو الله. وإلا فقل: الله تعالى ربهما، وقل لهم: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي أرباباً لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكون لكم النفع والضر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي قل لهم يا محمد: هل يستوي أعمى القلب والذي يعدل عن عبادة الخالق؟ هل يستوي مع البصير بقلبه العالم بأنه تعالى إلهه ووليه والقادر على نفعه ودفع الضر عنه؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ فيه تشبيه الكفر بالظلمات وتشبيه الإيمان بالنور.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 345.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 31.

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ معناه: أجعل الكفار لله شركاء خلقت شركاؤهم شيئاً كما خلق الله فتشابه الخلق عليهم، فلم يعرفوا خلق الشركاء من خلق الله فأشركوها معه في العبادة. قل الله خالق كل شيء بلا شريك، فإذا لم يكن الخلق إلا من واحد لم يكن الخالق إلا واحداً فهو الذي يستحق العبادة بلا شريك، وهو الواحد الغالب لكل شيء لا يقهره أحد. ثم ضرب الله مثل الحق والباطل فقال تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ من ذلك المطر بقدر الأودية، فما كان منها كبيراً سال منها بقدره، وما كان صغيراً سال بقدره.

قوله تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي عالياً مرتفعاً على الماء. والسيل: ما يسيل من الموضع المرتفع.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي ومما تطرحون في النار من الذهب والفضة لطلب حلية تلبسونها زبداً، أي خبثاً مثل زبد الماء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أراد به الحديد والرصاص وما شاكله مما يوقد عليه في النار لاتخاذ المتاع له زبداً في خبث مثل ذلك الماء.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي هكذا يضرب الله مثل الحق والباطل. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي أما زبد هذه الأشياء فيذهب ناحية لا ينتفع به، فإن زبد الماء يتعلق بأصول الأشجار وجنبات الوادي. والجفاء: ما رمى به الوادي وجفاه في جنباته. يقال: أجفت القدر زبدها إذا قذفت به. وكما أن زبد الماء يذهب بحيث لا ينتفع به، كذلك خبث الذهب والفضة والحديد.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ للناس في أمر دينهم كما ضرب لكم المثل. قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما أنزل الله من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الصغير على مقداره والكبير على مقداره، كذلك أنزل الله القرآن فاحتملت القلوب على قدرها وذو اليقين على قدر يقينه وذو الشك على قدر شكه. قال: ثم شبه الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء وذلك من خبث التربة لا من عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من وهم وشك فهو من ذات النفس لا من الحق. قال: ثم بين أن الزبد يذهب جفاء، أي هباء باطلاً، ويبقى صفو الماء، كذلك يبطل الشك وسوء الخطرات ويبقى الحق كما هو، وكذلك مما يوقد عليه في النار لمنافع الناس يبطل زبده وخبثه ويبقى خالصه وصفوه، كذلك الباطل يذهب ويبقى الحق[1].

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه بيان أن الذي يبقى مما تقدم ذكره فهو مثل لمن يستجيب لربه، والذي يذهب جفاء هو مثل لمن لا يستجيب. والمراد بالحسنى في الآية: الجنة ونعيمها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي الذين لم يستجيبوا لربهم بالإيمان، لو أن لهم ما في الأرض جميعاً من الذهب والفضة وسائر الأموال وضعفه معه لفادوا به أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة لو قبل منهم ذلك ولكن لا يقبل.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي شدته والمناقشة فيه. قال إبراهيم النخعي: هو أن يؤاخذوا بذنوبهم كلها من دون أن يغفر لهم شيء منها[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم في الآخرة جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي المأوى ينقلبون في النار ويقعدون ويضطجعون عليها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ معناه: أفمن

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 412 ـ 413.

(2) تفسير الطبري: 16/ 417، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 348.

يعلم أنما أنزل إليك من ربك من القرآن أنه الحق فآمن به كمن هو كافر لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿19﴾﴾ أي ذوو العقول ثم وصفهم فقال:

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿20﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿21﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿20﴾﴾ يريد بالعهد الذي عاهدهم عليه في صلب آدم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به مواصلة المؤمنين فيما بينهم بالموالاة وصلة الأرحام باللين والشفقة، وقيل: أراد بذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وجميع الرسل ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي عقاب ربهم ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي ويخافون أن يؤخذوا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ معناه: والذين صبروا على أداء الفرائض واجتناب المحارم، ومقاسات شدائد الدنيا لطلب ثواب الله ورضاه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي أخرجوا من أموالهم جميع الصدقات المفروضة خفية وجهرة. وقيل: أراد بالسر: التطوع، وبالعلانية: الفرض. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون ظلم الظالمين وجور الجائرين بالحسنة. وإنما يكون درؤهم بالحسنة السيئة على وجهين: أحدهما الحلم والوعظ بالكلام الحسن، والثاني: أن يقاتلوهم ويقبضوا على أيديهم.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي أهل هذه الصفة لهم الدار التي أعقبتها لهم أعمالهم وهي الجنة. ثم بين صفة الجنة فقال:

قوله تعالى:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿23﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿24﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ قال ابن عباس: وهي وسط الجنة وهي معدن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي ويدخلها من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ يعني من أبواب البساتين، يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على شدائد الدنيا وعلى المشقة في طاعة الله ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ التي أعقبتها لهم أعمالهم. قال ابن عباس: لكل رجل واحد من أهل جنات عدن جنة من درة محفوفة، لها ألف باب مرصعة من ذهب، يدخل عليه من كل باب ملك يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿24﴾﴾.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿25﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿26﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي الذين يتركون فرائض الله من بعد تأكيد العهد عليهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم والدعاء إلى غير عبادة الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي ما يبعدهم من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهو النار في الآخرة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أعجل الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي ويمين الغموس تدع الديار بلاقع**».

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الرزق في الدنيا على من يشاء ويضيق على من يشاء ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة

أشروا وبطروا. وما الحياة الدنيا ونعيمها في جنب نعيم الآخرة إلا شيء قليل كمتاع البيت يتمتع به ثم يفنى ويذهب. قال صلى الله عليه وسلم: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع**»[(1)].

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (28) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ (29)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يقولون على جهة التعنت: هلا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون الآيات التي يقترحونها عليه. قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ من ثوابه وكرامته، ويهدي لدينه من أقبل إلى الله ورجع عن الكفر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتسكن قلوبهم إلى ما وعد الله لهم من الثواب، ألا بوعد الله تطمئن القلوب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي لهم العيش الطيب والكرامة والغبطة وحسن المرجع في الآخرة. وقال مجاهد: طوبى: اسم الجنة بلغة الحبشة[(2)]. وعن أبي هريرة: اسم شجرة في الجنة ساقها من الذهب وورقها الحلى وثمرها من كل لون، وأغصانها متدلية في الجنة ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها، وتحت الشجرة كثيبات المسك والعنبر والزعفران لو ركب رجل قلوصاً ثم دار بالشجرة لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى تموت القلوص هرماً[(3)].

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1376، رقم: 4108، باب مثل الدنيا، والبغوي في سننه: 14/ 226، رقم: 4023، باب مثل الدنيا والآخرة.

(2) تفسير الطبري: 16/ 436، تفسير الثعلبي، ورقة: 140.

(3) تفسير البغوي: 3/ 354.

قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي هكذا أرسلناك إلى أمة قد مضت من قبلها أمم أرسلنا فيهم الرسل ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن وهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني أهل مكة فإنهم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة، وكانوا يسمونه: رحمن اليمامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل لهم الرحمن هو ربي لا إله إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿30﴾﴾، أي وإليه أتوب من ذنوبي.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿31﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وذلك أن عبد الله بن أبي[1] أمية المخزومي وجماعة من كفار مكة قالوا: يا محمد سير لنا جبال مكة فأذهبها حتى نتفسح فيها فإنها أرض ضيقة، ثم اجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، وقرب أسفارنا فيما بيننا وبين الشام فإن السفر بعيد، وافعل كما فعل سليمان بالريح بزعمك. فأنزل الله هذه الآية[2]، ومعناها: ولو أن قرآناً أذهبت به الجبال عن وجه الأرض أو قطعت به الأرض مسيرة شهر في يوم أو أحيي به الموتى فتكلموا لكان هذا القرآن لما فيه من الدلالات الكثيرة على صحة هذا الدين ولو أمكن أن يجعل هذه الأمور لشيء

---

(1) في النسخة (ف): ابن أمية.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 224، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 357، ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 42.

من كتب الله لأمكن لهذا القرآن. وأما حذف جواب «لو» في هذه الآية فعلى وجه الاختصار، لأن في الكلام دليلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي بل الله هو المالك لهذه الأشياء القادر عليها، ولكن لا يختار إلا بما فيه مصلحة العباد.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ معناه: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان بالإلجاء إليه، إن الله قادر على ذلك، ولكن لو فعل لبطل الامتحان والتكليف. والإياس بمعنى العلم في لغة: النخع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي لا يزال الذين كفروا في عقوبات من قبل الله تزجرهم عن الكفر وتحثّهم على التمسك بدين الله كما نزل بقريش القحط وبقوم فرعون من الشدائد.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا﴾ راجع إلى القارعة. والقارعة هي: النازلة الشديدة التي تنزل بأمرٍ عظيم. ويقال: أراد بالقارعة سرايا النبي صلى الله عليه وسلم. وبقوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا﴾ معناه: أو تنزل أنت يا محمد مع أصحابك قريباً من مكة تقاتلهم على الدين حتى يأتي وعد الإله، أي وقت إهلاك الكفار، وقيل: فتح مكة، وقيل: ما وعد الله من عذابهم في الآخرة(1). إن الله لا يخلف ما وعد من عقاب الكفار.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (33) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (34)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي ولقد استهزىء بالأنبياء قبلك

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 458 ـ 459.

كما استهزأ بك قومك فأمهلت للذين كفروا بعد استهزائهم بالرسل، ثم أخذتهم بذنوبهم، فانظر كيف كان عاقبة ما حل من عقاب الله بهم، فلا يكن في صدرك حرج من استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي أفمن هو قائم على كل نفس بالتدبير ويعلم ما كسبت ويجازيها عليه كمن لا يعلم ذلك، ولا يقدر على المجازاة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وضعوا لله شركاء في العبادة من الأصنام. قل سموا هؤلاء الشركاء بأسمائها التي تستحقها، وسموا منتفعها وتدبيرها إن كان لها شركة مع الله كما يوصف الله تعالى بالخالق والرازق والمحيي والمميت.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أي تخبرون الله بما لا يصح أن يكون معلوماً، وهو كون الأصنام مستحقة للعبادة وهذا على وجه الإنكار.

قوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إنكار أيضاً معناه: أسميتم الأصنام آلهة بظاهر كتاب من كتب الله. وقيل: أسميتموهم آلهة بحجة ظاهرة، بل سميتموها بقول باطل ليس لكم دليل عليه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي زين لهم قولهم وفعلهم في عبادة غير الله وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

قوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من قرأ بفتح الصاد فالمعنى صرفوا الناس عن دين الله، ومن قرأ برفعها فالمعنى صدوهم رؤساؤهم عن دين الله[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الأسقام والقتل والأسر.

---

(1) ذكر مكي في الكشف: 2/ 22 ـ 23 القراءتين وتوجيههما.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أغلظ من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم من عذاب الله.

قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (35) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (36)﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون الكفر والمعاصي أنها تجري من تحتها الأنهار، ثمرها دائم لا كجنان الدنيا يظهر ورقها في حال دون حال، وظلها أيضاً دائم ليس فيه شمس ولا أذى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي دار المتقين الجنة. في العاقبة، ودار الكافرين في العاقبة النار. وفي الحديث: «**إن الرجل من أهل الجنة تقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سُقي شراباً طهورا، فيصير رشحاً يخرج من جسده أطيب من ريح المسك، ثم تعود شهوته إلى ما كانت**».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وذلك أن عبد الله بن سلام ومن أسلم معه من أهل الكتاب قالوا: يا رسول الله ما شأن ذكر الرحمن في القرآن قليل وهو في التوراة كثير؟ فنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[1]، ونزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من ذكر الرحمن وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي ومن اليهود والنصارى من ينكر بعض القرآن، وإنهم كانوا يقرون بصحة سورة يوسف وغيرها مما لا يكون فيه نسخ شريعتهم، وكانوا ينكرون من القرآن ما لا يوافق مذهبهم ودينهم.

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 110.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ أي قل يا محمد إنما أمرت أن أعبد الله وحده ولا أشرك به، إليه أدعو الخلائق، وإليه رجوعي في الآخرة[1].

قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿37﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿38﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿39﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ أي كما أنزلنا على الأنبياء المتقدمين بلسانهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً. والحكم: هو الفصل بين الشيئين على ما توجبه الحكمة، وقد يكون الحكم بمعنى الحكمة كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿12﴾﴾[2] أي الحكم والنبوة.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي دين اليهود وقبلتهم ﴿بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي دين الله دين إبراهيم وقبلته الكعبة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي من ناصر ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ أي ولا دافع يدفع العقاب عنك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ قال ابن عباس: وذلك أن اليهود كانوا يعيرون النبي صلى الله عليه وسلم بتزويج النساء حتى قالوا: لو كان محمد نبياً لشغلته النبوة عن تزويج النساء. فأنزل الله هذه الآية[3]. والمعنى: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم نساء أكثر من نسائك، والأولاد أكثر من أولادك. كان لداود عليه السلام مائة امرأة، ولسليمان ثلاثمائة امرأة مهرية وسبعمائة سرية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي هل يملك أحد

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 360.
(2) سورة مريم (19)، الآية: 12.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 224.

من الرسل أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإنه سبحانه هو المالك للآيات لا يقدر أن يأتي أحد بشيء منها إلا بإذنه.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة من آجال العباد في الحياة والفناء كتاب قد كتب الله ذلك للملائكة ليدلهم به على علمه بالأشياء.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة لما كتبوه من أعمال العباد مما لا جزاء له، ويترك ما له الثواب والعقاب. وقال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من القرآن فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه. وعن الحسن: يمحو أجل من حان أجله، ويدع أجل من لم يحن أجله مثبتاً. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الطاعات بإحباطها بالمعاصي ومن المعاصي بتكفيرها بالطاعات. وقد اختلفوا: هل يدخل في المحو والإثبات السعادة والشقاوة والموت والحياة أم لا؟ قال ابن عباس: لا يدخل. وقال عمر وابن مسعود: تدخل فيه الشقاوة والسعادة. وكان من دعاء عمر: اللهم إن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، وإن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء وعندك أم الكتاب[1].

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ يعني أصل الكتاب، قيل: إنه اللوح المحفوظ كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق العباد، لا يزاد فيه شيء ولا ينقص منه.

قوله تعالى:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿40﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿41﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿42﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ الْكِتَٰبِ ﴿43﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي وإما نرينك يا

(1) تفسير الطبري: 16/ 482.

محمد بعض الذي نعدهم من نصر المؤمنين على الكفار أو بقبضك إلينا قبل أن يكون ما نعدهم من العذاب في حياتك، فإنما عليك بلاغ ما أنزل إليك وعلينا حساب ما يعملون والجزاء عليه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ قال ابن عباس معناه: أولم ير أهل مكة أنا ننقص الأرض من أطرافها بفتح ديارهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين[1]. وقال الحسن: أراد بنقص أطراف الأرض: ذهاب فقهائها وخيار أهلها. قال: ومثل العلماء مثل النجوم إذا بدت اقتدوا بها وإذا أظلمت سكنوا، وموت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ أي والله يحكم بفتح البلدان لا يتعقب أحد حكمه بالرد، وهو سريع الحساب إذا حاسب فحسابه سريع.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد مكر الذين من قبل هؤلاء الكفار بأنبيائهم صلوات الله عليهم وبمن آمن بهم. وعند الله جزاء مكرهم جميعاً، فإن ما يفعله الله من إيصال المكروه يثبت ومكرهم يضمحل.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ﴾ من خير وشر فيجازيها عليه.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ تهديد لهم أنهم إذا جهلوا اليوم عاقبة أمرهم فسيعلمون إذا صاروا إلى الآخرة لمن عاقبة الدار المحمودة لهم أم للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ أي ويقول الكفار من اليهود وغيرهم: يا محمد لست مرسلاً من الله، ومن يشهد لك على رسالتك، قل لهم يا محمد: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم على أني مرسل إليكم، وشهادة الله على أني نبيه من المعجزات لا شاهد أعدل من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كان ابن عباس يقرأ: ومن عنده ـ بالنصب، ويقول: هو عبد الله بن سلام وأصحابه كان عندهم في التوراة نعت

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 143.

(2) تفسير البغوي: 3/ 364.

النبي صلى الله عليه وسلم وصفته، وكان يقول: هذه الآية نزلت بالمدينة، لأن هؤلاء أسلموا بالمدينة. وكان ابن مسعود يقرأ: ومن عنده ـ بالخفض على معنى أن القرآن من عند الله، وكان يقول: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة. وقرىء ومن عنده علم الكتاب ـ بخفض «من» وضم العين وكسر اللام، من علم. هكذا روي[1] عن سعيد بن جبير.

(1) تفسير ابن عطية: 10: 54 ـ 55.
ـ النحاس في أعراب القرآن: 2: 361.

سُورَةُ إبراهيم

سورة إبراهيم مكية، وهي ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً، وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة، واثنتان[1] وخمسون آية عند البصريين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ قد تقدم تفسير ﴿الٓرۚ﴾. قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون خبر ﴿الٓرۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأمر ربهم الذي أمرك أن تدعوهم إلى الإيمان وتزجرهم عن الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي إلى دين العزيز الحميد. والعزيز: الذي لا يمكن أن يغلب ويقهر. والحميد: المستحق للحمد.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ من قرأ برفع

---

(1) في النسخة (س): وإحدى وخمسون آية.
ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 143.

الهاء فعلى الابتداء، ومن قرأ بالخفض جعله بدلاً من العزيز[1].

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ الويل: كلمة تستعمل في الشدة، ويقال: هو واد في جهنم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي يختارونها عليها ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يعرضون عن طاعة الله من الصد وهو الإعراض. ويجوز أن يكون معناه: ويمنعون الناس.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويطلبون بدين الله العوج. والعوج ـ بكسر العين، في الدين، وبفتحها في العصا.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي في ذهاب عن الحق بعيد.

قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي بلغتهم ليبين لهم ما أمروا به ونهوا عنه فيفهموا ويعلموا ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من كان أهلاً لذلك، ويهدي لدينه من يشاء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي بدلائلنا وحججنا التي دلت على صحة نبوته مثل العصا واليد وغيرهما ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي بنعم الله، وقيل: بوقائع الله في

---

(1) قال مكي في الكشف: 2/ 25: قرأ نافع وابن عامر على الاستئناف فرفعاه بالابتداء، وقرأ الباقون بالخفض على البدل.
ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 363.

الأيام السالفة من قوم نوح وعاد وثمود، وقيل: بنعم الله ونقمه. والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في ذلك التذكير لدلالات على قدرة الله لكل صبار شكور على طاعته وعن معصيته، شكور لأنعم الله. والشكر: هو إظهار النعمة على جهة الاعتراف بها.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآية قد سبق تفسيرها في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ هذا عطف على قوله: ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾ كأنه قال: اذكروا نعمة الله عليكم ـ إذ أنجاكم وإذ تأذن ربكم. وهذا إخبار عما قال موسى لقومه. ومعنى تأذن: أي أعلمكم في الكتاب ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)﴾ لمن كفر. قال ابن عباس معنى الآية لئن وحدتموني وأطعتموني لأزيدنكم نعمة[1]. قال قتادة: حق على الله أن يعطي من سأله ويزيد من شكره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي جحدتم حقي وحق نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بنعمته فإن الله

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 144.

لغني عن طاعتكم، لم يأمركم بطاعته لحاجته إليها، وهو الحميد لمن وحّده وأطاعه.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿9﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ قيل: إن الخطاب في هذه الآية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو خطاب موسى لقومه. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني قوم شعيب وغيرهم لا يعلم عددهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالدلالات الواضحات.

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال ابن عباس: عضوا على أناملهم غيظاً على الرسل فيما ادعوا من النبوة، وقال مجاهد: هذا كناية عن الجحد والتكذيب. وقيل: معناه: وضع الكفار أيديهم على أفواههم إشارة إلى الرسل: أن اسكتوا، وقيل: وضع الكفار أيديهم على أفواه أنبيائهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ والريب: الشك مع التهمة.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿10﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿11﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ

(1) المحرر الوجيز: 10/ 66.

وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿12﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في توحيد الله شك. وهذا إنكار من الرسل عليهم، أي لا شك في توحيد الله فاطر السموات والأرض، أي خالقهما. فكيف يشكون فيه ودلائل وحدانيته ظاهرة، يدعوكم إلى دينه ليغفر لكم من ذنوبكم في الجاهلية ويؤخركم إلى منتهى آجالكم فلا يعذبكم بعذاب الاستئصال. وأما دخول «من» في قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فيجوز أن يكون للجنس كما في قولهم: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[1]، ويجوز أن يكون للتبعيض[2]، أي ليغفر لكم بعض ذنوبكم، فادعوا الله وارغبوا إليه في مغفرة الذنوب كلها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي قالت الأمم لرسلهم: هل أنتم إلا آدميون مثلنا لا فضل لكم علينا، تريدون أن تمنعونا عما كان يعبد آباؤنا من الأصنام فأتوا بحجة واضحة بينة؟ يعنون الآيات التي كان يقترحونها على أنبيائهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما قلتم: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ كما أنعم علينا بأن أرسلنا ولا نملك الإتيان بالآيات التي تقترحون علينا ونحن بشر مثلكم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر المعنى. فقالت الكفار لهم: فتوكلوا أنتم على الله حتى تروا ما يفعل بكم. قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ أي جنتنا، والهداية من الله هي الدلالة على الحق والرشد، ولنصبرن على ما آذاكم، وعلى الله فليتوكل المتوكلون. والتوكل: هو التمسك بطاعة الله مع الرضى بقضائه وتدبيره.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ

(1) سورة الحج (22)، الآية: 30.
(2) المحرر الوجيز: 10/ 68.

إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿13﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿14﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿15﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿16﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿17﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ أي قالت الكفار لرسلهم لا نساكنكم على مخالفتكم ديننا أو لتعودن في ملتنا. وقد ذكرنا ذلك في قصة شعيب في سورة الأعراف. فأوحى الله إلى الرسل: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿13﴾﴾ أي الكفار ولنسكننكم أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم. وهذه نهاية ما في الإنعام، فإن هذا جزاء من توكل على الله، ذلك جزاء من خاف مقام العباد عندي وخاف وعيدي بالعقاب لمن عصاني.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿15﴾﴾ أي سألت الرسل ربهم أن يحكم بينهم وبين الكفار، لأن الفتح ههنا بمعنى الحكم، يقال للحاكم: الفتاح. فلما فزعت الرسل إلى ربهم بإنجاز الوعد فتح لهم ما طلبوه، فخاب كل جبار عنيد. والجبار: هو الطالب للتجبر والعلو فوق كل علو. والعنيد: هو الدافع للحق معناه: على جهة الاستكبار، وقال: العنيد: المعرض عن طاعة الله. وقال مجاهد: هو المجانب للحق[1].

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ معناه: أمام هذا الجبار بعد الموت جهنم. والوراء يكون من خلف وقدام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي يسقى من ماء يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم. وقال ابن عباس: في جهنم أودية في تلك الأودية صديد أهل النار وقيحهم ودماؤهم فيسقون من ذلك الصديد قد نتن ريحه، يتجرعه شاربه والملك يضربه بالمقامع ويقول له: اشرب. فيقول: لا أطيقه، فيضربه حتى يشربه جرعة جرعة ولا يكاد يسيغه من نتنه وريحه.

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 543.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي لا يقدر على أن يبتلعه. والإساغة: هو دخول المشروب في حلقه مع قبول النفس له. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطع أمعاءه، فتخرج أمعاؤه من الجانب الآخر**[1] **كما قال تعالى**: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ⑮﴾»[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي ويأتيه غم العذاب وألمه من كل مكان كان فيه يموت بدون ذلك في الدنيا، قال ابن عباس: يأتيه الموت من تحت كل شعرة في جسده، وقيل: وتأتيه النيران من كل جانب، وما هو بميت فيستريح من العذاب ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي ومن بعد ذلك عذاب شديد أشد مما تقدم لا ينقطع ولا يفتر.

قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ⑱﴾.

قال الإمام أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي مثل الذين كفروا بربهم في انتفاعهم بأعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. يقول: كما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد إذا ذرته الريح الشديدة فكذلك هؤلاء الكفار لا يقدرون على الانتفاع بشيء من الأعمال التي عملوها على جهة البر، مثل: صلة الرحم ونحوها. وأما الكفر والمعاصي فيكون كرماد اشتدت به الريح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي ذلك الذي ذكر هو الذهاب عن النفع البعيد عن الحق والهدى.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 145.

(2) سورة محمد (46)، الآية: 15.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑲ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑳ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ㉑﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي ألم تعلم يا محمد أن الله خلق السماوات والأرض على ما توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة والحق: هو وضع الشيء موضعه.

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الكفار، أي يهلككم ويخلق قوماً آخرين أطوع لله منكم، وليس ذلك على الله بشديد ولا متعذر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إذا كان يوم القيامة برز الناس من قبورهم للمسألة والمحاسبة، فيسألون عن أعمالهم ويجازون عليها. وقال أتباع الظلمة والعصاة للذين استكبروا وهم الرؤساء والقادة: إنا كنا لكم تبعاً في المعصية والظلم في الدنيا فهل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله؟ فيقول لهم رؤساؤهم: لو هدانا الله إلى ما نتخلص به من هذا العذاب لهديناكم إليه أي لا مطمع لنا في ذلك، فكيف تطمعون في مثله من جهتنا؟ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي لا حيلة لنا، فسواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من مخلص من هذا العذاب.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ㉒﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ هذا إخبار عن خطبة الشيطان، وذلك أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: يا أهل النار إن الله وعدكم وعداً وكان وعده حقاً، ووعدتكم أنا فأخلفتكم، وما كان لي عليكم قدرة الإكراه على المعصية ولا حجة على ما قلت ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى طاعتي بالوسوسة ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بسوء اختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ على ما حل بكم من العقاب ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فإني لم أجبركم على المعصية ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ بمغيثي. والإصراخ في اللغة: هو إغاثة المستغيث إلى ما يستغيث به. ويحكى أن أعرابياً أتى على رجل يقرأ هذه الآية فقال: قاتله الله ما أفصحه[1].

قوله تعالى: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ هو إخبار عن كلام إبليس ومعناه: إني كفرت من قبل بالذي أشركتموني به في الطاعة من قبل أن أشركتموني به، أي إني كفرت بربي من قبل ما عدلتموني به. ويقال: معناه: إني كفرت الآن بما كان من إشراككم إياي في الطاعة إذ أطعتموني وجعلتموني كأني رب فصيرتموني شريكاً لربكم، وأنا اليوم أكفر بشرككم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قال الله تعالى: إن الظالمين من إبليس وغيره لهم عذاب وجيع مخلص وجعه إلى قلوبهم.

قوله تعالى:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿23﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿24﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿25﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي في جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ويرسل الله الملائكة إليهم بالسلام.

---

(1) تفسير الطبري: 16/ 564.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ألم تعلم يا محمد كيف وصف الله شبهاً لكلمة طيبة وهي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله والإقرار بالنبوة، كشجرة طيبة الثمر وهي النخلة لا شيء أحلى من ثمرها وهو الرطب، كما لا كلام أحسن من كلمة الدين.

قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه شبه لثبات الإيمان وما فيه من الأدلة بقرار النخلة التي أصلها ثابت على نهاية الثبات في تمكن عروقها في الأرض، بل المعرفة في قلب المؤمن أثبت من عروق النخلة، لأن النخلة تقلع ومعرفة العارف لا يقدر أحد من الناس أن يخرجها من قلبه.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه تشبيه أعمال المخلصين التي هي فروع الإيمان في أنها ترفع وتعلق إلى جانب السماء، لأن الأعمال لا تصلح إلا بالإيمان، والأصل هو الإيمان، والفرع هو الأعمال الصالحة.

قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فيه تشبيه لكل ما يحصل من الثواب الدائم الذي لا منزلة أعلى منه.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بعلمه وقدرته.

قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي يبين الله الأشباه في صفة التوحيد والدين لكي تتعظوا وتؤمنوا.

قوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (27)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني كلمة الشرك كشجرة خبيثة، يعني شجرة الحنظل ليس فيها حلاوة ولا منفعة ولا رائحة طيبة، بل تضر من يتناولها، فكذلك كلمة الكفر تضر بصاحبها .

قوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي اقتلعت، معناه: كما أنه ليس لشجرة الحنظل أصل تثبت عليه وتقر ولكن تقتلع وتؤخذ، خبيثة من أصلها، فكذلك الكفر يبطله الله ويستأصل أهله.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي ما لتلك الشجرة من قرار، فإن الريح تقلعها وتذهب بها، كذلك ليس لكلمة الكفر حجة يحتج بها صاحبها.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهو لا إله إلا الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني في القبر، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن المؤمن إذا دخل قبره وأتاه منكر ونكير فقالا له: من ربّك وما دينك، ومن نبيك؟ فيثبته الله فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. فيقولان: صدقت، هكذا كنت في الدنيا. ثم يفتح له باب إلى النار فيقولان له: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فإذا آمنت بربك فهذا منزلك. فيفتح له باب إلى الجنة ويفسح له في قبره. وإن كان كافراً أو منافقاً فيقولان له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس تقول كذا وكذا. فيقولان له: لا دريت ولا اهتديت. ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا لك لو آمنت، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا. ويفتح له باب إلى النار، ثم يقمع بالمطارق قمعة، فيصيح صيحة يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين، فلا يسمع صوته شيء إلا لعنه، ثم يفتح له باب إلى النار يدخل عليه من ريحها وسمومها ويقال له: نم نومة اللديغ، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه**»(1).

قال الفقيه أبو بكر:

فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ويهلكهم ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التثبيت والإضلال لا مانع له مما يفعله.

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 181، رقم: 1077، باب في عذاب القبر، وأبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 89، رقم: 4727، باب المساءلة في القبر.

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿28﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿29﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿30﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ فيه تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم من صنع المشركين، فإنهم بدلوا شكر نعمة الله بالكفر ولم يقتصروا على هذا في أنفسهم حتى أضلوا قومهم وأحلوهم دار البوار، أي دار الهلاك وهي جهنم يدخلونها يوم القيامة، وبئس القرار قرار من يكون قراره النار.

قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ نصب بيصلونها[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أمثالاً ونظراء ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي كان عاقبتهم الضلال عن دين الله، قل تمتعوا قليلاً في الدنيا فإن مصيركم إلى النار.

قوله تعالى:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿31﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الآية أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنين بما يؤديهم إلى النعيم المقيم وقوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها لمواقيتها بشرائطها. واختلفوا في جزم ﴿يُقِيمُوا۟﴾ قيل: لأنه جواب الأمر، وقال بعضهم تقديره: قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا[2].

قوله تعالى: ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الأموال في وجه البر من الفرائض

---

(1) المحرر الوجيز: 10/ 86.
ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 369.
(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 79.

والنوافل: سراً في النوافل وعلانية في الفرائض. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة لا يقبل البدل للتخليص من النار ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ أي ولا مودة يكون فيها تخليص أحدهما للآخر.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (33) وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما تنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن لتجري في البحر بأمره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ تجري حيث تشاؤون.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي سخرها لكم إلى يوم القيامة. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بأن أتى بهما متعاقبين ليتصرف الناس في معايشهم بالنهار ويهدأوا بالليل.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من العافية والسلامة وغير ذلك. ومن قرأ: من كل ـ بالتنوين، فالمعنى أعطاكم من كل ما تقدم ذكره من النعم[1]. ثم قال: ما سألتموه، أي لم تسألوه بل ابتدأكم بذلك تفضلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي إنعامه. والنعمة ههنا: اسم أقيم مقام المصدر ولذلك لم يجمع ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تأتوا على جميعها بالعد. وقيل: لا تحفظوها ولا تطيقوا عدها.

---

(1) نسب الثعلبي في تفسيره، ورقة: 148 هذه القراءة إلى الحسن والضحاك وسلام، وكذا في المحرر الوجيز: 10/90 لابن عطية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ معناه: إن الإنسان مع هذه النعم لظلوم لنفسه كفّار لنعم ربه. والإنسان: اسم جنس لكن يقصد به في هذا الموضع الكافر خاصة.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ
﴿35﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿36﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴿37﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿38﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم بعدما بنى البيت: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي مكة آمناً يأمن فيها الناس والوحوش. فاستجاب الله دعاءه حتى اجتمع فيها الناس مع شدة العداوة بينهم، وتدنو الوحوش فيه من الناس فتأمن منهم. وإنما عرف البلد في هذه الآية ونكرها في البقرة[1]. لأن النكرة إذا أعيدت تعرفت.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي والطف بي وبنيّ لطفاً نتجنب به عبادة الأصنام. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الأصنام. وأضاف الإضلال إلى الأصنام وإن لم تكن تفعل شيئاً، لأنهم ضلوا بعبادتها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي فمن تبعني على ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾: ومن خالفني في ديني ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿36﴾﴾، أي غفور لذنوبهم رحيم بهم.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ أي قال إبراهيم: ربنا إني أسكنت بعض ذريتي ـ وهو إسماعيل مع أمه هاجر بواد جدب لا ينبت شيئاً، وأراد به وادي مكة وهو الأبطح.

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 126.

قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي عند المسجد الحرام. سماه المحرم لأنه لا يستطيع أحد الوصول إليه إلا بالإحرام، وقيل: أراد به حرية الاصطياد والقتل كما روي في الخبر: أن مكة حرام لا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفر صيدها[1].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة نحو الكعبة ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم. قال مجاهد: لو قال إبراهيم: أفئدة الناس لزاحمتهم الروم وفارس، ولكن قال: أفئدة من الناس[2]. وقال ابن جبير: لو قال: أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون[3]. وقرىء تهوى ـ بنصب الواو[4]، من هوى يهوى إذا أحب، إلا أن القراءة المعروفة بالكسر.

قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿38﴾﴾ أي ما نسر في أنفسنا وما نظهر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام إبراهيم، ويحتمل أن يكون قولاً من الله معترضاً بين الكلامين، كأنه قال: وصدق إبراهيم فإنه لا يخفى على الله شيء. ورجع إلى قول إبراهيم.

قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿39﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿40﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿41﴾﴾.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 4/ 320، رقم: 1833، كتاب جزاء الصيد، وابن ماجه في سننه: 2/ 1038، رقم: 3109، باب فضل مكة.

(2) المحرر الوجيز: 10/ 93.

(3) المصدر نفسه.

(4) ذكر الفراء هذه القراءة في معاني القرآن: 2/ 78.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي أن إبراهيم كان ابن مائة سنة يوم ولد له إسحاق وكانت سارة يومئذ بنت تسع وتسعين سنة، وكان إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي قابل للدعاء.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي مداوماً على إقامة الصلاة، واجعل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ من يقيم الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي أجب دعاء ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ قال بعضهم: أراد آدم وحواء لأن الله كان نهاه عن استغفاره لأبيه من بعد ما تبين له أنه عدو الله. وقال بعضهم: أراد به أبويه الأدنين، فكان إبراهيم يستغفر لأبيه عن موعدة، وعدها إياه. وقرأ بعضهم: ولوالدتي، لأن أمه كانت مسلمة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي يوم يحاسب الخلق.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿42﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿43﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا تظنن الله يا محمد غافلاً عن أعمال الظالمين ومجازاتهم على ما يعملونه، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه أبصارهم. قال ابن عباس: إذا سيقوا إلى النار شخصت أبصارهم إليها. وقال الحسن: تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي حين يدعوهم من قبورهم لا يغمضون أعينهم من هول ذلك اليوم[1].

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي مسرعين نحو البلاء الذي ينزل بهم. والإهطاع: الإسراع. وقال مجاهد: مهطعين أي مديمين النظر. قال

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 149.

الخليل: المهطع: الذي قد أقبل على الشيء الذي ينظره ولا يرفع عينيه عنه. وقوله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم إلى ما يرون في السماء من الانفطار وانتشار الكواكب وتكوير الشمس ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي لا يغمضون أعينهم من الهول والفزع. قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي وقلوبهم خالية من كل خير وأمل خير، وقيل: مجوفة لا عقول فيها. وقال السدي: هو أفئدتهم بين موضعها وبين الحنجرة فلا هي عائدة إلى مواضعها ولا هي خارجة منها. ثم عاد إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي أعلمهم بموضع المخافة يوم يأتيهم العذاب وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي الكفار: ربنا أعدنا إلى حال التكليف نجب دعوتك. استمهلوا مدة يسيرة كي يجيبوا الدعوة ويتبعوا الرسل يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي حلفتم من قبل هذا في الدنيا، ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى﴾[1].

قوله تعالى:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (47)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي سكنتم في مساكن عاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي ظهر لكم كيف كفروا بالله ورسله، فكيف عاقبهم الله. والمعنى: كان ينبغي أن تنزجروا وترتدعوا عن الكفر اعتباراً بمساكنهم بعدما تبين لكم كيف فعلنا بهم.

---

(1) سورة النحل (16)، الآية: 38.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي وبينا لكم الأمثال في القرآن المنبه على التفكر فلم تعتبروا بتلك الأمثال.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي قد مكرت الأمم الماضية بأنبيائهم ما أمكنهم من المكر، والله تعالى عالم بمكرهم وعنده جزاء مكرهم، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿46﴾﴾. من قرأ: لتزول ـ بكسر اللام[1]، فالمعنى: وإن كان مكرهم قصداً منهم إلى أن تزول منه الجبال ثم لا تزول منه الجبال، فكيف يزول منه الدين الذي هو أثبت من الجبال. وقيل معناه: الجحد، كأنه قال: وما كان مكرهم ليزول منه دين الإسلام وثبوته كثبوت الجبال، فاستحقر مكرهم. ومن قرأ: لتزول ـ بفتح اللام[2]، فمعناه: وإن كان مكرهم قد بلغ منتهاه حتى تزول منه الجبال، فلا يضر ذلك أنبياء الله ورسله، فإن الله وعد رسله النصر بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي لا تظنن الله يا محمد مخلف رسله ما وعدهم من النصر وإظهار الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، أي ذو نقمة ممن عصاه وكفر به.

قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿48﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿49﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿50﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿51﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿52﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تبديلها أن يزاد فيها وينقص منها، ويسوي جبالها وأوديتها، وتمد مد الأديم العكاظي أرضاً بيضاء كالفضة. وتبديل السماوات: انفطارها وانتثار كواكبها وتكوير شمسها وخسوف قمرها. وذهب بعضهم إلى أن الآية على ظاهرها وأن هذه الأرض تبدل يومئذ

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 300.

(2) المصدر نفسه.

(3) سورة التوبة (9)، الآية: 33، وسورة الصف (61)، الآية: 9.

بأرض أخرى كما روي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية، فقلت يا رسول الله فأين يكون الناس؟ قال: «**على جسر جهنم**». يعني الصراط[1]. وأما السماوات على هذا القول فإنها تطوى وتبدل هي الأخرى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي وبرزوا من قبورهم للمحاسبة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي وترى يا محمد الذين أجرموا يوم القيامة مقرنين، أي موثقين مع الشياطين في الأصفاد، أي في الأغلال والسلاسل، كما روي في الخبر: أنه يقرن كل كافر مع شيطان في غل من حديد وقيد من حديد[3]. والأصفاد: الأغلال، واحدها: صفد وصفاد، وقيل: الأصفاد: الأغلال والقيود.

قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي قمصانهم من نار سوداء كالقطران، وهو ما تهنأ به الإبل. ومن قرأ قطران، فالمعنى: من نحاس مذاب قد بلغ النهاية في الحماية[4]. ويحتمل أنهم يسربلون سربالين: أحدهما من القطر والآخر من الآن.

قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تعلو وجوههم النار، وذلك أن بين الكافر وشيطانه حجراً من الكبريت يشتعل في وجهه.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ معناه: وبرزوا لله الواحد القهار ليجزي الله كل نفس ما كسبت: يجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذا حاسب فحسابه سريع، لأنه لا يحاسب بعقد وإشارة، ولا يتكلم بلسان، ولكن يكلم الجميع في وقت واحد.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي هذا القرآن ذكر بالغ وموعظة

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 150.
(2) سورة الأنبياء (21)، الآية: 104.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 391.
(4) المحرر الوجيز: 10/ 104.

كافية للناس، وليخوفوا بذكر العقاب ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿52﴾﴾ أي ليتعظ ذوو العقول من الناس فيوصلهم ذلك إلى الجنة، ويخلصهم من النار. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام، وبعدد من لم يعبدها**»[1].

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 144، وكذلك الزمخشري في تفسيره: 2/ 385.

سُورَةُ الحِجرِ

سورة الحجر مكية، وهي تسع وتسعون آية بلا خلاف، وألف وسبعمائة وواحد وسبعون حرفاً، وستمائة وأربع وخمسون كلمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿1﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿2﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿4﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿5﴾ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿6﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿7﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿8﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿9﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿1﴾﴾ قد تقدم تفسير ﴿الٓرۚ﴾، ومعنى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الذي وعدت بإنزاله عليك. وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي مبين للحلال والحرام، مميز بين الحق والباطل.

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿2﴾﴾ أي ربما يأتي على الكفار يوم يتمنون أن لو كانوا مسلمين، وذلك في الآخرة إذا صار المسلمون إلى الجنة والكفار إلى النار. قال ابن عباس: وذلك أن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار احتبس قوم من المسلمين ومن المنافقين على الصراط، فيقول المنافقون لهم: نحن حبسنا بكفرنا ونفاقنا فما نفعكم

إيمانكم بمحمد، فعند ذلك يصيحون صيحة لما عيرهم المنافقون، فيسمعها أهل الجنة فيقومون إلى آدم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى يطلبون الشفاعة لهم، فيحيلونهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفع لهم ذلك هو المقام المحمود. فيدخلهم الله الجنة، فإذا نظر المنافقون إليهم تمنوا لو كانوا مسلمين[1].

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي اتركهم يا محمد يأكلوا في الدنيا كالأنعام، ويتلذذوا قليلاً، ويشغلهم الأمل الطويل عن طاعة الله، فسيعلمون ماذا ينزل بهم من العذاب؟ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إني أخوف ما أخاف على أمتي شيئان: طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿4﴾﴾ أي أجل ينتهون إليه، لا يهلكهم الله حتى يبلغوا إليه، لا تهلك أمة قبل أجلها الذي كتب لها، ولا تؤخر عن أجلها طرفة عين. فلا يغتر هؤلاء الكفار بتأخير وقت إهلاكهم، فإنه إذا جاء الوقت الذي كتب الله هلاكهم فيه لم يتأخروا عنه، كما لا يتقدمون عليه.

قال أبو بكر الحداد:

وفي خبر هذا بيان أنه لا يموت أحد ولا يقتل إلا لأجله الذي جعله الله له ولا يعترض على هذا بقول من قال كان يجب أن لا يكون القاتل ظالماً للمقتول لأنه لو لم يقتله كان يموت في ذلك الوقت قلنا كان يموت من غير ألم القتل فكأن القاتل بإيصال ذلك الألم إليه ضار ظالماً له.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿6﴾﴾ أي قال الكفار من أهل مكة، وهم: عبد الله بن أبي أمية[3] المخزومي وأصحابه، قالوا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 151.

(2) رواه البيهقي في الشعب: 7/ 370، رقم: 10616، باب في الزهد وقصر الأمل.

(3) في النسخة (ف): ابن أمية.

للنبي صلى الله عليه وسلم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر في دعواه وفي زعمه: إنك لمجنون في دعواك أنه نزل عليك هذا، فإنهم كانوا لا يقرون بأن القرآن أنزل عليه[1].

قوله تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي هلا تأتينا بالملائكة من السماء يشهدون أنك رسول الله إن كنت من الصادقين فيما تدعي.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ جواب من الله لهم، يقول: ما تنزل الملائكة من السماء إلا بالرسالة والعذاب والموت، وكل ذلك حق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي وما كانوا إذاً مؤجلين إذا نزلت عليهم الملائكة، بل يستأصلون بالعذاب حينئذٍ إلا من يكون المعلوم من حاله أنه يؤمن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑨﴾ أي جعلناه معجزاً لا يقدر على الإتيان بمثله فهو محفوظ من الزيادة والنقصان. ويقال: هو محفوظ من كيد المشركين بالإبطال.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ⑩ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑪ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑬ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ⑭ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ⑮﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ⑩﴾ أي ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك في الأمم الأولين. والشيع: جمع شيعة والشيعة: الأمة والفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑪﴾ في إنكار التوحيد والبعث كما يفعل بك قومك.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي كذلك

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 151.

نسلك القرآن في قلوب المجرمين بأن نسمعهم ونفهمهم ثم لا يؤمنون به، وقيل معناه: كذلك نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين حتى يمنعوا عنه. والسلك: إدخال الشيء في الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وقد مضت سنة الأولين بعذاب الاستئصال عند معاندتهم بالتكذيب.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ أي لو فتحنا على هؤلاء الكفار باباً من السماء ينظرون إليه، فظلوا يصعدون إليه وينزلون عنه لم يؤمنوا، وقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ أي غطيت أبصارنا وأغشيت عن حقيقة الرؤية، ونحن قوم مسحورون قد سحرنا وتخيل إلينا هذه الأشياء على خلاف حقائقها، كما قالوا حين انشق القمر وعاينوه: هذا سحر مستمر. ومن قرأ: سكرت ـ بالتخفيف، فهو من السكر، وقراءة التشديد لتكثير الفعل والمبالغة[1].

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي منازل الشمس والقمر والكواكب السبعة، وهي اثنا عشر برجاً: أولها: الحمل والثور إلى آخرها..

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي زينا السماء بالكواكب للناظرين إليها.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ أي حفظنا السماء من أن يدخل فيها شيطان يمكنه الاستماع إلى كلام الملائكة. قال ابن عباس: كانت

---

(1) قال مكي في الكشف: 2/ 30: خففه ابن كثير، وشدده الباقون.

الشياطين لا تحجب عن السماوات كلها، وكانوا يقعدون في السماء مقاعد للسمع فيستمعون إلى ما هو كائن في الأرض من الملائكة، فينزلون به على كهنتهم فيتكلم به الكهنة للناس حتى بعث عيسى عليه السلام فمنعوا من ثلاث سماوات، وكانوا يصعدون إلى أربع سماوات إلى أن بعث النبي صلى الله عليه وسلم فمنعوا عن السماوات السبع، وحرست السماء بالنجوم والملائكة، فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب، فمنهم من يأتي على نفسه، ومنهم من يخبل[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿18﴾﴾ أي نجم مضيء حار فيوقد لا يخطئه. والشهاب: هو الكوكب المنقض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي جبالاً ثوابت أوتاداً لها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾، أي في الجبال من كل ما يوزن مثل الذهب والفضة والحديد والصفر والرصاص. ويجوز أن يكون المعنى: وأنبتنا في الأرض من كل شيء من النبات والثمار مقدور مقسوم لا يجاوز ما قدره الله على ما تقتضيه الحكمة. وأما تخصيص الموزون فلأن ما يكال من الحبوب فعاقبته الوزن أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي جعلنا لكم في الأرض معايش مما يأكلون ويشربون ويلبسون.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي وجعلنا لمن لستم له برازقين معايش من الدواب وغيرها. وجاءت «من» لغير الناس كقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾[2] الآية.. وقيل المعنى: وجعلنا لكم من لستم برازقين معايش، كأنه قال: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم العبيد والدواب، وكفيناكم مؤنة أرزاقها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي ما من شيء يحتاجون إليه من النبات والثمار والأمطار إلا ومفاتيحه إلينا وهو في مقدورنا.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/10.
(2) سورة النور (24)، الآية: 45.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ما ننزل الرزق والمطر إلا بمقدار معلوم تقتضي الحكمة إنزاله وتعلم الخزان مقاديره كما روي في الخبر: مع كل قطرة ملك يضعها موضعها إلا يوم الطوفان فإن طغى الماء يومئذٍ على خزائنه، فلم يحفظوا ما خرج منه يومئذٍ.

قوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿22﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿23﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿24﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿25﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي ذات لقاح يأتي بالسحاب ويلقح الشجر، فالريح هي الملقحة للسحاب أي المحملة للسحاب بالمطر. قال ابن مسعود: يبعث الله الريح فيلقح السحاب ثم يمر به فيذر كما تذر النعجة ثم تمطر. وعنه أيضاً قال: خلق الله الماء في الريح فتفرغه الريح في السحاب ثم تمر به[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ يعني المطر. ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي لستم لذلك الماء بخازنين ولا مفاتيحه بأيديكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي نحيي بالبعث في الآخرة ونميت في الدنيا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿23﴾﴾ لما في السماوات والأرض بعد موت أهلها، ومعنى الإرث: أن الخلائق كلهم يموتون ولا يبقى إلا الله عز وجل وما يبقى للحي بعد الميت قسيم ولا ميراث.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي علمنا الأولين منكم وعلمنا الآخرين، وقيل: ولقد علمنا السابقين منكم إلى الطاعة ولقد علمنا المتأخرين عن الطاعة. وعن ابن عباس: قال كانت امرأة حسناء تصلي خلف النبي صلى

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 398.

الله عليه وسلم في آخر النساء، وكان بعضهم يتقدم في الصف الأول لئلا يراها، وكان بعضهم يكون في آخر الصف، فإذا ركع يقول: هكذا وينظر إليها من تحت إبطه، فأنزل الله هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي يجمعهم للجزاء والحساب، إنه حكيم في أفعاله عليم بما يستحقه كل واحد منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿26﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿27﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿29﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿30﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿31﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿26﴾﴾ يعني آدم. الصلصال: هو الطين اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا ضربته صلّ، أي صوّت، وإذا مسته النار فهو الفخار. والحمأ: جمع حمأة وهو الطين المتغير إلى السواد. والمسنون: متغير الرائحة إلى النتن، من قوله: لم يتسنه، وهو الذي أتى عليه السنون، وذلك أن آدم كان في الأصل تراباً ثم عجن ذلك التراب بالماء فصار طيناً ثم صار حمأ مسنوناً، ثم صور وترك مصوراً حتى يبس فصار صلصالاً فمكث أربعين سنة، ثم صار بشراً لحماً ودماً وعظماً، ثم نفخ فيه الروح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿27﴾﴾ قيل إن الجان أبو الجن وهو إبليس، فمن أسلم من ولده فهو جني ومن كفر فهو شيطان. قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل آدم. وقال الكلبي: الجن ولد الجان وليس هو بإبليس، وإنما إبليس أبو الشياطين.

قوله تعالى: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي من نار حارة. قال ابن مسعود: سمومكم هذه جزء من سبعين جزءاً من السموم الذي خلق منه الجان[2]. ويقال السموم:

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 226، تفسير القرطبي: 10/ 19.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 23.

نار صافية لا دخان لها. وعلى هذا تسمى الريح الحارة المحرقة سموماً. وأما المارج: الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿15﴾﴾[1] فمعنى المارج: ما اختلط من لهب النار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾﴾ قد تقدم تفسيره. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي إذا جمعت خلقه: اليدين والرجلين، والعينين وسائر الأعضاء، وأدخلت فيه روحاً فصار بشراً بعدما كان طيناً يابساً، فقعوا على وجوهكم خاضعين له بالتحية ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿30﴾﴾ لآدم سجدة تحية له، وعبادة لله. وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدل على اجتماعهم في السجود في حالة واحدة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿31﴾﴾ أي امتنع من السجود لآدم.

قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿32﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿33﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿34﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿32﴾﴾ أي قال الله له: يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين. ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ﴾ أي كيف ينبغي أن أسجد له وأنا أشرف أصلاً منه وهو من طين يتصلصل مجوف محتاج إلى الطعام والشراب وهو من حمأ، والحمأ ظلمة وسواد، والمسنون من الحمأ منتن. قال الله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة، وقيل: من الأرض. فألحقه بجزائر البحار ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مطرود من الرحمة مبعد من كل خير، وأن عليك مع هذا لعنة الله ولعنة الخلائق إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وهو أول من عصى الله من أهل السماوات والأرض.

---

(1) سورة الرحمن (55)، الآية: 15.

قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿40﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿41﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿42﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾﴾ أي أجلني إلى يوم تبعثون الخلائق: أراد الخبيث أن لا يذوق الموت. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿38﴾﴾ أي وقت النفخة الأولى حين يصعق من في السموات ومن في الأرض. وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة. وهذا لم يكن إجابة من الله لإبليس إلى ما سأل، لأنه لم يكن أجله إلى ما دون آخر التكليف، ثم أجله إليه، ولكن كان في علم الله أنه لو لم يسأله لكان أجله يمتد إلى آخر التكليف، فيكون هذا جواب إهانة لا إجابة له. فلما لم يعط الخبيث ما سأل من النظرة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي خيبتني من جنتك ورحمتك لأزينن لبني آدم الأرض من الشهوات واللذات حتى يختاروها على ما عندك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿40﴾﴾ من قرأ بكسر اللام فمعناه: الذين أخلصوا الطاعة لك، ومن نصبها فمعناه: الذين أخلصتهم لنفسك[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿41﴾﴾ أي افعل ما شئت فإن طريقك علي لا يفوتني. وهذا تهديد لإبليس. وقيل معناه: على ممر من أطاعك وممر من عصاك، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿14﴾﴾[2]. وقيل معناه: إن هذا دين مستقيم على بيانه والهداية إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي لا تقدر على أن تحملهم على المعصية وتكرههم عليها، ولكن من يتبعك فإنما يتبعك باختيار.

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 89.
- قال القرطبي في تفسيره: 10/ 28: قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام، والباقون بكسرها.

(2) سورة الفجر (89)، الآية: 14.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿43﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿44﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿45﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿46﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿47﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿48﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿43﴾﴾ أي لموعد إبليس ومن تبعه.

قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعضها أسفل من بعض، وكل طبق منها أشد حراً من الذي فوقه بسبعين ضعفاً. والباب الأول أهون حراً، ولو أن رجلاً بالمشرق فكشف عنها بالمغرب لخرج دماغه من منخره من شدة حرها، والطابق الأول: جهنم، وفيه أهل القبلة من أهل الكبائر إذا ماتوا غير تائبين، والثاني: لظى، وفيه النصارى، والثالث: الحطمة، وفيه اليهود، والرابع: السعير وفيه المجوس، والخامس: سقر، وفيه المشركون وأهل الأهواء المختلفة، والسادس: الجحيم، وفيه الصابئون والزنادقة، والسابع: الهاوية، وفيه المنافقون[1]. فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿45﴾﴾ أي المتقين للمعاصي بالإيمان والطاعة في بساتين وأنهار ظاهرة تنبع مثل الفوارات وتجري من الأخدود، ويقال لهم يوم القيامة: ادخلوها بسلام من الآفات، وقيل: بتحية من الله آمنين من كل ما تكرهون.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي ونزعنا ما في صدور أهل الجنة من أسباب العداوة من الحقد والحسد والتباغض ﴿إِخْوَانًا﴾ أي يصير بمنزلة الإخوان على سرر من ذهب متقابلين، وفي الزيارة تسير سررهم في الجنان بعضها إلى بعض. والسرر جمع سرير. روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا، وطلحة، والزبير من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿47﴾﴾[2].

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 30.

(2) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يتعبون أنفسهم في طلب العيش ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي ولا يخافون الإخراج منها أبداً، شباب لا يهرمون أصحاء لا يسقمون، أحياء لا يموتون.

قوله تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (56) ﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (49)﴾ أي أخبر عبادي أني أنا الغفور لذنوب من تاب، الرحيم لمن مات على التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (50)﴾ لمن استحقه.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي أخبرهم عن أضياف إبراهيم وهم الملائكة، إلا أنه قال: عن ضيف، لأن الضيف مصدر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ قد تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال لهم إبراهيم حين لم يطعموا من طعامه: إنا منكم فزعون. والوجول: هو الفزع. ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ بمولود إذا ولد كان غلاماً، وإذا بلغ كان عليماً. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد بعد أن مسني الكبر بالشيب ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قال هذا على جهة التعجب. وقيل: أراد: فتبشرون بهذا من عند الله أو من تلقاء أنفسكم؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بأمر الله، فإن أمر الله لا يكون إلا حقاً ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾ من رحمة الله. فقال لهم: كيف أقنط من رحمة الله؟ ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

قوله تعالى:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿57﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿58﴾ إِلَّآ
ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿60﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿61﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿62﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿63﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿64﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ
أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿65﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿57﴾﴾ أي ما شأنكم أيها المرسلون؟ لأنهم رسل الله. قالوا: إنا أرسلنا بهلاك قوم مجرمين وهم قوم لوط.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إلا خاصته الذين آمنوا به ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الهلاك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من الهاء والميم. وكانت امرأته منافقة واسمها: واغلة، فقدر الله عليها الهلاك. والغابرون: هم الباقون في موضع العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿61﴾﴾ أي لما جاء الملائكة إلى آل لوط، قال لهم لوط: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم جاؤوه على هيئة وجمال لم يكن قد شاهد مثلهم في الجمال، وكان يعلم طلب قومه لأمثالهم فخاف عليهم منهم، فقال قوم أنكر مجيئكم إلى هذه الديار ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿63﴾﴾ أي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بأمر الله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ذلك.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ببعض من الليل عند السحر ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾، أي كن فيمن يسير خلفهم كي لا ينالهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يختلف في موضع الهلاك،

وقيل: لا يلتفت إلى شيء يخلفه، أي لا يفرح على شيء ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ أي إلى حيث تؤمرون بالمضي إليه وهو زغر[1].

قوله تعالى:

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي أوحينا إليك ذلك الأمر.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في موضع نصب بدل من قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾، وقيل: في موضع خفض، لأن المعنى: بأن دابر هؤلاء مقطوع[2]. وقطع الدابر: هو الإتيان على آخرهم بالهلاك حتى لا يبقى منهم أحد.

قوله تعالى: ﴿مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ أي مستأصلون عند الصباح ولا يبقى منهم نسل ولا عقب.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي أهل مدينة قوم لوط، وهي: سدوم، يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط لعملهم الخبيث، فإنهم كانوا يجاهرون بهذه الفاحشة، فقال لهم لوط: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الحرام ولا تذلوني في أمري. ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾ عن ضيافة الغرباء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ أزوجكموهن إن كنتم لا بد فاعلين مثل هذا الفعل، وذلك لأنه لم يجد ما بقي به أضيافه أبلغ من عرض بناته عليهم للتزويج وافتداء ضيفه ببناته في الشفاعة، وقد كان علم أنهم لا يرغبون في التزويج، وقيل: أراد بقوله: ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بنات قومي، لأن بنات أمة كل نبي بمنزلة بناته في شفقته عليهن.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 407، ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 140.
(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 90.

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ هذا قسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقسم الله بحياة أحد غيره، تقديره: لعمرك قسمي، إلا أنه حذف الخبر، وجوابه: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لفي غفلتهم يتحيرون.

قوله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي وقت الإشراق، وذلك أن الملائكة قلعوا مدينتهم وقت الصبح فرفعوها إلى قريب من السماء، ثم قلبوها عند طلوع الشمس[1]. وصاح بهم جبريل حينئذٍ. وقد تقدم تفسير ما في الآية في سورة هود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي في إهلاك قوم لوط لآيات للمتفرسين. والمتوسمون: هم النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة السمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي إن قرية لوط لبطريق واضح لا تندرس ولا تخفى على طريق قومك إلى الشام. والمعنى: إن الاعتبار بها ممكن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي لدلالة للمؤمنين الذين يصدقون بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي وقد كان أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب لظالمين بكفرهم. والأيكة: الشجر الملتف الكثير. وكان شعيب بعث إلى قومين: إلى أهل مدين وكانوا يطففون الكيل والوزن فأهلكوا بالصيحة، وبعث إلى أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة. ويقال: إن مدين والأيكة

---

(1) تفسير البغوي: 3/ 408.

واحد، كانت الأيكة عند مدين فخرجوا من مدين إليها يطلبون الروح عندها، فأخذهم عذاب يوم الظلة واضطرم المكان عليهم ناراً فهلكوا عن آخرهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي بالعذاب. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن قريات لوط ومواضع قوم شعيب لعلى طريق مبين.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿80﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿81﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿82﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿83﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿84﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿85﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿86﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿80﴾﴾ أي ولقد كذب قوم صالح صالحاً ومن تقدم من المرسلين. والحجر: ديار ثمود وإنما سموا أصحاب الحجر لأن الحجر اسم لواد كانوا يسكنون عنده.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يريد الناقة، وكانوا عنها معرضين.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي ينقبون بيوتهم في الجبال آمنين من الموت لطول أعمارهم، وقيل: من الخراب وسقوط السقف.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿83﴾﴾ أي وقت الصباح صاح بهم جبريل فهلكوا، فما أغنى عنهم من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي للحق وإظهار الحق لم يخلقها عبثاً ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ يعني القيامة لمجازاة الناس كلهم ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي أعرض عن مجازاة المشركين وعن مجاوبتهم، فإن مجاوبة السفيه سفه. قال مجاهد: هذا منسوخ بآية القتال[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿86﴾﴾ أي الخالق للإنسان العالم بتدبير خلقه.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 54.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿87﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿88﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿89﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿90﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿91﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿92﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿93﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أكرمناك يا محمد بسبع من المثاني، قيل: هي السبع الطوال وهي السور السبع من أول البقرة إلى سورة الأنفال والتوبة وهما جميعاً سورة واحدة، سميت هذه السور مثاني لأنه يثنى فيها الأقاصيص والأمر والنهي والوعد والوعيد والمحكم والمتشابه[1]. وقال ابن عباس: السبع الثماني: فاتحة الكتاب، هكذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**ما أنزل الله في التوراة والإنجيل والزبور مثل فاتحة الكتاب، وإنها السبع المثاني**»[2]، وإنما سميت هذه السورة مثاني لأنها تثنى في كل صلاة، وإنما خص هذه السورة من جملة القرآن مع كونها من القرآن تعظيماً لها، لأن كمال الصلاة متعلق بها كما خص جبريل وميكائيل من جملة الملائكة تعظيماً لهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم.

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تنظرن بعين الرغبة إلى ما أعطينا من الأموال رجالاً من بني قريظة والنضير وغيرهم، فإن ما نعطيك من النبوة والقرآن أعظم مما أعطيناهم من الأموال ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بما أنعمنا عليهم مما لم ننعم به عليك، ويقال: لا تحزن على هلاكهم إن لم يؤمنوا. وهذا القول أقرب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يجوز أن يحسد أحداً بما أنعم الله عليه من نعيم الدنيا، وإنما كان يحزن على إصرارهم على الكفر.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 148 ـ 149.

(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 178، رقم: 3036، فضل فاتحة الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي تواضع وألن جناحك للمؤمنين لكي يتبعك الناس على دينك ولا ينفروا من عندك.

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي المعلم بمواضع المخافة، المبين لكم بلغة تعرفونها[1].

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال الحسن معناه: وأنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا الكتاب على المقتسمين وهم اليهود والنصارى. سماهم مقتسمين لأنهم اقتسموا كتب الله تعالى فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، وهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾، أي فرقوه فآمنوا ببعضه وهو ما وافق دينهم، وكفروا ببعضهم وهو ما خالف دينهم. وقال بعضهم: هم رهط من أهل مكة. وقال مقاتل: ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب[2] مكة وقعدوا على طرقاتها، فإذا جاء الحجاج قال فريق منهم: لا تغتروا بالخارج منا المدعي النبوة فإنه مجنون. وقالت طائفة أخرى على طريق آخر: إنه كاهن، وقالت طائفة أخرى: شاعر. والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكماً، فإذا سئل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: صدق أولئك. يعني المقتسمين[3].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ هم هؤلاء المقتسمين حرفوا القرآن، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: كذب، وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: أساطير الأولين، وقال بعضهم: مفترى. ومعنى التعضية: التفريق، يقال: عضت الشيء إذا فرقته[4].

---

(1) في النسخة (ف): تصدقونها.

(2) الأعقاب: ما بعد مكة من الطرق يفد منها الناس.

(3) تفسير القرطبي: 10/ 60، المحرر الوجيز: 10/ 151.

(4) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 1/ 355، ومعاني القرآن للفراء: 2/ 92.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ أي في الآخرة عما كانوا يعملون من تفريق القرآن، وصرفهم الناس عن دين محمد صلى الله عليه وسلم. وعن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: «**فوربك لنسألنهم يوم القيامة عن قول لا إله إلا الله**» وقال عبد الله: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا ويسأله الله يوم القيامة فيقول: يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ واعترضت الملحدة على هذه الآية وعلى قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾[1] وحكموا عليهم بالتناقض. والجواب أنه لا يقال لهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا؟ وقال قطرب: السؤال على ضربين: سؤال استعلام واستخبار، وسؤال تقرير وتوبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ يعني لا يسألهم سؤال استخبار، لأنه عالم بهم قبل أن يخلقهم.

وقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ سؤال تقريع وتقرير.

قوله تعالى:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي أظهر أمرك بمكة واتركهم حتى يجيء أمر الله بعذابهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً بمكة قبل نزول هذه الآية لا يظهر شيئاً مما أنزل الله عليه، فلما نزلت هذه الآية أظهر النبي صلى الله عليه وسلم أمره وأعلنه بمكة.

---

(1) سورة الرحمن (55)، الآية: 39.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾ بك وهم خمسة نفر أهلكهم الله في يوم واحد، منهم: العاص بن وائل: نزل شعباً من تلك الشعاب، فلما وضع قدمه على الأرض قال لدغت. فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه. ومنهم: الحارث بن قيس: أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش شديد، فلم يزل يشرب حتى أنفد مكانه فمات. ومنهم الأسود بن المطلب[1] بن الحارث قعد إلى أصل شجرة فجعل جبريل يضرب رأسه على الشجرة حتى مات، كان يستغيث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً صنع بك شيئاً غير نفسك. ومنهم: الأسود بن عبد يغوث: خرج من أهله فأصابه السموم فاسود حتى صار حسيماً، وأتى لأهله فلم يعرفوه، فأغلقوا دونه الباب حتى مات. ومنهم: الوليد بن المغيرة: خرج يتبختر في مشيته حتى وقف على رجل يعمل السهام فتعلق سهم بثوبه فجعل يعطف رداءه على كتفه، فأصاب السهم أكحله فقطعه، ثم لم ينقطع عنه الدم حتى مات[2]. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾ أي بك وبالقرآن.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝﴾ من التكذيب وبأنك شاعر وساحر وكاهن.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فصل بأمر ربك، واحمده بالثناء عليه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي من العابدين.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ أي استقم على عبادة ربك وطاعته حتى يأتيك اليقين، يعني الموت والمجازاة الموقن به. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن أسبح بحمد ربي، وأكون من الساجدين**»[3]. وقال الضحاك: معنى قوله: فسبح بحمد ربك، أي قل سبحان الله وبحمده،

---

(1) في النسخة (ف): ابن عبد المطلب.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 158.
(3) ذكره الغزالي في الإحياء: 2/ 63، 3/ 265، والبغوي بسنده في معالم التنزيل: 3/ 415 ـ 416.

وكن من الساجدين، أي المصلين. وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ سورة الحجر له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار وبعدد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم**»[2].

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 3/ 155، رقم: 826.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 151.
والزمخشري في الكشاف: 2: 399.

سُورَةُ النَّحْلِ

سورة النحل مكية، وهي سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف، وألف وثمانمائة وأربعون كلمة، ومائة وثمانية وعشرون آية. قال صلى الله عليه وسلم: «**من قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم الله عليه في الدنيا**»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ② خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما رأوا أنه لا ينزل شيئاً قالوا: ما نرى شيئاً. فأنزل الله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ انتظروا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد: ما نرى شيئاً مما تخوفنا به. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب النبي صلى الله عليه وسلم لا يشك أن العذاب قد أتى. قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يعني العذاب، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم[2]. وأما ذكر لفظ الإتيان في هذا

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2: 436. والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(2) تفسير القطربي: 10: 66، والواحدي في أسباب النزول: 228.

لأن أمر الله في القرب بمنزلة ما قد أتى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له وتعالى بصفات المدح عما يشركون به من الأصنام.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي تنزل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده. قرأ الأعمش: تنزل ـ بفتح التاء وسكون النون، وكسر الزاي[2]. قال ابن عباس: يعني بالملائكة: جبريل وحده. وسمي الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب، والحق، ويموت الكفر، والباطل.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ②﴾ أي أن اعلموا بالتخويف أنه لا إله إلا أنا فاتقون، أي فاتقوا معاصي. وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض، أي بأن أنذروا.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي ليستدل بهما على توحيد الله تعالى، وليعمل بالحق، تعالى من أن يكون له شريك.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④﴾ قال ابن عباس: نزل في أبي بن خلف الجمحي حين قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[3]. والمعنى: خلق الإنسان من نطفة منتنة، وأنعم عليه حالاً بعد حال إلى أن بلغه الحالة التي يخاصم عن نفسه فينكر إعادته بعد موته[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾ أي وخلق لكم الأنعام وهي ذوات الأخفاف، والأظلاف دون ذوات الحوافر.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ أي ما يدفئكم من أصوافها

---

(1) سورة النحل (16)، الآية: 77.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 159، المحرر الوجيز: 10/ 159.
(3) سورة يس (36)، الآية: 78.
(4) الواحدي، أسباب النزول: 229.

وأوبارها من الأكسية ونحوها من القلانس واللحاف ومنافع أخر من ألبانها ونسلها والركوب والحمل عليها والفرش والبيوت من أصوافها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني لحومها.

قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿6﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿7﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿8﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿9﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿6﴾﴾ أي ولكم فيها منظر حسن. يقال: هذه مواشي فلان فيكون له في ذلك جمال. قال قتادة: وذلك يكون إذا راحت، عظاماً ضروعها، طوالاً أسنمتها[1].

قوله تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي حين تريحونها في العشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي حين تخرجون بها بالغداة من مراحها إلى مسارحها.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ﴾ أراد به الإبل تحمل أمتعتكم، وزادكم، وما يثقل عليكم إلى بلد قصدتموه للحج إلى مكة أو تجارة إلى سائر البلدان لولا الإبل لكان لا يمكنكم بلوغ تلك البلاد إلا بجهد ومشقة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي متفضل منعم عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ أي وخلق لكم الخيل والبغال، والحمير لتركبوها وتتزينوا بها زينة فيحصل لكم منافعها وحسن منظرها للناس كما قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾[2].

---

(1) تفسير القرطبي: 15/ 71 ذكر قول قتادة.
(2) سورة الكهف (18)، الآية: 46.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي يخلق أشياء لا تعرفونها ولم يسمها لكم، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله تعالى خلق أرضاً بيضاء مثل الدنيا ثلاثين مرة محشوة خلقاً من خلق الله لا يعلمون أن الله يعصى طرفة عين**» قالوا: يا رسول الله أمن ولد آدم هم؟ قال: «**ما يعلمون أن الله خلق آدم**». قالوا: فأين إبليس منهم؟ قال: «**ما يعلمون أن الله خلق إبليس**». ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذه مما يستدل به على كراهة لحم الخيل على مذهب أبي حنيفة، لأن الله تعالى قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يذكر في آية الخيل، والبغال إلا الركوب والزينة[1].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي وعلى الله بيان الهدى والضلالة ليتبع الهدى وتجتنب الضلالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي ومن الطرق ما هو عادل عن الحق. قال الكلبي يعني: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وقال ابن المبارك يعني: الأهواء والبدع[4].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى جنته وثوابه ولأرشدكم كلكم.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑫ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑬﴾.

---

(1) أحكام القرآن، للجصاص: 3/ 184.
(2) سورة الإنسان (76)، الآية: 3.
(3) سورة الشمس (91)، الآية: 8.
(4) تفسير البغوي: 3/ 420.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي هو الذي أنزل من السماء المطر لكم منه شراب مثل: الركايا والغدران. ولكم منه شجر فيه تسيمون أي ترعون أغنامكم، يعني الكلأ والأشجار التي ترعاه الإبل.

قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ تسخير الليل والنهار مجيء كل واحد منهما عقب الآخر بتقدير الله ليتصرف الناس في معائشهم بالنهار ويسكنون بالليل، وتسخير الشمس والقمر والنجوم مجيئه بها في أوقات معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي وسخر لكم ما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار وغيرها مختلفاً ألوانه ومناظره وصوره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ دلائل الله.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قال الإمام أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني السمك، وتستخرجوا حلية تلبسونها وهو الغوص لاستخراج اللؤلؤ، والمرجان لتلبسه نساؤكم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي وترى السفن في البحر مقبلة ومدبرة تشق الماء يميناً وشمالاً، يقال: مخرت السفينة البحر إذا جرت جرياً

وشقت الماء شقاً. والمخر: هو هبوب الريح، والسفينة تجري بالريح، فسميت السفن مواخر، والواحدة ماخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني لتركبوه للتجارة فتطلبوا الريح من فضل الله لكي تشكروا نعمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي وجعل فيها جبالاً عالية ثابتة لئلا تتحرك بكم الأرض، وأجرى فيها أنهاراً مثل: النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون، وجعل فيها طرقاً لمنافعكم لكي تهتدوا إلى الموضع الذي تقصدونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿16﴾﴾ أي وجعل في الأرض أعلاماً للمسافرين من الجبال وغير ذلك قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ معناه: أن من يسير بالليل فإنما يهتدي إلى الطريق في البر والبحر بالنجوم مثل: الثريا، وبنات نعش، والفرقدين يهتدى بها إلى القبلة والطرق.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي أفمن يخلق هذه الأشياء وهو الله تعالى كمن لا يقدر أن يخلق شيئاً وهي الأصنام، أفلا تذكرون أنهما لا يستويان في استحقاق العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يعني إذا أردتم أن تعرفوا تفاصيل نعم الله عليكم في الخلق والرزق والتمكين في الأمور في الدنيا لم تقدروا على إحصاء هذه النعم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لذنوب عباده إذا تابوا ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بالإمهال إلى وقت التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿19﴾﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿20﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿21﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿22﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿23﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ والله تعالى هو الخالق لها.

قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ يعني الأصنام. والمعنى: كيف تخلق شيئاً وهي أموات لا روح لها؟ وإنما جمع بين قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ وبين قوله: ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ لأنه يقال: فلان ميت وإن كان حياً إذا كان لا ينتفع به، فكأن الله تعالى بيّن أنه لم يسم الأصنام أمواتاً من حيث لا ينتفع بها، ولكن لأنه لا حياة فيها، فكيف يعبدون ما لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينعم، وهو مع ذلك من الأموات.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي وما تشعر الأصنام حتى يبعث الناس من القبور فيحاسبون، فكيف يرجو الكفار الجزاء من قبل الأصنام. وأيان: كلمة اختصار أصلها: أي وأن.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ وهو الله عز وجل ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للحق وهم متعظمون عن قبول الحق أنفة من اتّباعه واتّباعك.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ أي حقاً أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ أي إذا قيل لهؤلاء الكفار ما الذي يدعي محمد صلى الله عليه وسلم أنه منزل عليه من الله؟ ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي الذين يذكرون أنه منزلِ كلام الأولين وما يسطرون في كتبهم من الأخبار والأقاصيص.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي آثامهم وافرة يوم القيامة وليحملوا من آثام الذين يصرفونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن بلا علم ولا حجة، يعني يكون عليهم إثم إضلالهم غيرهم لا أن يحملوا ذنوب غيرهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي قد مكر الذين من قبل هؤلاء بأنبيائهم كما مكر هؤلاء المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة ليصدوا الناس عن دين الله، فأتى الله بنيان أولئك من القواعد بالعذاب، فوقع عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم الهدم والاستئصال من حيث لا يشعرون بإتيان العذاب منه. وقد اختلفوا في هؤلاء الذين خر عليهم السقف، قال بعضهم: هو نمروذ بن كنعان الذي بنى صرحاً طوله خمسة آلاف وخمسون ذراعاً وعرضه ثلاثة آلاف وخمسون ذراعاً ليصعدوا إلى السماء، فوقع الصرح على الذين كانوا فيه، وأهلك الله نمروذ بالبعوض وقال بعضهم: هذا على وجه المثل، فكأنه جعل أعمالهم بمنزلة الباني بناء أسقط عليه[2].

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي تشركونهم معي في العبادة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي قال المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي الذل اليوم والهوان والعذاب على الكافرين الذين

---

(1) سورة فاطر (35)، الآية: 18.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 97 ـ 98.

تتوفاهم الملائكة بقبض أرواحهم في حال ظلمهم لأنفسهم بالكفر، واستسلموا وانقادوا للمذلة والهوان. يقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أي من معصية في الدنيا، فيقول المؤمنون: بلى قد فعلتم ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويقول لهم خزنة جهنم ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن توحيد الله وعبادته.

قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿30﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿31﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿32﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن أهل مكة لما بعثوا إلى أعقاب مكة رجالاً ليصدوا الناس عن دين الله، بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجالاً من أصحابه: عبد الله بن مسعود وغيره، فكان وافد الناس إذا قدم فرده الكفار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان، سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً. أي أنزل حقاً وصواباً[1]. وعلى هذا انتصب قوله: ﴿خَيْرًا﴾ وإنما ارتفع قوله في جواب المقتسمين من كفار مكة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لأنهم كانوا لا يقرون بإنزاله، بل كانوا يقولون على جهة التكذيب: هو أساطير الأولين.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أراد بالحسنة الثناء والمدح على ألسنة المؤمنين، وقيل: للذين قالوا: لا إله إلا الله يضعف لهم بعشرة ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة خير مما يصل إليهم في الدنيا. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ثم فسر دار المتقين فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي بساتين إقامة يدخلونها يوم القيامة تجري من تحت أشجارها الأنهار لهم ما يشاؤون فيها، كذلك تكون مجازاة المتقين للشرك والمعاصي.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 100، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 425.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند قبض أرواحهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي زاكية أعمالهم متمسكين بما أمروا به، مجتنبين لما نهوا عنه، طيبة أرواحهم بما يبشرون به من الجنة، تقول لهم الملائكة ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿32﴾﴾.

قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿33﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿34﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينظر أهل مكة في تكذيبهم للرسل واستبطائهم العذاب إلا أن تأتيهم الملائكة بقبض أرواحهم أو يأتي أمر ربك بعذاب الاستئصال ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار من تكذيب الرسل مثل ما فعل هؤلاء فعذبهم الله، وما ظلمهم الله بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث فعلوا ما استوجبوا به العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي عقاب ما عملوا. أراد بالسيئات العقاب كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1]. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿34﴾﴾ أي وحل بهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ هذا نظير الآية التي في الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[2] وقد تقدم تفسيره، يعني كفار أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية من تكذيب الأنبياء مثل ما فعل هؤلاء فلم يكن ذلك حجة لهم، وهل على الرسل إلا

---

(1) سورة الشورى (42)، الآية: 40.

(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 148.

البلاغ المبين عن الله بلغة يعرفونها؟ وقال بعضهم: إنما قالوا هذا القول استهزاء وسخرية كما قال قوم شعيب: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (37)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ كما بعثناك رسولاً في هؤلاء ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي اجتنبوا الشيطان وعبادة كل ما يعبد من دون الله. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض الذين عاقبهم الله فانظروا كيف صار عاقبة أمرهم.

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أي إن تطلب يا محمد جهدك هداهم فإن الله لا يهدي من يحكم عليه بالضلالة، ومن يضله الله فلا يهدي ولا يهتدي ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي من يدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (40)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أيحلف الكفار بالله مجتهدين في اليمين أنه لا يبعث الله من يموت.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي قل بلى، وقيل: إن الله تولى الجواب بنفسه، كأنه قال: لنبعثنهم بعد الموت وعداً عليه حقاً. انتصب قوله: ﴿وَعْدًا﴾

على المصدر، أي وعد وعداً حقاً كائناً أوجبه على نفسه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق.

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ معناه: نبعثهم لكي نبين لهم ما يختلفون فيه من الدين ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في الدنيا بأن لا جنة ولا نار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿40﴾﴾ أي إنما أمرنا في البعث وغيره إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. من رفع: ﴿فَيَكُونُ ﴿40﴾﴾، فمعناه: فهو يكون، ومن نصب، فعلى جواب: كن، وقيل: عطفاً على: أن نقول[1].

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿41﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿42﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿43﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، وصهيب، وبلال وأصحابهم الذين هاجروا إلى المدينة من بعدما عذبهم أهل مكة[2]. والمعنى: والذين هجروا أوطانهم في طاعة الله، وساروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بعد ما ظلمهم الكفار ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لنبوئنهم في الدنيا أرضاً كريمة وهي المدينة بدل أوطانهم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لهم مما أعطيناهم في الدنيا، أو لو كان يعلم الكفار! ثم وصفهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ يعني على الشدائد والعبادات، وصبروا عن المحرمات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في طلب الدين والدنيا.

---

(1) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 396.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 229، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 428.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث رسولاً من الملائكة[1] إلا رجالاً منا. ومعنى الآية: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا رجالاً أوحينا إليهم كما أوحينا إليك، فاسألوا يا أهل مكة أهل الذكر، أي أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون أن الرسل كانت من البشر.

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وقيل: في هذا إضمار، كأنه قال: وأرسلناهم بالبينات والزبر. والبينات: الدلالات الواضحات. والزبر: جمع الزبور وهو الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ الحلال والحرام والحق والباطل ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه فيؤمنوا به.

قوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (45) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (46) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ (47) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ (50)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ قال ابن عباس: يعني أهل مكة عملوا السيئات، يعني الشرك، ومعناه: أفأمن الذين مكروا في تكذيب الرسل وإيذاء المسلمين أن يخسف الله بهم كما خسف بقارون، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ من موضع لا يعلمون، ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، أي في أسفارهم وتجارتهم وتصرفهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (46)﴾ الله عن ما يريد إحلاله بهم[2].

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 229، تفسير القرطبي: 10/ 108.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 109.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي على تنقص إما بقتل أو بموت، الأول فالأول حتى يهلكوا عن آخرهم. روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ما كنت أدري ما معنى ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ حتى سمعت قول الشاعر[1]:

تخوف الرحل منها تامكا قرداً ∴ كما تخوف عود النبعة السفن[2]

وقال الحسن: معناه: إن تخوفهم بأن يهلك قرية لتنزجر قرية أخرى.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرحمة بتخير العذاب عن الكفار، أو شديد على من تاب منهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ أي من شخص قائم من شجر أو إنسان أو نحو ذلك ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا﴾ أي تتمايل ظلاله عن اليمين والشمائل إذا أظلت الشمس، وإذا غربت سجداً لله، أي ميلانها ودورانها من موضع إلى موضع سجودها، يسجد الظل عدوه إلى أن يفيء الظل ثم يسجد أيضاً الليل، وفي هذا دليل توحيد الله تعالى. قال الحسن: أما ظلك فيسجد لله وأما أنت فلا تسجد.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أي صاغرون ذليلون.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾ أي ما يدب على الأرض والملائكة يخضع له، فهم لا يتعظمون عن الخضوع له ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي يخافون عقاب ربهم من فوقهم، وقيل: يخافون ربهم خوف المقهور من القاهر. فذكر لفظ فوق على هذا المعنى.

---

(1) أبو كبير، عامر بن الحليس الهذلي: شاعر فحل، من شعراء الحماسة له ديوان شعر مطبوع. الشعر والشعراء: 257. ونسبه: ابن منظور في اللسان لابن مقبل.

(2) هذا الشعر من البسيط، يصف به الشاعر ناقته فيقول: تنقصها السفر، وأضناها، وبراها كما يبري صانع القسي عود النبع فيجعله دقيقاً.
السفن: القدوم، والفأس التي ينشر بها.
النبع: شجر قوي تتخذ منه القسي.
التامك: السنام المرتفع المكتنز. وناقة تامك: عظيمة السنام.
القرد: الشعر المتلبد. (خزانة الأدب: 3/ 473، اللسان: خوف، شرح شواهد الكشاف: 4/ 495).

قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن لله ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم الله إلى يوم القيامة ترعد فرائصهم من مخافة الله، وتجري دموعهم دماً، وتضطرب أجنحتهم لا تقطر من دموعهم قطرة إلا صارت ملكاً قائماً، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**»[1].. وعن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: من سجد هذه السجدة إيماناً، وتصديقاً أعطاه الله بعدد الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، وقطر المطر، ونبات الأرض، وترابها، ورمالها، ومدرها، وعدد ما دب على وجه الأرض حسنة حسنة[2].

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿51﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿52﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿53﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿54﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿55﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿56﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يجوز أن يكون قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيداً لما سبق، ويجوز أن يكون المعنى: لا تخشوا اثنين إلهين إنما الله إلا إله واحد ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي فاخشون ولا تخشون غيري ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ظاهر المعنى. ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي دائماً.

وقوله تعالى: ﴿وَاصِبًا﴾ انتصب على القطع وإن كان فيه التعب. والوصب: شدة التعب، وأن الله تعالى هو المستحق لأن يعبد في جميع الأوقات.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿52﴾﴾ إنكار عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ظاهر المعنى.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب: 1/ 521، رقم: 914، باب في الخوف من الله تعالى.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 162.

قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي فإليه تتضرعون في كشفه. والجؤار في اللغة: رفع الصوت، فكأنه قال: فإليه تضجّون وتصيحون، ثم إذا كشف الضر عنكم عاد فريق منكم إلى الشرك ليكفروا بما آتيناهم، أي ليجحدوا نعمة الله في كشف الضر عنهم، ثم أوعدهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فتمتعوا في الدنيا فسوف تعلمون ما يحل بكم من العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ أي ويجعلون للأصنام التي لا تعلم نصيباً مما رزقناهم، وهو ما كانوا يجعلون لها من السائبة، والبحيرة، والحام، وبعض الحرث. ويجوز أن يكون لما لا يعلمون راجعاً إلى الكفار على معنى: أنهم لا يعلمون أنها لا تنفعهم ولا تضرهم.

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أقسم بأن الله ليسألهم في الآخرة عن افترائهم فيما جعلوه للأصنام.

قوله تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (60)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ معناه: أنهم يقولون إن الملائكة بنات الله، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى عما لا يليق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم من البنين دون البنات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي ظهر أثر الكراهة والحزن على وجهه من ذلك، يقال لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً وخجلاً.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلىء غيظاً وغماً يتردد حزنه في جوفه.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي يختفي من المبشر له

بذلك ومن جلسائه من كراهة ما بشر به من الأنثى ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي أيحفظ المبشر به على هون ومشقة والهون: الهوان، أم يدفنه في التراب حياً؟ كما كان في عادة العرب كان إذا ولد لأحدهم أنثى حفر لها حفرة وألقاها فيها ودفنها حتى تموت وهي الموءودة. وأما لفظ التذكير في قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ فإنه راجع إلى المبشر به.

قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ألا ساء ما يقضون من اختيار البنين لأنفسهم، وإضافة البنات إلى الله تعالى، وقتل الموءودة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي لهم صفة السوء من احتياجهم إلى الولد وكراهيتهم الإناث خوف العار والافتقار. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة العليا وهي الألوهية والربوبية ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾(1).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يقدر أحد أن يغلبه، الحكيم في أمره، وتدبيره.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي بعقاب معاصيهم عاجلاً ما ترك على الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم، أي يمهلهم إلى وقت ضربه لإمهالهم، فإذا جاء ذلك الوقت لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون. فإن قيل: كيف قال: ما ترك عليها من دابة مع علمنا أن في الناس من هو غير ظالم؟ قيل معناه: ما ترك عليها من دابة ظالمة، وقيل معناه: لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عاجلاً لانقطع النسل لأنه لا أحد إلا وقد كان في آبائه وأجداده من هو ظالم.

---

(1) سورة الإخلاص (112)، الآية: 3 ـ 4.

فإن قيل: الآية [تفيد][1] تعميم الناس والدواب في الهلاك، فأي شيء يوجب هلاك الدواب؟ قيل: إن الدواب إنما خلقها الله لمنافع الناس، فإذا أهلك الناس بمنع المطر عنهم لم تبق في الأرض دابة إلا وهلكت، وإذا هلك الناس بوجه من الوجوه لم تبق الدواب أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ في الآية إعادة ذكر جعل الكفار أنهم يجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم وهو: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي أن لهم الجنة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي حقاً، وقيل: لا بد ولا محالة أن لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي مقدمون إلى النار. والفارط في اللغة: هو القادم إلى الماء، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «**أنا فرطكم على الحوض**»[2]. أي سابقكم إليه. ومن قرأ: مفرطون ـ بكسر الراء، أي أنهم الذين أفرطوا في الذنوب والمعاصي، ومن قرأ: مفرطون ـ بالتشديد، فهو من التفريط وهو التقصير[3].

قوله تعالى:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿64﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿65﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿66﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أي كما أرسلنا إلى هؤلاء أرسلنا

---

(1) ما بين المعقوفين غير موجود في (ك).

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 13/ 293، رقم: 6575، كتاب الرقاق، ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 15/ 53، كتاب الفضائل، ومالك في الموطأ: المنتقى: 1/ 69، كتاب الطهارة، باب جامع الوضوء.

(3) مكي الكشف: 2/ 38.

رسلاً إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم في الكفر والتكذيب، فهو وليهم في الدنيا يتبعون قواه، ويقال: هو وليهم يوم القيامة، أي يقال لهم يومئذٍ هذا وليكم، فيكلهم الله يومئذٍ إلى من لا يملك دفع العذاب عن نفسه، فكيف يدفع عنهم العذاب، ومن كان الشيطان وليه دخل النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي لتبين لهم الحق والباطل، وأنزلناه دلالة ورحمة للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر فأحيا به الأرض بعد يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أدلة الله ويتفكرون فيها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من دون أن يظهر فيه لون الدم ولا رائحة الفرث ﴿سَآئِغًا﴾ أي متيسر الجري في الحلق لا يغص به شاربه. وإنما لم يقل: في بطونها، لأن الأنعام والنعم واحد، وكأنه رد الكناية إلى النعم. وفي قوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ قراءتان فتح النون وضمها، يقال: سقى وأسقى بمعنى واحد.

قوله تعالى:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أراد بالسكر المسكر وهو من العنب الخمر، ومن النخل نقيع التمر إذا غلا واشتد، ونزلت هذه الآية وهما لهم حلال يومئذ. هكذا روي عن ابن عباس. والرزق الحسن: ما أحل منهما مثل: الخل والزبيب والتمر. وسئل بعضهم عن هذه الآية فقال: السكر ما حرم من شرابها، والرزق الحسن ما حل من ثمرها[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلائله.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 128.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهم ربك النحل وعرفها ووفر عليها دواعيها إلى ما هو المذكور في الآية. وسمي الإلهام وحياً لأن الوحي هو ظهور المعنى للنفس على وجه خفي. وقد ألهم الله كل دابة التماس منافعها واجتناب مضارها، إلا أن أمر النحل أعجب، لأن فيها من لطيف الصنعة ما فيه أعظم معتبر، فإن الله ألهمها اتخاذ المنازل والمساكن، وأن تأكل من كل الثمرات لمنافع بني آدم، وأن لا تقذف ما أكلته بعدما صار عسلاً إلا على حجر صاف أو مكان نظيف لا يخالطه طين ولا تراب.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ فهي تتخذ من الجبال بيوتاً إذا لم تكن لأحد.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني ما يبني الناس لها من خلاياها ومساكنها. ولولا التميز وإلهام الله ما كانت تأوي إلى ما يبنى لها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من ألوان الثمر كله ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي طرق ربك لطلب الرعي. وقوله تعالى: ﴿ذُلُلًا﴾ يجوز أن يكون من نعت السبل، لا يتعذر ولا يتوعر عليها مكان سلكته وهي ترعى الأماكن البعيدة ذات الغياض، قد ذلل الله لها مسالكها، أي سهلها. قال ابن عباس: ذللاً: نعت النحل، أي مطيعة بالتسخير وإخراج العسل من بطونها(1).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني العسل يلقيه النحل أبيض، وأصفر، وأحمر، يقال: إنه يخرج من شبابها الأبيض، ومن كهولها الأصفر، ومن شيوخها الأحمر.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي في ذلك الشراب شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه. كذا قال السدي، وليس إذا كان في الناس من يضره العسل، بمعنى في نفسه ما يوجب أن يخرج العسل من كونه شفاء للناس، فإن الله جعل الماء حياة لكل شيء، وربما يكون الماء سبباً للهلاك، لكن الاعتبار للأعم.

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 109.

وقال قتادة: فيه شفاء للناس من الأدواء[1]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل[2].

قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي خلقكم في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور حتى أخرجكم ورباكم إلى أن يقبض أرواحكم عند آجالكم، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر حتى يعود في كبره وهرمه في نقصان قوته ونقصان عقله إلى مثل حال الطفولة.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي يصير كالصبي الذي لا عقل له. وقال السدي: أرذل العمر: الخرف. وقال قتادة: تسعون سنة. وعن علي رضي الله عنه: إن أرذل العمر خمس وتسعون سنة[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليم بكل شيء قادر على تحويل الأحوال.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي في المال والخدم والنعم، وجعل بعضكم سادة، وبعضكم مماليك ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أي فما أرباب الإخدام والذين فضلوا برادي رزقهم على المماليك فيسوونهم مع أنفسهم

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 164.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 698، رقم: 5431، كتاب الأطعمة، الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 5/ 559، رقم: 1891، وابن ماجه في سننه: 2/ 1104، رقم: 3323، باب الحلوى.

(3) تراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي، ورقة: 164.

في الملك، فإذا لم ترضوا في الحكمة أن يشارككم مماليككم لئلا تبطلوا فضيلتكم فكيف يرضى الله من خلقه أن تجعلوا له شريكاً في الملك من خلقه. وهذا مثل ضربه الله للمشركين فقال إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء في الملك فكيف تجعلون عبادي معي سواء.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي أتضيفون نعمة الله إلى غيره وتشكرونه عليها فتجحدون نعمة الله، فإن من أضاف النعمة إلى غير المنعم وشكره عليها فقد جحد النعمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي جعل لكم من جنسكم نساء، وجعل لكم من نسائكم بنين وحفدة. قيل: إن الحفدة: الأختان، وقيل: ولد الولد، وقيل: الخدم. وحقيقة الحفدة من يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة من الحفد وهو الإسراع. ويقال لكل من أسرع في الخدمة والعمل حفدة، ومنه قولهم في دعاء الوتر: نسعى ونحفد، أي نسرع في طاعتك.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من الملاذ والحلال.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفبالأصنام يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي يجحدون بإضافتها إلى غير الله.

قوله تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بإنزال الغيث ولا من الأرض بإنبات النبات شيئاً قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي لا يملكون وليست لهم استطاعة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا لله الأشباه، لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن الله يعلم ما يكون قبل أن

يكون ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قدر عظمتي، حيث أشركتموني وعجزتموني أن أبعث خلقي.

قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿75﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿76﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿77﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي ضرب المثل بعبد مملوك لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً وهو الحر، فهو ينفق منه خفية وعلانية هل يستويان في المثل، أي كما أن الحر الذي يملك وينفق سراً وعلانية والذي لا يملك شيئاً ينفقه لا يستويان، فكذلك لا يستوي المنعم الذي جاء من قبله النعمة والأصنام الموات التي لا تقدر على النعمة.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أي قل الحمد لله الذي وضح لنا السبيل والطريق، بل أكثر الكفار لا يعلمون ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي وضرب الله المثل برجلين: أحدهما أخرس لا يقدر على شيء من الكلام، ويقال الأبكم: هو الذي ولد أصم لا يسمع، ولا يفهم، ولا يمكنه أن يفهم غيره ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي ثقل على ولاته وصاحبه أينما يوجهه لا يهتدِ إلى منفعة ولا خير ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل، أي بالحق متكلم آمر بالعدل تام التمييز ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي دين مستقيم. وهذا مثل للمؤمن والكافر.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ

هُوَ أَقْرَبُ﴾ قيل: هذه الآية نزلت جواباً عن سؤال قريش: متى الساعة؟[1] وهي ظاهرة المعنى.

قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿78﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي أخرجكم جاهلين غير عالمين ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ أي خلق الحواس التي بها تعلمون نعمته، وقدرته.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿79﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿80﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ أي ألم يروا إلى الطير مذللات في الهوى ما يمسكهن حتى لا يسقطن على الأرض إلا الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي لدلالات على وحدانية الله لقوم يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي من بيوت المدر والحجر مواضع تسكنون فيها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً وهي الخيام يخف عليكم ثقلها وحملها من مكان إلى مكان يوم سفركم ويوم إقامتكم، وجعل لكم من أصواف الظأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثاً، أي متاعاً للبيت من الفرش والأكسية والبسط ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ومنفعة تنتفعون بها إلى حين آجالكم.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 150، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 441.

قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ أي أشياء تستظلون بها مثل الأشجار ونحوها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وهي الكهوف والغيران يدخلها الناس ليسكنوا فيها من الحر والبرد.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي جعل لكم سرابيل، يعني القميص من القطن والكتان والصوف، تدفع عنكم الحر في الصيف والبرد في الشتاء. ولم يذكر البرد في الآية لأنه لما ذكر الحر فقد دل به على ما يقابله من البرد.

قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أراد به الدروع من الحديد يتقون بها في الحرب سلاح العدو، يعني الطعن والضرب والرمي.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في سائر الأشياء كما أتمها عليكم في هذه الأشياء لكي تسلموا. قال ابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي لعلكم يا أهل مكة تعلمون أنه لا يقدر على هذا غير الله، فتؤمنوا به وتصدقوا رسوله[1]. وفي قراءة ابن عباس: لعلكم تسلمون ـ بفتح التاء[2]، أي لكي تسلموا من الجراحات إذا لبستم الدروع من الحديد، ومن الحر والبرد إذا لبستم القميص.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (82)﴾ أي إن أعرضوا عن

---

(1) تفسير الثعلبي: 165.

(2) تفسير القرطبي: 10/ 161، المحرر الوجيز: 10/ 219.

الإيمان فإنما عليك يا محمد البلاغ الظاهر، وهو أن تبلغ الرسالة وتبين الدلالة. فلما ذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه النعم قالوا: نعم يا محمد، هذه كلها من الله. ثم قالوا: بشفاعة آلهتنا. فأنزل الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ثم ينكرونها بإضافتها إلى الأوثان، ويشكرون الأوثان عليها[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي كلهم كافرون بالله وبنعمه، فذكر الأكثر والمراد به الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني يوم القيامة يشهد الأنبياء على أممهم بما فعلوا من التصديق والتكذيب ويشهد العدول من كل عصر على أهل عصرهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا يؤذن لهم بعد شهادة الرسل في الاعتذار، ولا ينفعهم الاعتذار يومئذ، ولا يجابون إلى الردّ إلى الدنيا.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿85﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿86﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿87﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿88﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿89﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ إذا رأوه بالدخول فيه فلا يرفه عنهم في وقت، وتشدد في وقت، ولا يؤجلون بتأخير العذاب إلى وقت آخر.

---

(1) تفسير الثعلبي: 166.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي إذا رأى الذين أشركوا الأصنام مع الله في العبادة شركاءهم، يعني الأصنام ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام شركاؤنا التي أشركناها معك في العبادة، واستسلموا كلهم لأمر الله يومئذٍ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أنها آلهة. والفائدة في إعادة الأصنام يومئذ أن يعيِّرهم الله بها، وأن يقرنهم بها في العذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: الذين كفروا بالله، ورسله، وصدوا عن سبيل الله بامتناعهم عنه وبمنع الناس عنه زدناهم عذاباً فوق العذاب. قال ابن مسعود: زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال. وقيل: زيدوا حيات كأمثال الفيلة، وقيل: تجري فوق رؤوسهم أنهار من نحاس ذائب، إذا وقع على كتف الرجل اشتعل الجسد منه ناراً، فليس فيها عذاب أشد منه[1].

قال الإمام أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيه بيان أن كل عصر لا يخلو من شهيد على الناس، وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء، يعني قومه.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء من أمور الدين، وهدى ورحمة وبشارة للمسلمين.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 164، المحرر الوجيز: 10/ 222.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ يعني بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال، ولا نفعل إلا ما هو عدل، ولا نقل إلا ما هو حسن. قال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض. وقيل العدل: هو الإنصاف[1]. ويدخل فيه إنصاف المرء من نفسه لغيره في الحقوق والأمانات، ومن نفسه لنفسه على ما يكون حقاً عليه من شكر نعم الله، وأن لا يعبد غيره، وأن لا يصف الله إلا بما يليق به من الصفات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ يدخل في ذلك التفضل على الغير إما بالمال أو بالمعاشرة الجميلة من قول، أو فعل، أو إكرام، وتحبب.

قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي صلة الأرحام.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ فالفحشاء: الزنا، والمنكر: الشرك، والبغي: الظلم، والكبر. وقيل: الفحشاء: ما عظم قبحه من قول أو فعل سراً كان أو علانية، والمنكر: ما يظهر للناس فيجب إنكاره، والبغي: هو الاستطالة والظلم. وقيل معنى الآية: إن الله يأمر بالعدل، أي بالتوحيد، والإحسان: الإخلاص. وقيل الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، وقيل الإحسان: العفو عن الناس، وقيل العدل: استواء السر والعلانية، والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر: تكون علانيته أحسن من سريرته. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على الوليد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿90﴾﴾ فقال: يا ابن أخي أعد علي. فأعاد عليه فقال: إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمورق وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر[2].

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: يأمركم بثلاث أن

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 165.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 166، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 445.

تفعلوهن، وينهاكم عن ثلاث لتنتهوا عنهن لعلكم تتعظون بما تؤمرون وتحترزون من التقصير.

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ أي العهود التي بينكم وبين الناس إذا حلفتم بالله تعالى. ولا تنقضوا العهود بعد توثيقها باسم الله وقد قلتم الله شهيد علينا بالوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ من التقصير والوفاء فيجزيكم عليه. وفي الآية دلالة على أن الرجل إذا قال: علي عهد الله إن فعلت كذا. كان يميناً لأنه تعالى ذكر العهد في أول الآية ثم عقبه بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ أي لا تكونوا في نقض العهود كالتي نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام. فهي امرأة من قريش أم الأخنس بن شريق تعرف بريطة[1] الحمقاء، كانت تغزل من الصوف والشعر والوبر بمغزل عظيم. فإذا غزلته وأبرمته مثل طول الذراع وصنارة في رأس المغزل مثل طول الأصبع، وفلكة عظيمة، فإذا غزلته وأبرمته أصرت جاريتها فنقضته[2]. والأنكاث، جمع النكث: وهو ما نقض من غزل الشعر والقطن ونحوهما. والمعنى: لا تكونوا في نقض الأيمان كهذه المرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم نقضته فجعلته أنكاثاً. والأنكاث: ما يقطع من الخيوط.

قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي تتخذون عهودكم دخلاً وخديعة، وغشاً، وخيانة بينكم.

قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ لأن تكون جماعة هي أعز وأكثر من جماعة. قال مجاهد: إنهم كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون الأكثر. فنهاهم الله عن ذلك[3]. وحاصل

---

(1) في النسخة (ف): رائطة.
(2) المحرر الوجيز: 10/ 226 ـ 227، تفسير البغوي: 3/ 446.
(3) تفسير القرطبي: 10/ 171.

التأويل: النهي عن أن يحلف على شيء وهو منطو على خلافه، وأن يغير غيره بيمينه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي إنما يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من الحق والباطل.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿93﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿94﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي أهل ملة واحدة ودين واحد ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه فضلاً منه، ولتسألن يوم القيامة عما كنتم تعملون من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي مكراً وخديعة فتزلوا عن طاعة الله كما تزل قدم الرجل بعد ثبوتها. جعل الله زلة القدم عبارة عن سخط الله، وثبات القدم عبارة عن رضى الله، وقيل معنى قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي فتهلكوا بعد أن كنتم مؤمنين. وقال ابن عباس: فتزل عن الإيمان بعد المعرفة[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بما منعتم الناس عن دين الله ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿95﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟

(1) تفسير القرطبي: 10/ 172.

يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي لا تختاروا الحلف بالله كاذباً عرضاً يسيراً من الدنيا، ولا تنقضوا عهودكم تطلبون ببعضها عرضاً يسيراً من الدنيا، ولكن أوفوا بها، فإن ما عند الله من الثواب في الآخرة على الوفاء هو خير لكم مما عندكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ثواب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ﴾ أي يفنى ولا يبقى، وما عند الله من الثواب يبقى ويدوم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم بالنون، وقرأ الباقون بالياء[1]، ومعناه: الذين صبروا على الوفاء وعلى الطاعة أجرهم بالطاعات ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دون أشرارها، ويعفو عن سيئاتها. قال ابن عباس: وذلك أن رجلاً من حضرموت يقال له عبدان بن الأسوع قال: يا رسول الله إن الأشعث بن قيس الكندي[2] جار عليّ في أرضي فاقتطعها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيشهد لك أحد؟**» قال: إن القوم كلهم يعلمون أني صادق ولكنه أكرم مني عليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشعث: «**ما يقول صاحبك؟**» قال: الباطل والكذب يا رسول الله. قال: «**أتحلف؟**» قال: نعم. فهمَّ بالحلف، فأخره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ إلى آخر الآيتين، فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأشعث، فقال: أما ما عندي فينفد، وأما صاحبي فيجزى بأحسن ما كان يعمل. اللهم إنه صادق فيما قال، لقد اقتطعت أرضه والله ما أدري أرضي، ولكن يأخذ ما شاء من أرضي

---

(1) ذكر مكي في الكشف: 2/ 40 هذه القراءات.

(2) أبو محمد، الأشعث بن قيس الكندي: أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم في جمع من قومه، ثم نزل الكوفة ومات بها سنة أربعين هجرية. الإستيعاب: 1/ 133، الإصابة: 1/ 51، الطبقات الكبرى: 6/ 99.

ومثلها معها بما أكلت من ثمرها. فأنزل الله بعد ذلك في الأشعث[1] قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي من عمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، وأقر بالحق وهو مع ذلك مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، قيل المراد بها: القناعة بما يؤتى من الرزق الحلال. روي عن وهب بن منبه أنه قال: الحياة الطيبة: هي القناعة بما رزق، وقيل: هو أن يكون صدره منشرحاً بما يعتقده من دلائل الله تعالى، وبما يعرفه من وجوب مفارقة المعاصي، فيصير قليل الهم في أمور دنياه، وقيل الحياة الطيبة: الجنة، لأنه لم يطب لأحد الحياة إلا فيها[2].

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿98﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿99﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿100﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿101﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿102﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿98﴾﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن. ونظيره: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾[4]، وفائدة الأمر بالاستعاذة قبل القراءة نفي وساوس الشيطان عند القراءة، وقد أجمع الفقهاء على أن الاستعاذة قبل القراءة ولا تعاد. وروي عن داود بن علي ومالك أنهما قالا: الاستعاذة بعد القراءة. أخذاً بظاهر الآية[5].

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 173.
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة المائدة (5)، الآية: 6.
(4) سورة الأنعام (6)، الآية: 152.
(5) ابن حزم، المحلى: 3/ 250، تفسير القرطبي: 10/ 174.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي الشيطان ليس له سلطان على المؤمن إلا في الوسوسة، إنما سلطانه على الذين يقبلون دعاءه، والذين هم بالله مشركون فإنهم جعلوا له سلطاناً على أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ أي إذا نسخنا آية وأثبتنا مكانها أخرى والله أعلم بمصالح العباد، ننزل في كل وقت ما هو الأصلح لهم. قال كفار قريش: إنما أنت يا محمد كاذب فالناسخ والمنسوخ مختلق من تلقاء نفسك. وذلك أن المشركين قالوا: إنك يا محمد تسخر أصحابك وتأمرهم اليوم بأمر، وتناهم عنه غداً. قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحققة القرآن.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي قل: نزل القرآن جبريل من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا، ويهديهم لإيمانهم ليزدادوا تصديقاً ويقيناً وهدى وبشرى للمسلمين.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿103﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿104﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿105﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون: إن القرآن ليس من عند الله، وإنما يعلّم النبي بشر. أرادوا بذلك جبراً ويساراً: كانا غلامين نصرانيين، وكان صلى الله عليه وسلم يحدثهما ويعلمهما، وكانا يقرآن كتابهما بالعبرانية، وكانا قد أسلما، ويقال: كانوا يعنون بقولهم بشر: سلمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾ أي لسان الذين يميلون

القول إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، وهذا القرآن الذي تقرؤه عربي، فكيف يقدر الأعجمي على تعليم مثله؟!.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى ثوابه، ولهم عذاب وجيع في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إنما يكذب على الله من لا يؤمن بدلائله. بين الله إن الذي نسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الافتراء هم أحق به[1].

قوله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿106﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿107﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿108﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿109﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ يجوز أن يكون ﴿مَن كَفَرَ﴾ رفع على البدل من الكاذبين، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ. وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خبر له أو خبر قوله: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ والمراد بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ عمار بن ياسر. روي أن المشركين أخذوه على طريق فعذبوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدموع من عينيه فأخبره بالقصة، فأنزل الله هذه الآية[2]. فقال له صلى الله عليه وسلم: «**كيف وجدت قلبك؟**» قال: مطمئناً بالإيمان. فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن عادوا فعد**». فقوله عليه السلام: فعد، على جهة الإباحة والرخصة دون الإيجاب، فإن المكره على الكفر إذا صبر حتى قتل كان أعظم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 449 ـ 450.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 231، تفسير القرطبي: 10/ 180.

لأجره. الإكراه المبيح لإجراء كلمة الكفر على اللسان: هو أن يخاف التلف على نفسه أو على عضو من أن لم يفعل ما أمر به.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي فسح صدره للكفر بالقبول وأثابه على اختياره. قيل: إنها نزلت في ابن أبي سرح القرشي رجع إلى الشرك وباح بالكفر ولحق بمكة[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ذلك العذاب بأنهم اختاروا الحياة الدنيا على ثواب الآخرة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى جنته وثوابه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قد تقدم تفسيره. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾ أي حقاً ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، أي خسروا أنفسهم.

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿110﴾ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿111﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿112﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿113﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ الآية نزلت في قوم تخلفوا بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم هاجروا إلى المدينة من بعد ما عذبهم أهل مكة، ثم جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فصبروا على الجهاد، فوعدهم الله بالمغفرة لما كان منهم من الكفر، والتخلف عن الهجرة، وذلك أنهم كانوا

---

(1) تفسير القرطبي نفسه، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 452.

مستضعفين بمكة، وكانوا مؤمنين، فعذبهم أهل مكة حتى ارتدوا عن الإسلام ليسلموا من شرهم، ثم هاجروا من بعد ما فتنوا، أي من بعد ما عذبوا، ثم جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وصبروا على الجهاد، إن ربك من بعد تلك الفعلة التي فعلوها من التلفظ بكلمة الكفر لغفور رحيم[1]. قرأ ابن عامر: فتنوا ـ بفتح الفاء، أي فتنوا أنفسهم بإظهار ما أظهروا الفتنة[2].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً بنزع الخافض، أي في يوم تأتي كل نفس ويجوز أن يكون المعنى: واذكر يوم تأتي كل نفس[3]، وهو يوم القيامة يجادل فيه كل إنسان عن نفسه، ويوفر على كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت من خير أو شر، لا ينقص من ثواب محسن، ولا يزاد على عقاب مسيء.

قال الفقيه أبو بكر:

واختلفوا في المجادلة المذكورة في الآية، قال بعضهم: هو قول الكفار ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ ومعنى الآية: أن كل أحد لا يهمه إلا نفسه، فهو يخاصم ويحتج عن نفسه لا يتفرغ إلى غيره.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ يعني مكة كان أهلها آمنين لا يهاج أهلها ولا يغار عليها، بخلاف قرى سائر العرب، لأن العرب كانت لا تقصد مكة بشر ما لحرم الله تعالى. قوله تعالى: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي قارة، أهلها لا يحتاجون إلى الانتقال والانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي كان الرزق واسعاً على أهل مكة يحمل إليهم من البر والبحر كما قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] فكفر أهل مكة بأنعم الله حين كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 232، تفسير الثعلبي، ورقة: 169.

(2) ذكر هذه القراءة مكي في: الكشف: 2/ 41.

(3) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 410.

(4) سورة القصص (28)، الآية: 57.

وخالفوا أمره، فكذبوا بالقرآن بعد قيام الحجة عليهم، فعاقبهم الله سبع سنين بالقحط وخوفهم من النبي صلى الله عليه وسلم ومن عساكره وسراياه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من تكذيبه. روي أنه بلغ بهم من الجوع ما لا غاية بعده حتى أكلوا العظام المحروقة، والجيف، والكلاب، وكان ذلك بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسني يوسف**»(1). فاستجاب الله دعاءه حتى صار أمرهم إلى هذه الحالة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ أراد به محمداً صلى الله عليه وسلم، فأخذهم العذاب الذي تقدم ذكره من الجوع والخوف، وكانوا ظالمين لأنفسهم.

قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿114﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿115﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿116﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿117﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله حلالاً طيباً.. إلى آخر الآيتين، قد تقدم تفسيره في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا الكذب لما تصف ألسنتكم بالحل والحرمة فتحلوا الميتة وتحرموا بعض الزرع والأنعام، كما تقدم ذكره في سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لتكذبوا على الله بقولكم: إن هذا من عند الله.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 3/ 180، رقم: 1006، ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 5/ 177.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي لا يظفرون بالمراد ولا ينجون يوم القيامة، إنما لهم في الدنيا متاع قليل، ثم يتعقبهم العذاب الأليم.

قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿118﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿119﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿120﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿121﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿122﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿123﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أراد به ما بينه الله في سورة الأنعام[1]، وقد تقدم هناك. وفي بيان أن التحريم الذي كان في اليهود كان من قبل الله، وأنه مخالف للتحريم الذي كان في كفار مكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أي ما ظلمناهم بتحريم ذلك، فإن تحريمها كان عقوبة لهم. ولا تكون العقوبة ظلماً ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بمخالفتهم أمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ فيه بيان أن من ارتكب المعاصي وخالف أمر الله واستعمل الجهالة في ارتكابه، لم يمنعه ذلك من التوبة، فإنه إذا تاب وأصلح في المستقبل محا الله عنه كل السيئات. قال ابن عباس: كل سوء يعمله ابن آدم فهو جاهل فيه، وإن كان يعلم أن ركوبه شبه[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ فيه بيان أن إبراهيم كان هو القدوة للناس بالخير. وسمي الإمام أمة لأنه يجمع خصال الخير، ويقال

---

(1) وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾. (الآية: 146).
(2) تفسير القرطبي: 10/ 197.

للرجل المنفرد بدين لا يشركه فيه غيره أمة، ويقال للعالم أمة. والأمة: الرجل الجامع للخير.

قوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ القانت: هو الدائم على الطاعة. والقنوت: هو الدوام على الطاعة. والقانت: المطيع لله. والحنيف: قد تقدم تفسيره. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿120﴾﴾ كما ادعاه كفار قريش، فإنهم يدعون أنهم ينتحلون دين إبراهيم. ﴿شَاكِرًا﴾ لنعم الله عليه. وانتصب قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ على البدل من قوله: ﴿أُمَّةً قَانِتًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي اصطفاه بالنبوة واختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: يعني الذكر الحسن. وقال الحسن: هي النبوة، وقال مجاهد: لسان صدق في الآخرين، وقال مقاتل: يعني الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قولهم: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مع المرسلين في الجنة.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي أمرناك يا محمد باتباع ملة إبراهيم في مجانبة الكفار كما كان إبراهيم يتجنبهم، فإنه كيف يجوز أن يؤمر الفاضل بمتابعة المفضول ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، فكيف أمره الله بمتابعة إبراهيم عليه السلام؟ قيل: إن إبراهيم عليه السلام كان قد سبق إلى اتباع الحق، ولا يكون في سبق المفضول إلى اتباع الحق عيب على الفاضل في اتباعه.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 170.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿124﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿125﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿126﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿127﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿128﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وهم اليهود، وذلك أن موسى قال لبني إسرائيل: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً واحداً فاعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من أمور الدنيا، وستة أيام لمعايشكم وصناعتكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه وقالوا: لا ينبغي إلا اليوم الذي فرغ من الخلق. يعنون السبت. فجعل ذلك عليهم وشدد عليهم فيه[1]. وقالت جماعة منهم: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأنه اليوم الذي بدأ الله فيه بخلق الأشياء. فاختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم، أي تركوا تعظيم يوم الجمعة[2].

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي ادع إلى سبيل دين الله بالحكمة، يعني النبوة. والموعظة الحسنة: القرآن، وقيل: التخويف بالعقاب على جهة إظهار الشفقة عليهم ليكون ذلك أقرب إلى إجابتهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالرفق واللطف وذكر أحسن ما عنده من الحجج، وأعرض عن أذاهم ولا تقصر في أداء الرسالة والدعاء إلى الحق. قيل: إن هذه الآية نسختها آية السيف[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بمن لا يقبل الهدى فيجزي كلاً على ما عمل.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 199.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 251.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ وذلك أن حمزة بن عبد المطلب، وأصحابه الذين قتلوا يوم أحد مثل بهم المشركون، عمدوا إلى حمزة فشقوا بطنه، وأخذت منه هند بنت عتبة كبده فجعلت تلوكها ثم تطرحها، وقطعوا مذاكيره، وجدعوا أنفه وأذنيه، ومثلوا به أشد المثلة وكذلك سائر شهداء أحد مثل بهم المشركون، بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم. فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه حمزة لم ينظر إلى شيء قط أوجع لقلبه منه فقال: «**رحمة الله عليك فإنك كنت فعالاً للخير، وصالاً للرحم، والله لئن أظفرني الله بهم لأقتلن بك سبعين منهم، ولأمثلن بسبعين منهم**». وقال المسلمون: والله لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات. فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿126﴾﴾ فقال صلى الله عليه وسلم: «**بل أصبر ولا أمثل**». وكفّر عن يمينه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي ما صبرك إلا بمعرفة الله وتوفيقه ولا تقدر على الصبر في الحزن الذي لحقك بسبب الشهداء إلا أن يسهل الله عيك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن على الكفار إذا امتنعوا من الاستجابة لك، وقيل: لا تحزن على الشهداء فإن الله أنزلهم منازلهم في الجنة، لو رأيتهم في الكرامة التي أكرمهم الله بها لغبطتهم عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا يضقْ صدرك من مكرهم، فيكون ذلك شاغلاً لك عن ما كلفته من الدعاء إلى سبيل ربك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿128﴾﴾ أي إن الله مع المتقين المحسنين وهم المسلمون، ينصرهم ويظهرهم على الكفار، ويعينهم عليهم.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 233، تفسير الثعلبي، ورقة: 171.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

سورة بني إسرائيل، مكية إلا ثماني آيات، من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾(1) إلى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ فإنها مدنيات، وهي ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفاً، وألف وخمسمائة وثلاث وستون كلمة، ومائة وإحدى عشرة آية. قال صلى الله عليه وسلم: «**من قرأها فرقَّ قلبه عند ذكر الوالدين أعطي في الجنة قنطارين من الأجر، والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية خير من الدنيا وما فيها**»(2).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿1﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿2﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿3﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿4﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي سبحان الذي أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة واحدة من مسجد مكة إلى مسجد بيت المقدس. وسمي مسجد بيت المقدس المسجد الأقصى لأنه لم يكن وراءه مسجد يعبد الله فيه،

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 73 _ 80.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 171.
والزمخشري في الكشاف: 2: 471.

وقيل: لأنه أبعد المساجد التي تزار. قال صلى الله عليه وسلم: «**بينما أنا في المسجد الحرام في الحجر بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق**». وذكر حديث المعراج[(1)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أسري به من بيت أم هانىء[(2)] بنت أبي طالب أخت علي كرم الله وجهه والحرم كله مسجد، وعن الكلبي عن أبي صالح عن أم هانىء أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي[(3)]. قال مقاتل: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة[(4)].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفة بيت المقدس: بارك الله فيما حوله بالأشجار والثمار والأنهار حتى لا يحتاجون إلى أن يجلب إليهم من موضع آخر، وقيل معناه: باركنا حوله: جعلناه موضعاً للأنبياء عليهم السلام، وفيه مهبط الملائكة، والوحي فيه، وفيه الصخرة.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي من عجائب قدرتنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالة قريش وإنكارهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بهم وبأعمالهم.

قال أبو بكر الحداد:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما كان ليلة أسري بي وأنا بين النائم واليقظان، جاءني جبريل عليه السلام وقال لي: يا محمد قم. فقمت، فإذا جبريل ومعه ميكائيل فقال لي: توضأ. فتوضأت ثم قال لي: انطلق يا محمد. قلت: إلى أين؟ قال: إلى ربك. فأخذ بيدي وأخرجني من المسجد، فإذا أنا بالبراق، دابة فوق الحمار ودون البغل، وله خد كخد الإنسان وذنب**

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 7/ 19، رقم: 3342، ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 209، باب الإسراء.

(2) أم هانىء، فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمية القرشية المشهورة بأم هانىء، أخت علي بن أبي طالب، أسلمت عام الفتح، وروت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، توفيت بعد الأربعين من الهجرة.
الاستيعاب: 4/ 279، أعلام النساء: 3/ 1122.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 171.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 460.

كذنب البعير، وأظلافه كأظلاف البقر، وصدره كأنه ياقوتة حمراء، وظهره كأنه درة بيضاء، عليه رحل من رحال الجنة، خطوه منتهى طرفه فقال لي: اركب فلما وضعت يدي عليه شمس فقال جبريل: مهلاً يا براق أما تستحيي؟ فوالله ما ركبك نبي أكرم على الله من هذا. هو محمد صلى الله عليه وسلم. فارتعش البراق وتصبب عرقاً حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خفض حتى لزق بالأرض فركبته واستويت على ظهره فأمَّ جبريل نحو المسجد الأقصى يخطو مد البصر والبراق يتبعه لا يفوت أحدهما الآخر حتى أتيت بيت المقدس، فإذا بالملائكة قد نزلوا من السماء يتلقونني بالبشارة والكرامة من عند الله. فلما وصلت باب المسجد أنزلني جبريل وربط البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء، وأن للبراق خطام من حرير الجنة. فصليت في المسجد ركعتين والملائكة خلفي صفوفاً يصلون معي، ثم أخذ جبريل بيدي وانطلق بي إلى الصخرة، فصعد بي جبريل عليها وإذا معراج أصله على صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء وإحدى عارضتيه ياقوتة حمراء والأخرى زبرجدة خضراء، ودرجه من زمرد مكلل بالدر والياقوت. فاحتملني جبريل حتى وضعني على جناحه ثم صعد بي على ذلك المعراج حتى وصل بي إلى سماء الدنيا، فقرع الباب فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، ففتحوا الباب فدخلنا فقالوا: مرحباً ولنعم المجيء، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأتيت على آدم عليه السلام فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: أبوك آدم. فسلمت عليه فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم انطلقنا حتى أتينا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ففتحوا لنا وقالوا: مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم ولنعم المجيء جاء، فأتيت على عيسى ويحيى فقلت: يا جبريل من هذان؟ قال: عيسى ويحيى ابنا الخالة، فسلمت عليهما فقالا: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقالوا: من هنا؟ قال: جبريل ومعي محمد صلى الله عليه وسلم، ففتحوا، وقالوا: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. قال فأتيت على يوسف عليه السلام فقال لي: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح[1]. ثم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 461.

أتينا السماء الرابعة، فكان من الاستفتاح والجواب مثل ما تقدم، فوجدت إدريس فقال لي: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، وفي السماء الخامسة وجدت هارون فقال لي كذلك، وفي السماء السادسة وجدت موسى فقال لي كذلك، وفي السماء السابعة وجدت إبرهيم عليه السلام فقال لي: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رفعت لنا سدرة المنتهى وإن نبقها مثل تلال هجر وورقها كآذان الفيلة، ورأيت أربعة أنهار تجري من أصلها فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟ فقال: النهران الباطنان في الجنة، وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات. وفيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ومقام جبريل في وسطها. فلما انتهيت إليها قال جبريل: تقدم. فقلت: تقدم أنت يا جبريل. فقال: بل تقدم يا محمد فأنت أكرم على الله مني. قال: فتقدمت وجبريل على أثري حتى انتهى بي إلى حجاب من ذهب فحركه، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل ومعي محمد. فأخرج الملك يده من تحت الحجاب فاحتملني وتخلف جبريل، فقلت: إلى أين؟ فقال: وما منا إلا وله مقام معلوم، وإنما أذن لي في الدنو من الحجاب لإكرامك وإجلالك. فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب آخر فحركه فقال الملك: من هذا؟ فقال: هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم معي. فأخرج يده من الحجاب فاحتملني حتى وضعني بين يديه فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتى جاوزت سبعين حجاباً غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة سنة، وما بين الحجاب إلى الحجاب خمسمائة سنة، ثم احتملت إلى العرش»، فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث شاء الله، ورأى من العجائب والقدرة ما شاء الله. قال صلى الله عليه وسلم: «أمرت بخمسين صلاة كل يوم، فأقبلت حتى أتيت موسى فسألني: بم أمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم. فقال لي: إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع واسأل ربك التخفيف لأمتك، قال فرجعت إلى ربي فحط عني خمساً فأقبلت حتى أتيت موسى فذكرت له ذلك فقال: ارجع واسأله التخفيف لأمتك. فحط عني خمساً أخرى، فلم أزل كذلك يقول لي موسى ارجع واسأله التخفيف وأنا أرجع حتى بقيت خمس صلوات، فقال لي موسى: ارجع واسأله التخفيف. فقلت: لقد رجعت حتى استحييت من ربي، فنوديت: أن قد أمضيت فريضتي وخففت

على عبادي وجعلت كل حسنة بعشر أمثالها»[1]. قال ابن عباس: فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر الليل إلى مكة وأخبر قريشاً كذبوه، ثم سألوه عن صفة بيت المقدس، وما كان عن يمينه حين دخل، وما كان عن يساره حين خرج، وما يستقبله، فأخبرهم بصفاته كلها[2]. وقال: «**مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه**». قالوا: فأخبرنا عن عيرنا نحن؟ قال: «**مررت بها بالتنعيم**». قالوا: فما عدتها وأحمالها وهيئتها؟ قال: «**كذا وكذا، وفيها فلان، وفلان، تقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس**». قال: فخرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون: لقد وصف محمد أشياء فسنكذبه. فلما أتوا كداء جلسوا عليها فجعلوا ينظرون حتى تطلع الشمس فيكذبوه، إذ قال قائل منهم: هذه والله الشمس قد طلعت. وقال آخر: وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. فلم يؤمنوا ولم يفلحوا، وسعى أناس من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هذا صاحبك يزعم أنه قد أسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم رجع من ليلته. قال: إن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى الشام في ليلة واحدة ورجع قبل الصبح؟ قال: فكيف لا أصدقه على ذلك؟ فسمي أبو بكر الصديق[3]. وأما المشركون فقالوا: ما سمعنا بهذا قط، إن هذا إلا سحر مبين. فإن قيل: إنما قال الله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فلم قلتم أسري به إلى السماء؟ قلنا: الأخبار في هذا متواترة ظاهرة، وما ذكره الله في سورة النجم دليل على صحة ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة وجعلناه دلالة لبني إسرائيل: أن لا تتخذوا من دوني رباً ولا تتوكلوا على غيري. ومن قرأ: أن لا تتخذوا ـ بالتاء[4]، فهو على الخطاب بعد الغيبة مثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[5].

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 176، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 463.
(2) البغوي في المصدر السابق: 3/ 466.
(3) المصدر نفسه: 3/ 467.
(4) مكي، الكشف: 2/ 42.
(5) سورة الفاتحة (1)، الآية: 1 ـ 4.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية من حملنا مع نوح، والناس كلهم ذرية نوح، ثم أثنى على نوح فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ لنعم الله، كان إذا أكل أو شرب أو اكتسى أو احتذى قال: الحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أخبرناهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي لتعصن مرتين بقتل النفوس، وتخريب الديار، وأخذ الأموال، ولتظلمن ظلماً عظيماً.

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ⑦﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي سلطنا عليكم عباداً لنا ذوي عدة في القتال. قال ابن عباس: وهم بختنصر وأصحابه المجوس، سلطهم الله على بني إسرائيل حيث عصت في أول الفاسدين، فقتل منهم بختنصر أربعين ألفاً ممن كان يقرأ التوراة ودخل ديارهم، فطلبهم طلباً شديداً حتى كانوا ينظرون في الأزقة والبيوت هل بقي أحد لم يقتلوه، واستأسروا من بقي بعد قتل الأربعين ألفاً ومضوا بهم إلى بلادهم، فمكث الأسرى في أيديهم سبعين سنة حتى مات بختنصر[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي موعداً كائناً لا محالة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي جعلنا لكم الدولة والرجعة عليهم، وأعطيناكم أموالاً وبنين ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر عدداً تنفرون

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 475.

إليهم، وذلك أن رجلاً من أهل الكتاب يقال له كورش غزا أرض بابل: وهي بلاد بختنصر، فظهر عليهم فقتلهم، وسكن ديارهم، وتزوج امرأة من بني إسرائيل أخت ملك بني إسرائيل، فطلبت من زوجها أن يرد قومها إلى أرضهم، ففعل فمكثوا في بيت المقدس مائتين وعشرين سنة، وقامت بينهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾. وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: «**إن بني إسرائيل لما اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس، فحاصرهم وفتحها، وقتل على دم يحيى بن زكرياء أربعين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وسبى أهلها وسلب حلي بيت المقدس، وكان سليمان بن داود قد بناه من ذهب وياقوت وزبرجد وعموده ذهب أعطاه الله ذلك، وسخر الشياطين له يأتونه بهذه الأشياء، ثم سار بختنصر بالأسارى حتى نزل بابل، فأقام بنو إسرائيل في مدنه مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس، ثم إن الله تعالى رحمهم فسلط عليهم ملكاً من ملوك فارس يقال له كورش، وكان مؤمناً ـ على المجوس فسار إليهم، فاستنقذ بني إسرائيل منهم، واستنقذ حلي بيت المقدس حتى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله زماناً، ثم عادوا إلى المعاصي، فسلط الله عليهم ملكاً آخر غزاهم وحرق بيت المقدس وسباهم**»[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني أولى المرتين. واختلفوا فيها، فعلى قول قتادة: فسادهم في المرة الأولى: ما تركوا من أحكام التوراة، وعصوا ربهم، ولم يحفظوا أمر نبيهم موسى، وركبوا المحارم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الفساد الأول قتل زكرياء عليه السلام، وقيل: قتلهم شعيا نبي الله في الشجرة. قال ابن إسحاق: إن بعض العلماء أخبره أن زكرياء مات موتاً ولم يقتل، وإنما المقتول شعيا[2].

قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ يعني جالوت وجنوده. قال ابن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 179 ـ 180.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 216.

إسحاق: وهو بختنصر البابلي وأصحابه ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي ذوي بطش شديد في الحرب ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ أي طافوا وداروا. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم[1]. قال حسان:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد ∴ فجاس به الأعداء عرض العساكر[2]

وقيل: فجاسوا: أي طلبوا من فيها كما تجاس الأخبار.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي المرة الآخرة، وهو قصدهم قتل عيسى حين رفع، وقتلهم يحيى بن زكرياء عليهما السلام فسلط الله عليهم ططوس بن اسيسانوس وفارس والروم حتى قتلوهم وسبوهم وفنوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ أي منفعة إحسانكم راجعة إليكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ أي فإلى أنفسكم. ولم يقل: فإليها، على جهة المقابلة للكلام: وإلا فإلى. ومثل هذه الحروف قد يقام بعضها مقام بعض كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[3] أي إليها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي وعد المرة الآخرة في الفساد ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ بالقتل والسبي ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي مسجد بيت المقدس كما دخله بختنصر وأصحابه أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ أي وليخربوا ما علوا عليه تخريباً. والثأر والدمار والهلاك بمعنى واحد. قال ابن عباس: وذلك أن الله سلط عليهم بعد مائتين وعشرين سنة ططوس بن اسيسانوس الرومي فحاصرهم وقتل منهم مائة ألف وثمانين ألفاً، وخرب بيت المقدس وذلك بعد قتلهم يحيى عليه السلام، فلم يزل ذلك خراباً إلى أن بناه المسلمون فلم يدخله رومي بعد ذلك إلا خائف كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾[4]. وذهب بعضهم إلى أن بختنصر غزا بني إسرائيل

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 116.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 216.
(3) سورة الزلزلة (99)، الآية: 5.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 114.

مرتين ففتح مدينتهم في المرة الأولى وجاسوا خلالها يقتلون منهم، فتابت بنو إسرائيل إلى الله تعالى: فأظهرهم الله تعالى على بختنصر ورده عنهم، ثم بعث الله إلى بني إسرائيل أرميا النبي صلى الله عليه وسلم، فقام فيهم بوحي الله تعالى فضربوه وقيدوه وحبسوه، فسلط الله عليهم بختنصر مرة أخرى ففعل ما فعل.

قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿8﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿9﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿10﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي بعد انتقامه منكم وإن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة. قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فعاد الله عليهم بالعقوبة بإذلالهم بأخذ الجزية والقتل، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي محتسباً، من قولك: حصرته فهو محصور: إذا حبسته، وقيل: فراشاً ومهداً تشبيهاً بالحصير الذي يبسط ويفرش.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي يهدي للحالة التي هي أقوم الحالات والطريقة التي هي أصوب، وقيل: يرشد إلى الكلمة التي هي أعدل الكلمات وهي كلمة التوحيد والطاعة لله تعالى والإيمان به وبرسله.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿10﴾﴾ أي وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة يبشرهم بعذاب أليم وهو النار.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 184.

قوله تعالى:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿11﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿12﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿13﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي يدعو على نفسه وعلى ولده بالسوء عند الضجر والغضب فيقول: اللهم العنه، اللهه أهلكه ونحو ذلك.. كدعائه ربه بأن يهب له العافية والنعمة ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، فلو استجاب الله له إذا دعاه باللعن والهلاك كما يستجاب له إذا دعاه بالخير لهلك، ولكن الله تعالى بفضله لا يستجيب له. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ في الدعاء بما يكره أن يستجاب له. وقال ابن عباس: يعني ضجوراً لا صبر له على السراء والضراء، وقيل: أراد به آدم عليه السلام لما نفخ فيه الروح فبلغ إلى رجليه قصد القيام قبل أن تجري فيهما الروح فسقط، فقيل له لا تعجل[2].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي علامتين يدلان على قدرة خالقهما ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ضوء القمر. قال ابن عباس: أراد به السواد الذي في القمر، وذلك أن الله تعالى خلق القمر أول ما خلقه على صورة الشمس، وكانت شمس بالليل وشمس بالنهار، وكان لا يعرف الليل من النهار، فأمر الله جبريل فمسح بجناحه شمس النهار فذهب ضوؤها وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي يرونه في جوف القمر[3].. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً، ونور القمر سبعين جزءاً، فأمحى

---

(1) سورة يونس (10)، الآية: 11.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 184.
(3) تفسير القرطبي: 10/ 227.

الله من نور القمر تسعة وستين جزءاً، فجعلها مع نور الشمس، فصار ضوء الشمس مائة وتسعة وثلاثين جزءاً والقمر جزء واحد[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وهي الشمس مبصرة مضيئة منيرة.

قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتسكنوا بالليل وتطلبوا معايشكم بالنهار. إلا أنه حذف «لتسكنوا بالليل» لأنه ذكره في وضع آخر ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي جعلنا ذلك لتعلموا حساب الشهور والأيام ومواقيت الصلاة والصيام والحج. يعني: تمحوا آية الليل ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأمر والنهي والحلال والحرام و﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بيناه في القرآن ليكون أقرب إلى معرفتكم، بيناه تبييناً لا يلتبس بغيره.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي ألزمنا عمله من خير أو شر في عنقه، فجعلنا جزاء عمله لازماً له، كما يقال: هذا الحق في عنق فلان وفي ذمته. قال مجاهد: مكتوب في ورقة معلقة في عنقه شقي أو سعيد[2]. وروى الحكم عن مجاهد: ما من مولود إلا في عنقه مكتوب شقي أو سعيد. وفي الآية تشبيه العمل بالطائر الذي يجيء من ذات اليمين فيتبرك به، والطائر الذي يجيء من ذات الشمال فيتشاءم به. وأما الإضافة إلى العنق دون سائر الأعضاء فلأن ما يتزين به من طوق أو يشين به من غل فإنما يضاف إلى الأعناق.

قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي ندفع إليه يوم القيامة كتابه يرى فيه جزاء أعماله. قرأ الحسن ومجاهد: ويخرج ـ على ما لم يسم فاعله، على معنى: ويخرج له الطائر كتاباً. وانتصب قوله: كتاباً على الحال، وقرأ أبو جعفر: يخرج له ـ بالياء مسمى الفاعل، أي: ويخرج له الطائر يوم القيامة، وقرأ يحيى بن وثاب: ويخرج ـ بضم الياء وكسر الراء بمعنى: الله له كتاباً. وقرأ الحسن ومجاهد: ألزمناه طيره ـ بغير ألف[3]. وقال

(1) المصدر السابق.
(2) ذكره البغوي: في معالم التنزيل: 3/ 486.
(3) ذكر القرطبي هذه القراءات في تفسيره: 10/ 229.

أهل المعاني: أراد بالطائر ما قضى عليه أنه فاعله، وما هو صائر إليه من شقاوة أو سعادة.

قوله تعالى: ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف. المعنى: يلقى الإنسان ذلك الكتاب، أي يؤتى، وقرأ الباقون بالتخفيف، أي يراه منشوراً فيه[1] حسناته وسيئاته. قال ابن عباس: يعطى المؤمن كتاباً بيمينه وهي صحيفة يقرأ سيئاته في باطنها: عملت كذا وقلت كذا، في سنة كذا، في شهر كذا، في يوم كذا، في ساعة كذا، في مكان كذا، فإذا انتهى إلى أسفلها قيل له: قد غفر الله لك، اقرأ ما في ظاهرها. فيقرأ حسناته فيسره ما يرى فيها ويشرق لونه عند ذلك فيقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ⑲ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ⑳﴾[2].

قال الفقيه أبو بكر:

قال: ويعطى الكافر كتابه بشماله فيقرأ حسناته في باطنها فيجد: عملت كذا في سنة كذا، في شهر كذا، في يوم كذا، في ساعة كذا، فإذا انتهى إلى آخرها قيل له: هذه حسناتك قد ردت عليك، اقرأ ما في ظاهر كتابك. فيرى في ظاهر كتابه سيئاته كل صغيرة وكبيرة، فيسود وجهه وتزرق عيناه ويقول عند ذلك: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ㉖﴾[3].

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي يقال له: اقرأ كتابك. قال الحسن: يقرؤه أمياً كان أو غير أمي[4]. وقال قتادة: يقرؤه يومئذٍ أمياً كان أو قارئاً.

قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسباً. وإنما جعل محاسباً لنفسه لأنه رأى أعماله كلها مكتوبة، ورأى جزاء أعماله مكتوبة لم ينقص من ثوابه شيء ولم يزد على عقابه شيء، كفاه ذلك الحساب. وكان الحسن يقول: يا ابن آدم لقد عدل من جعلك لنفسك حسيباً.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 378.
(2) سورة الحاقة (69)، الآية: 19 ـ 20.
(3) نفس السورة، الآية: 25 ـ 26.
(4) ذكره القرطبي في تفسيره: 10/ 230.

قوله تعالى:

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿15﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿16﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿17﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي منفعة هدايته راجعة إليه، ومن ضل في الدنيا عن الدين فإن وبال ضلاله راجع إليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ما حصل غيره، ولا يؤخذ بذنب غيره ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إقامة للحجة وقطعاً للعذر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي إذا أردنا الحكم بهلاك قرية أمرنا جبابرتها ورؤساؤها بالطاعة، فعملوا بالمعاصي. وهكذا كما يقال للرجل: أمرتك فعصيتني، يعني: أمرتك لتطيعني فخالفتني. وإنما ذكر الرؤساء دون المتبوعين، لأن غيرهم تبع لهم، فيكون الأمر لهم بالطاعة أمراً للإتباع. وقرأ مجاهد وأبو رجاء: أمرنا ـ بالتشديد، أي جعلنا لهم إمرة وسلطاناً[1].

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها القول بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي أهلكنا قروناً كثيرة بعد نوح. قال ابن عباس القرن: مائة وعشرون سنة. وقال المازني[2]: مائة سنة[3].

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿17﴾﴾ ظاهر المعنى.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 185.

(2) أبو صفوان، عبد الله بن بشر المازني: صحابي جليل، كان يضفر رأسه ولحيته، وإذا مر بحجر على الطريق نحاه، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، توفي سنة ثمان وثمانين هجرية.
الطبقات الكبرى: 7/ 289.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 185، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 488.

قوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿18﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿19﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿21﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي من كان همه مقصوراً على طلب الدنيا دون الآخرة يجوز أن يكون يريد بالجهاد الغنيمة، وبعمله الذي فرضه الله عليه عز الدنيا ونعيمها خاصة. عجلنا له في الدنيا ما نشاء من عرض الدنيا إلا ما يشاء العبد ولمن نريد أن نعطيه لا لكل من طلب. فأدخل الله تعالى في إعطاء المراد من العاجلة استثناءين: استثناء في العطية واستثناء في المعطين لئلا يثق الطالبون للدنيا بأنهم لا محالة سينالون بسعيهم ما يريدون.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي لهذا الذي لم يرد الله بعمله ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي يدخلها ﴿مَذْمُومًا﴾ يذم نفسه ويذمه الناس ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مطروداً مبعداً من كل خير.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الله في ذلك ثلاث شرائط: أحدها: أن يريد بعمله ثواب الآخرة بالإخلاص في النية، والثاني: أن يسعى في العمل الذي يستحق به ثواب الآخرة، والثالث: أن يكون مؤمناً لأنه إذا كان كافراً لا ينتفع بشيء من عمله.

قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي يضاعف لهم الحسنات ويمحو عنهم السيئات، ويرفع لهم الدرجات. وقال مجاهد: شكره: أن يثيبهم على طاعتهم ويعفو عن سيّئاتهم[1].

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي كل واحد من

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 185، تفسير القرطبي: 10/ 236.

الفريقين ممن يريد الدنيا وممن يريد الآخرة يمد من رزق ربك، وما كان رزق ربك محبوساً من البر والفاجر. وفي هذا بيان أن نعم الدنيا مشتركة بخلاف نعم الآخرة التي هي خاصة للمتقي. ألا ترى أن سائر نعم الله تعالى من الشمس والقمر والهوى والماء والنبات والحيوانات والأغذية والأدوية وصحة الجسم والعافية وغير ذلك.. شاملة للمؤمن والكافر.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي انظر يا محمد كيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق في الدنيا بالمال والخدم، منهم المقل، ومنهم المكثر. وهذا في الدنيا والدرجات في الآخرة أكبر من درجات الدنيا، وفضائل الآخرة وثوابها أرفع مما فضلوا في الدنيا، فينبغي أن يكون سعيهم للآخرة أكثر.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ قيل إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به عامة المكلفين كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]. وقيل: هو خطاب للإنسان كأنه قال: لا تجعل أيها الإنسان مع من له العطايا عاجلاً وآجلاً إلهاً آخر فتبقى في النار مذموماً مخذولاً لا ناصر لك.

قوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿23﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿24﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿25﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي وأمر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، وأمر بالوالدين إحساناً براً بهما وعطفاً عليهما.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي أن ينشآ عندك أيها الإنسان حتى يكبرا. قرأ حمزة: يبلغان، لأن الوالدين قد ذكرا قبله[2].

---

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 65.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 379.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي تقذر حين ترى منهما شيئاً من الأذى، بل أمط عنهما كما كانا يميطان عنك في حال الصغر. والأف: وسخ الأظفار. والتف: وسخ الأذن. والمعنى: لا تتأذ بهما كما لم يكونا يتأذيان بك. قال صلى الله عليه وسلم: «**لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظ وصياح في وجوههما، ولا تكلمهما ضجراً ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي يكون فيه كرامة لهما، كقول العبد المذنب للسيد الغليظ. كذا قال ابن المسيب، وقال عطاء: لا تشتمهما ولا تبكتهما، وقل لهما: يا أبتاه، ويا أماه[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي وكن لهما متضرعاً متذللاً، فإن خفض الجناح عبارة عن الخضوع والمبالغة في التذلل والتواضع. وعن عطاء أنه قال: جناحك يدك، فلا ينبغي لك أن ترفع يديك عند أبويك ولا أن تحد بصرك عليهما تعظيماً لهما. وعن عروة بن الزبير قال: ما بر والده من أحدَّ النظر إليه. وقيل: خفض الجناح: عبارة عن السكوت. قرأ الحسن وسعيد بن جبير وعاصم: جناح الذل ـ بكسر الذال[3]، أي لا تستصعب معهما.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ هذا أمر بالدعاء لهما بالرحمة والمغفرة إذا كانا مسلمين. والمعنى: رب ارحمهما مثل رحمتهما إياي في صغري حتى ربياني. وقال قتادة: هكذا علمتم بهذا أمرتم. قال صلى الله عليه وسلم: «**رضى الله مع رضى الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين**»[4].

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 10/ 243 عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 186.
(3) تفسير القرطبي: 10/ 244.
(4) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 6/ 25، رقم: 1961، باب الفضل في رضا الوالدين.

قال أبو بكر الحداد:

وقال صلى الله عليه وسلم: «**من أمسى مرضياً لوالديه وأصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، وإن كان واحداً فواحداً، ومن أمسى مسخطاً لوالديه وأصبح أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، وإن كان واحداً فواحداً. فقال رجل: يا رسول الله: فإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه...**» ثلاث مرات[1].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي هو أعلم بما في قلوبكم من الرحمة عليهما، والمعنى: ربكم أعلم بما تضمرون من البر والعقوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضمر عقوقاً غفر الله له ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي إن تكونوا مطيعين لله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿25﴾﴾ أي للراجعين من الذنوب إلى طاعة الله، النادمين على المعاصي والزلات. والأواب: هو الذي يتوب مرة بعد مرة كلما أذنب بادر إلى التوبة. وعن مجاهد أن الأواب هو الذي يذكر ذنبه في الخلاء فيستغفر منه[2].

قوله تعالى:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿26﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿27﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿28﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿29﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال ابن عباس: أراد بذي القربى قرابة الإنسان، وحقه: ما يصل به رحمه. وقال بعضهم: أراد به قرابة النبي صلى

---

(1) رواه البيهقي في الشعب: 5/ 206، رقم: 7916، باب في بر الوالدين.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 186.

الله عليه وسلم، وحقهم: هو الحق الذي يجب لهم من الخمس[1]. والتأويل الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن ذكر القرابة معطوف على ذكر الوالدين، وذلك عام في جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وآت المسكين وابن السبيل حقهم الذي وجب لهم من الزكاة والعشرة وغيرهما..

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ التبذير: تفريق المال في المعصية. قال مجاهد: لو أنفق درهماً أو مداً في معصية الله تعالى كان مبذراً، ولو أنفق مثل جبل أبي قبيس في طاعة الله لم يكن مبذراً[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أي أتباع الشياطين يتبعونهم ويجرون على سنتهم، وقيل: يقرنون بالشياطين في النار.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ معناه: إن أعرضت عن هؤلاء الذين أوصيناك بهم من ذوي القربى والمساكين انتظار رزقك يأتيك من الله تعالى، لأنك لا تجد ما تصلهم به، وكنت منتظراً لرزق ربك ترجوه من الله لتعطيهم منه، فقل لهم عند ذلك قولاً سهلاً ليناً، نحو أن تعدهم عدة حسنة، وتقول: أفعل وكرامة، ليس عندي اليوم شيء، وسوف أعطيكم وأقضي حقكم إذا أدركت الغلة، أو وصل إليّ مالي الذي في موضع كذا. أو تقول: يرزقنا الله وإياكم من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل بالمنع عن حقوقهم الواجبة لهم، ومراده: الذي يترك الإنفاق يكون بمنزلة من قد غلّت يداه إلى عنقه فلان يعطي من ماله شيئاً. والعرب تسمي البخيل بمثل هذه الصفات، يقولون: فلان قصير الباع. وإذا كان كريماً قالوا: طويل الباع. وقال صلى الله عليه وسلم لنسائه: «**أسرعكن بي لحاقاً أطولكن يداً**». فكانت زينب بنت جحش لأنها كانت أكثرهن صدقة[3]..

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 247.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 492.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 4/ 35، رقم: 1420، باب أي الصدقة أفضل؟، ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 8، باب فضائل أم المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي لا تخرج جميع ما في يدك مع حاجتك وحاجة عيالك إليه، وتقعد ملوماً ذا حسرة تلوم نفسك وتلام وتبقى ذا حسرة على ما تخرجه يدك. والحسرة: الغم لانحسار ما فات. وحسر عن ذراعه يحسر حسراً إذا كشف عنه. وقد قيل: إن المراد بالخطاب في هذه الآية غير النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يدخر شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم ينفقون جميع أملاكهم في سبيل الله مثل ما فعله أبو بكر رضي الله عنه حتى بقي في عباءة فلم يعنفهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم، وإنما نهى الله تعالى عن الإفراط في الإنفاق من خيف عليه الحسرة على ما يخرجه من يده. كما روي أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة من ذهب فقال: وجدتها في معدن كذا ولا أملك غيرها. فتصدق بها فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورماه بها حتى لو أصابه لشجه، ثم قال: «**إن أحدكم ليتصدق بجميع ماله ثم يقعد يتكفف الناس**». قالوا: ومن الدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن داخلاً في هذا الخطاب أنه تعالى قال: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾ ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحسر على إنفاق ما كان يملكه. وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. فإن سبب نزول هذه الآية ما روي أن امرأة بعثت ابنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له: قل له: إن أمي تستكسيك درعاً. فإن قال لك: حتى يأتينا شيء. فقل له: إنها تستكسيك قميصك. ففعل الابن كما قالت أمه، فنزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه ودفعه إليه، ولم يبق له قميص يخرج فيه إلى الصلاة، فنزلت هذه الآية[1] بما فيها من الدلالة بالنهي عن الإمساك، فيكون التحسر على هذا القول لتأخر خروجه إلى الصلاة بسبب القميص.

قال الإمام أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 236، تفسير القرطبي: 10/ 251.

ويضيق على ما يشاء على ما يرى من المصلحة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿31﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿32﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿33﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿34﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي خشية الفقر والافتقار ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ كان جماعة يدفنون بناتهم خشية الفاقة ولئلا يحتاجوا إلى النفقة عليهن، وكان ذلك مستفيضاً شائعاً فيما بينهم وهي الموءودة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿8﴾﴾[2].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي إن رزقكم ورزق بناتكم على الله، وإن كان السبب يجري على أيديكم فإن الله تعالى لو لم يقوّكم على الاكتساب ولم يمكنكم من تحصيل النفقة لم تتمكنوا من تحصيلها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿31﴾﴾ أي إن دفنهم أحياء كان ذنباً عظيماً في العقوبة. يقال: خطأ الرجل يخطأ خطأ، مثل يأثم إثماً. وقرأ ابن عامر: خطئاً ـ بفتح الخاء على أنه مصدر أخطأ[3]، فيكون المعنى على هذا أن قتلهم كان على غير صواب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿32﴾﴾ الفاحشة: ما يتفاحش قبحه ويعظم، فكان الزنا قبيحاً في العقل قبل ورود السمع لأن فيه قطع

---

(1) سورة الشورى (42)، الآية: 27.
(2) سورة التكوير (81)، الآية: 8.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 370.

الأنساب وما يتعلق به من الخرابات، ويقال: حق الولد على الوالد. قال صلى الله عليه وسلم: «**في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا: فيذهب نور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء، وأما اللواتي في الآخرة: فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النار**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ بئس الزنا طريقاً لمن يسلكه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق يستحق قتلها به، وهو أن يقتل نفساً بغير حق، أو يزني وهو محصن، أو يرتد عن الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي من قتل بغير حق فقد جعلنا لوارثه حجة في كتاب الله في إيجاب القصاص من القاتل. وعن ابن عباس أنه قال: أراد بهذا السلطان للولي أن يقتل إن شاء وإن شاء أخذ الدية أو عفا. ويجوز أن يكون المراد بالسلطان: السلطان الذي له الأمر والنهي، يجب عليه أن يعين ولي القتيل حتى يطلب قاتله[2].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ السرف: أن يقتل غير القاتل كما تفعله العرب. وقيل معناه: لا يمثلوا بالقاتل في القتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ يعني ولي المقتول، حكم الله تعالى بذلك وأمر المؤمنين أن يعينوه، ويجب أيضاً على الإمام أن يدفع إليه القاتل. ويقال معناه: إن المقتول كان منصوراً بالثواب وبإيجاب القصاص لوليه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن أعتى الناس على الله ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، أو قتل بذحل في الجاهلية، أو قتل في حرم الله**».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بما يؤدي إلى حفظه وصيانته وتثميره. وإنما خص اليتيم بذلك لأن الطمع في ماله أكثر، وهو إلى الحفظ أحوج لعجزه عن حفظه بنفسه.

---

(1) ذكره أبو نعيم في: الحلية: 4/ 111 عن حذيفة رضي الله عنه.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 255.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى تكمل له ثماني عشرة سنة، وقيل معناه: حتى يبلغ وقت الحلم ويكمل عقله.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿34﴾﴾ أي أوفوا بعهد الله إليكم في أموال اليتامى وكل ما أمر الله به ونهى عنه، فهو من العهد، إن العهد كان مسؤولاً عنه للجزاء. فحذف استكفاء بدلالة الحال.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي أتموه ولا تبخسوه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ﴾ أي بميزان العدل. قرأ أهل الكوفة ـ بالقسطاس ـ بكسر القاف[1]، وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي ذلك الذي أمرتكم به خير لكم وأحسن عاقبة. والتأويل: هو الذي إليه مرجع الشيء من قولهم اليؤل.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿36﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿37﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿38﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿39﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿40﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ أي لا تقل ما ليس لك به علم. وقال قتادة: لا تقل سمعت ورأيت ولم تر، وعلمت ولم تعلم[2] والقفو في اللغة: اتباع الأثر كأنه يتبع الأثر ومنه القيافة، كان العرب يتبعون فيها آثار الآباء، ويقال: قفوت الشيء أقفوه إذا اتبعت أثره. والمعنى على هذا: لا تتبعن لسانك من القول ما ليس لك به علم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ يعني: إن المرء مسؤول يوم القيامة عما يفعله بهذه الجوارح من الاستماع لما لا يحل، والنظر إلى ما لايجوز، والإرادة لما يقبح.

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 373.

(2) تفسير القرطبي: 10/ 257.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿36﴾﴾ أي كل هذه الجوارح والأعضاء. ولم يقل تلك. قال الشاعر[1]:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ∴ والعيش بعد أولئك الأيام[2]

ويجوز أن يكون راجعاً إلى أصحابها وأربابها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي بطراً وكبراً وخيلاء والمرح: شدة الفرح ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿37﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ خطاب للمشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله منكراً عليهم. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والمعنى: أفحكم لكم ربكم بالبنين فأخلص لكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه فأخلصكم بالأجل وجعل لنفسه الأدون، ولا يكون هذا من الحكمة أن يخص الحكيم عدوه بالأشرف ويختار لنفسه الأدون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ في الكفر والفرية على الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿41﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿42﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿43﴾

(1) جرير بن عطية الخطفي. تقدمت ترجمته.

(2) هذا البيت من قصيدة ميمية لجرير هجا بها الفرزدق، تبلغ ستة وعشرين بيتاً من بحر الكامل، ومطلعها:

سرت الهموم فبتن غير نيام ∴ وأخو الهموم يروم كل مرام

والمعنى: ذم كل موضع ينزل فيه بعد هذا الموضع الذي لقيت فيه أنواع المسرة، وذم أيام الحياة التي يقضيها بعد هذه الأيام التي يقضين هناك في هناء وغبطة.

والشاهد فيه: أن أولاء يشار به إلى الجمع عاقلاً أو غير عاقل، فقد أشير به في البيت إلى الأيام وهو جمع لغير العاقل. ويروى «الأقوام» فلا شاهد فيه.

شرح المفصل: 3/ 126، شرح الرضى على الكافية: 2/ 476، الخزانة: 5/ 430، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 140.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي بينا في هذا القرآن من الأمثال والعبر ليتعظوا بها، وما يزيدهم تصريف الأمثال إلا نفوراً، أي تباعداً عن الإيمان. قرأ الأعمش وحمزة: ليذكروا ـ مخففاً[1].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿42﴾﴾ أي قل لهم: لو كان مع الله آلهة كما تقولون أنتم إذاً لطلبوا ما يقربهم إلى مالك العرش لعلوه عليهم، وكونه أفضل منهم. وهذا قول مجاهد. وذهب أكثر المفسرين إلى أن المعنى: لطلبوا مغالبته، واتبعوا طريقاً ليقهروه كفعل الملوك يطلب كل واحد منهم مغالبة صاحبه ليصفو له الملك[2]. وقرأ ابن كثير: كما يقولون ـ بالياء، على معنى: كما يقول المشركون[3].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿43﴾﴾ قرأ الأعمش والكسائي وحمزة: عما تقولون ـ بالتاء، وقرأ الباقون بالياء[4]. ومعنى الآية: تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به من الولد والشريك ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي ترفّع عما يقولون من إضافة البنات إلى الله تعالى. قوله تعالى: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تعظيماً كبيراً. ولم يقل: تعالياً، لأن المصدر قد يذكر لا على لفظ الأول كما في قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[5].

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قرأ حمزة، وأبو عمرو، والكسائي بالتاء، وقرأ غيرهم بالياء[6]. قال إبراهيم النخعي وجماعة من

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 374.
القرطبي في تفسيره: 10/ 265.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 188.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 381.
(4) الثعلبي، وابن مجاهد، في المصدرين السابقين.
(5) سورة المزمل (73)، الآية: 8.
(6) ابن مجاهد، السبعة: 381.

المفسرين: إن كل شيء يسبح بحمد الله حتى صرير الباب[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تعلمونه.

قال أبو بكر الحداد:

وقال الحسن والضحاك: يعني كل شيء فيه الروح. وقال قتادة: يعني الحيوانات. وقال عكرمة: والشجر يسبح والأسطوانة تسبح. وقيل: إن التراب يسبح ما دام يابساً، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الورق ما دام على الشجر يسبح، فإذا سقط ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً، فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الثوب يسبح ما دام جديداً، فإذا توسخ ترك التسبيح، وإن الوحش إذا صاحت سبحت، فإذا سكتت تركت التسبيح[2]. وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ كفّاً من حصى فسبح في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا[3].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي حليماً لا يعجل بعقاب الكفار، غفوراً يستر الذنوب على عباده.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿45﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿46﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿47﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿48﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿49﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿45﴾﴾ نزل في قوم من المشركين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 499.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 188.

(3) رواه الهيثمي في: مجمع الزوائد: 8/ 298.

إذا قرأ القرآن. قال الكلبي: هم أبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأم جميل امرأة أبي لهب: حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يأتونه ويمرون به ولا يؤذونه. وعن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فقال: يا رسول الله لو تنحيت عن امرأة أبي لهب لا تسمعك فإنها امرأة بذية. فقال صلى الله عليه وسلم: «**إنه سيحال بيني وبينها**». فجاءت أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر[1] وهي تقول: مذمماً أبينا ودينه قلينا، وأمره عصينا[2]. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك يا رسول الله. فقال: «**إنها لن تراني**». وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿45﴾﴾ قال: فجاءت حتى قامت عند أبي بكر ولم تر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني. فقال: لا ورب البيت ما هجاك. فاندفعت راجعة، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما رأتك؟ قال: «**لا، لم يزل ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت**»[3]. قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي ساتراً لهم عن إدراكه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي منعناهم عن تدبر كلام النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مخصوص وهو الوقت الذي أرادوا إيذاءه فيه، ففي ذلك الوقت صرفنا آذانهم عن الإستماع إليه، وطبعنا على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ يعني: إذا قلت لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن ولّوا على أدبارهم نفوراً. قال ابن عباس: كارهين أن يوحدوا الله[4]، وقال قتادة: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبر عليهم. والمعنى: انصرفوا عنك هاربين كراهة لما يسمعونه من توحيد الله تعالى.

---

(1) الفهر ـ بالكسر: الحجر ملء الكف، وقيل: هو الحجر مطلقاً.
(2) السيرة النبوية، لابن هشام: 1/ 356.
(3) تفسير القرطبي: 10/ 269.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 189.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي نحن أعلم بما يستمعون إليه من قراءة القرآن إنهم لماذا يستمعون؟ وأن قصدهم به الأذى دون الحق، فيستمعون إلى قراءتك وإذا هم ذوو نجوى في أمرك يتناجون، فيقول بعضهم: هذا كاهن، ويقول بعضهم: هذا ساحر، ويقول بعضهم: هذا مجنون، ويقول بعضهم: هذا شاعر. وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر علياً رضي الله عنه أن يتخذ طعاماً فيدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل ذلك، ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور. فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، وأنزل عليه[1]: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي أولئك المشركون: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، أي مغلوب العقل قد سحر وأزيل عن حد الاستواء.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي كيف وصفوا لك الأشباه. فشبهوك بالمجنون والكاهن والساحر، فضلوا عن الحق فلا يستطيعون مخرجاً عن الضلال إلى الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي إذا صرنا عظاماً بالية، وصرنا تراباً أئنا لنبعث بعد ذلك؟ وهذا استفهام إنكار وتعجب منهم. والرفات في اللغة: كل شيء يحطم ويكسر. قال ابن عباس: يقولون إذا ذهب اللحم والعروق وبقيت عظام قد بليت، فإذا مسسته بين يديك انسحق، أنبعث بعد ذلك؟

قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿50﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿51﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿52﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 272.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿50﴾﴾ أي قل لهم يا محمد كونوا حجارة إن قدرتم عليها، أو أشد منها، بأن تكونوا حديداً أو أقوى من الحديد، أو أي شيء استطعتموه من الخلق نحو السماوات والأرض والجبال، فإني أعيدكم لا محالة إلى ما كنتم عليه من قبل.

قوله عز وجل: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي إذا قلت لهم ذلك فسيقولون لك من يعيدنا؟ قل لهم يا محمد: يعيدكم الذي خلقكم أول مرة، لأن من قدر على البناء كان على الهدم أقدر، ومن قدر على ابتداء الشيء كان على إعادته أقدر.

قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي فسيحركون إليك رؤوسهم تعجباً لقولك. والإنغاض: تحريك الرأس بالأعلى والانخفاض على جهة الاستهزاء والاستبطاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي متى تكون الإعادة؟ قل عسى أن تكون الإعادة قريبة، وعسى من الله واجبة. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ في النفخة الثانية فتجيبون داعي الله حامدين لله تعالى. قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم يقولون سبحانك وبحمدك، ولا ينفعهم الحمد في ذلك اليوم لأنهم حمدوا حين لا ينفعهم الحمد[(1)].

قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي تظنون أنكم لم تلبثوا في الدنيا إلا قليلاً لسرعة انقلاب الدنيا إلى الآخرة كما قال الحسن: كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل[(2)]. ومن المفسرين من قال: هذه الآية خطاب للمؤمنين لأنهم يستجيبون لله بحمده على إحسانه إليهم كما قال صلى الله عليه وسلم: **«كأني بأهل لا إله إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»**.

قوله تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿53﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿54﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 276.

(2) المصدر نفسه.

عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿55﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿56﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يؤذون الصحابة رضي الله عنهم بالقول والفعل بمكة، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم. فقال: «**إني لم أومر فيهم بشيء**» وكان ذلك قبل أن يؤمر بالجهاد. والمعنى: قل للمؤمنين يقولون للكفار المقالة التي هي أحسن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الرفق، ويقولون لهم: يهديكم الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ﴾ أي يغري المشركين على المسلمين، فيوقع العداوة بينهم ويفسد بينهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي مظهراً للعداوة.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ أي بأحوالكم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن ينجيكم من كفار مكة وينصركم عليهم ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي يسلطهم عليكم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي حفيظاً وكيلاً: أي ما وكل إليك إيمانهم، إن شاء الله هداهم وإن شاء خذلهم.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خلقهم فهدى بعضهم وأضل بعضهم على علم منه بهم، لم يجبر بعض الملائكة والأنبياء لميله إليهم، وإنما اختارهم لعلمه بباطنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ قال قتادة: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، وجعل عيسى كلمته وروحه، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر[1].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني كتابه الذي أعطاه إياه، وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا فريضة، وإنما هو ثناء على الله تعالى.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 189.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ قال المفسرون: ابتلى الله كفار مكة بالقحط سنين، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، أي قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة فلا يملكون كشف البؤس والشدة عنكم ولا تحويلاً. التحويل: النقل من حال إلى حال.

قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿57﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿58﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿59﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ معناه: أولئك الذين يدعون أنهم آلهة من المسيح وعزير والملائكة يتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، ويطلبون التقرب إليه، فكيف تعبدونهم أنتم؟ والوسيلة: القربة إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي أيهم أقرب إلى الله تعالى بالوسيلة، يعني يتقربون إليه بالعمل الصالح. وعن ابن مسعود في تفسير هذه الآية أن قوماً من الأنس كانوا يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي يطلبون أن يعلموا أيهم أقرب إلى الله ويرجون رحمته، أي يريدون جنته ويخافون عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي مما يجب أن يحذر منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني بالموت

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 279.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 503.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ بعذاب الاستئصال ومعناه: وإن من قرية، أي وما من قرية. قال ابن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها[1]. وقال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب[2].

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي قضاء من الله تعالى كما يسمعون ليس منه بد، وقيل: كان ذلك في اللوح المحفوظ مكتوباً، فإنه مكتوب فيه كيف يهلكهم الله، ومتى يهلكهم، وبأي عذاب يهلكهم؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وذلك أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «**حول لنا الصفا ذهباً ونح الجبال عنا لنتفسح**». فأنزل الله هذه الآية[3]، أي إني إن حولته ذهباً فلم يؤمنوا لم أمهلهم كسنتي فيمن قبلهم. وموضع «أن» الأولى نصب بوقوع المنع عليه، وموضع «أن» الثانية رفع تقديره: وما منعنا الإرسال بالآيات إلا تكذيب الأولين بها. وهذا اللفظ، أعني لفظ المنع على طريق المجاز، لأن المنع لا يجوز على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي أخرجنا لثمود الناقة ليبصروا بها الهدى من الشقاوة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي جحدوا بها وعقروها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي العبر والدلالات إلا تخويفاً للعباد ليؤمنوا، فإن لم يفعلوا عذبوا. قال قتادة: يخوف الله الخلق بما شاء من آية لعلهم يعتبرون ويرجعون[4]. ذكر لنا أن الكوفة رجعت على عهد عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس إن الله يستعتبكم فاعتبوه[5]. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال: الموت الذريع[6].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 190.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 280.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 237.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 505.
(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 190.
(6) تفسير القرطبي: 10/ 280.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي وقد قلنا لك إن ربك أحاط بالناس علماً وقدرة، وهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته، وهو مانعك منهم وحافظك فلا تهمهم ولا تخف منهم، وامض لما أمرت به من تبليغ الرسالة. وقال مقاتل معناه: أحاط بالناس، أي أهل مكة أنها ستفتح لك[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال أكثر المفسرين: يعني ما ذكر في أول هذه السورة من الإسراء في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على معنى: أنها شدة في التكليف، كما روي أن المشركين تعظموا ذلك وكذبوه، فيكون معنى الرؤيا رؤية العين.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة إلا فتنة للناس. والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم، تقول العرب لكل طعام ضار: ملعون. سماها فتنة لأنهم قالوا: إن النار تأكل الشجرة، فكيف تنبت الشجرة في النار. وقال ابن الزبعري: ما نعلم أن الزقوم إلا التمر والزبد[2]. فهذا الكلام منهم هو فتنتهم، أي فتنوا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي نخوفهم بما نرسل بالآيات فما يزدادون إلا تجاوزاً عن الحد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قد تقدم تفسير ذلك.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 190.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 191.

قوله تعالى: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ أي قال إبليس أأسجد لآدم وهو مخلوق من طين، وهذا استفهام بمعنى الإنكار. ونصب «طيناً» على الحال. قال الله تعالى حاكياً عن إبليس ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ﴾ أي قال إبليس: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ لم كرمته عليّ؟ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين. اعتقد إبليس أن النار أكرم أصلاً من الطين.

قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ أي لأستأصلن ذريته بإغوائهم إلا قليلاً، وهم الذين عصمتهم مني. تقول العرب: قد احتنكت السنة أموالنا أي استأصلتها قال الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجحفت ∴ جهداً إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا وأجلفت[1]

واحتنك الجراد ما على الأرض، وقيل معنى: لأحتنكن، أي لأقتطعن ذريته إلى المعاصي. يقال: أحتنك فلان ما عند فلان من مال: إذا اقتطعه. وقيل معناه: لأقودن ذريته إلى المعاصي أو إلى النار، من قولهم: حنك دابته يحنكها: إذا شد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾﴾ أي فمن تبعك من ذرية آدم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً وافراً مكملاً.

قوله تعالى:

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ أي استزل واستخف

(1) أجحف به: ذهب به. تقول: حنكت الفرس إذا جعلت فيه الرسن. ومعنى: لأحتنكن: لأستولين عليهم استيلاء من جعل في حنك الدابة حبلاً يقودها به فلا تأبى عليه. جلفت الشيء: قطعته واستأصلته. والجالفة: السنة التي تذهب بأموال الناس. والسنة: الجدب. (الزجاج، معاني القرآن: 3/ 249، أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 384).

واستجهل من استطعت منهم بدعائك إلى المعصية، من قولهم: صوت بفلان إذا دعاه، ويقال: أراد بالصوت: صوت الغناء والمزامير، وهذا على وجه التهديد وإن في صورة الأمر. كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[1] وكقولهم: اجهد جهدك.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي صِحْ بخيلك ورجلك واحثثهم عليهم بالإغواء. يقال: أجلب على العدو: إذا جمع عليهم الخيول. والمعنى على هذا: اجمع عليهم كل ما تقدر من مكائدك. وقال مقاتل معناه: استعن عليهم بركاب جندك ومشاتهم[2]. والجبل والاجتلاب: هو قود الشيء وسوقه بالصوت. يقال للغنم: جلب وجلوبة، أي جلبت من موضع إلى آخر. قال الحسن: كل راكب في معصية الله فهو من خيل إبليس، وكل ماش في معصية الله فهو من رجل الشيطان. وقرأ حفص: ورجلك ـ بنصب الراء وكسر الجيم[3]. وهما لغتان، اتبع كسرة الجيم كسرة اللام. وهذا على طريق الإهانة لإبليس، لأن له خيلاً. (ورجلك) كما يقول الرجل لغيره: اجمع خيلك، ورجلك وما أمكنك.

قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ شركته في الأموال: أن يجعلوا شيئاً من أموالهم لغير الله كما جعلوا من الحرث والأنعام، وشركته في الأولاد: أن سموا أولادهم: عبد يغوث، وعبد شمس، وعبد الحرث.. وقال بعضهم: شركته في أولادهم: أولاد الزنا. كذا قال مجاهد والضحاك. ويقال: شركته في الأموال: كل مال أخذ من حرام وأنفق في حرام، وشركته في الأولاد: الذي يهوده أبواه وينصرانه ويمجسانه[4].

قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي مَنِّهم بما شئت من الغرور من طول الحياة، والتشكيك في البعث، وما يكون من مواعيد الشيطان ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي تزييناً باطلاً.

---

(1) سورة فصلت (41)، الآية: 40.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 191.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 382.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 507.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿65﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿66﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿67﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ إلا في الوسوسة، فأما أن يمنعهم عن الطاعة، ويحملهم على المعصية فلا. وقيل معناه: إن أوليائي ليس لك عليهم حجة.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً لأوليائه يعصمهم عن القبول من إبليس، لأن الوكيل بالشيء يكون حافظاً له. ثم ذكر سبحانه نعمه على عباده، فقال: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي ربكم الذي يسوق إليكم ويجري لكم السفن في البحر لتطلبوا ما يكون مصلحة لكم في دنياكم وآخرتكم من التجارة وغيرها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حين ينعم عليكم بهذه النعم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي الشدة في البحر عند عصف الرياح وترادف الأمواج، وخفتم الغرق، ضل من تدعون من الأصنام عن تخليصكم، أي بطل وزال ولا ترجون النجاة إلا من الله. قال ابن عباس معناه: إذا مسكم الضر في البحر نسيتم الأنداد والشركاء وتركتموهم وأخلصتم لله، فلما أجاب دعاءكم ونجاكم من البحر وأخرجكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والطاعة لله، ورجعتم إلى ما كنتم عليه[1] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لنعم الله تعالى. وأراد الإنسان الكافر.

قوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 192.

وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ معناه: أفأمنتم بعد ذلك أن يخسف بكم الأرض كما فعل بقارون ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي حجارة تمطر عليكم من السماء كما أمطرت على قوم لوط. وقال القتيبي: الحاصب: الريح التي ترمي بالحصباء وهي الحصى الصغار. يقال: حصبه بالحجارة: إذا رماه بها متتابعاً[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً يحفظكم من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي أمنتم أن يعيدكم الله في البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح أي ريحاً شديدة تقصف الفلك. قال أبو عبيدة: القاصف هي الريح التي تقصف كل شيء، أي تدقه وتحطمه[2]. وقال القتيبي: هي التي تقصف الشجر[3].

قوله تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي بكفركم.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ
فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي فضلناهم بالنطق والعقل والتمييز، وعاملناهم معاملة الإكرام بالنعمة، وجعلناهم يهتدون إلى معايشهم.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 292.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 387.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 509.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي في البر على الدواب، وفي البحر على السفن.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والزبد والتمر والحلوى والعسل[1].

قوله عز وجل: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي فضلناهم على كثير من حيوانات البر والبحر، ومن تفضيلهم أنهم يأكلون بالأيدي، وغيرهم من الحيوانات يأكلون بالأفواه. ويقال: إن ابن آدم يمشي منتصباً قائماً، وسائر الحيوانات تمشي منكبة. ولم يقل في الآية: على كل من خلقنا، لأن الله فضل الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[2]. ولكن ابن آدم مفضل على سائر الحيوانات وقال عطاء في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بتعديل القامة وامتدادها[3]. وقال محمد بن كعب: بأن جعل الله محمداً صلى الله عليه وسلم منهم[4]، وقيل: تحسين الصورة، وقيل: الرجال باللحاء والنساء بالذوائب، وقيل: بتسليطهم على غيرهم من الخلائق وتسخير الخلائق لهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية قال: «**الكرامة: الأكل بالأصابع**»[5].

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني الثمار والحبوب وكل طعام لين، ورزق الدواب التبن والحشيش والشوك.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ يعني يوم القيامة، وهو منصوب على معنى: واذكر يوم ندعو كل أناس بإمامهم أي بنبيهم، فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم، هاتوا متبعي موسى، هاتوا متبعي عيسى، هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم. فيقومون ويأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يقال: هاتوا متبعي الشيطان،

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 509.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 172.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 510.
(4) تفسير القرطبي: 10/ 294.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 324.

هاتوا متبعي رؤساء الضلالة، هاتوا متبعي الطاغوت. فيقومون ويعطون كتبهم بشمائلهم، ويقال: يدعى كل إنسان بعمله، فيقال: أين صاحب هذا الكتاب؟ أين فلان بن فلان المصلي؟ وأين فلان بن فلان الصوام؟ إلى أن ينادي بالعازف والدفاف، والرقاص، فيدعى كل إنسان بعمله.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي من أعطي كتابه الذي فيه ثواب عمله بيمينه فأولئك يفرحون ويسرون بما يقرءون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا ينقصون من ثواب أعمالهم مقدار الفتيل، وهو القشرة التي في شق النواة، ويقال: هو الوسخ الذي تفتله بين أصابعك.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي من كان في هذه الدنيا التي هو مشاهد لها أعمى عن الحجة لا يتفكر بقلبه في ملكوت السماوات والأرض فهو في الآخرة التي هي غائبة عنه أشد عمى وأخطأ طريقاً، ويقال معناه: من كان في الدنيا ضالاً عن الحق فهو في الآخرة أشد تحيراً وذهاباً عن طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ وذلك أن ثقيفاً أرسلوا وفدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة فقالوا: يا محمد نحن أخوالك وأصهارك وجيرانك وخير أهل نجد لك سلماً وأضرهم عليك حرباً، إن سالمنا سالم من بعدنا، وإن حاربنا حارب من بعدنا. فقال صلى الله عليه وسلم: «**وماذا تريدون؟**» قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال: أن لا ننحني - يعنون في الصلاة - وأن لا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا بالأصنام سنة. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا خير في دين لا صلاة فيه ولا ركوع ولا سجود، وأما قولكم على أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم ونحن نبعث لها من يكسرها، وأما الأصنام فإني غير ممتعكم بها**». فقالوا: يا رسول الله فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا، فإن خفت أن تقول العرب: أعطيتهم ما

لم تعطنا. فقل: الله تعالى أمرني بذلك. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل لا، رجاء أن يسلموا، فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: قد كادوا يفتنونك، أي يصرفونك عن الذي أمرناك من كسر آلهتهم، وعيب دينهم لتقول علينا غير الذي أمرناك به، ولو فعلت ما أرادوه لاتخذوك خليلاً، أي صفياً لمتابعتك إياهم.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿74﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿75﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿76﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿77﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿74﴾﴾ أي لقد كدت تميل إليهم. قال ابن عباس يعني: حين سكت عن جوابهم.

قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي إنك لو ملت إليهم لأذقناك ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة: يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به غيره. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي مانعاً يمنعنا من تعذيبك. قال ابن عباس: ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم، ولكن هذا تخويف لأمته لئلا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه[2]. فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أدنى من ذلك**»[3]. وذهب السدي في هذه الآيات إلى أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك ترفض آلهتنا كل الرفض فلو أنك تأتيها وتلمسها وتمسحها أو تبعث بعض ولدك فيمسحها كان أرق لقلوبنا وأحرى أن نتبعك. فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث بعض ولده فيمسحها، فنهاه الله عن ذلك.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 238، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 512.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 300.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 512.

ويقال: إنهم قالوا: اطرد عنك سقاط الناس ومواليهم وهؤلاء الذين رائحتهم كرائحة الضأن حتى نتبعك. فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل رجاء أن يسلموا، فأنزل الله هذه الآيات[1].

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة حسدته اليهود فقالوا: يا محمد أنبي أنت؟ قال: «**نعم**». فقالوا له: والله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء، وإن أرض الأنبياء الشام كان بها إبراهيم وعيسى، فإن كنت نبياً فأت الشام فإن الله سيمنعك بها من الروم إن كنت رسوله، وهي الأرض المقدسة وأرض المحشر. فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى الشام، فنزل جبريل بهذه الآية[2].

قال أبو بكر الحداد:

ومعناها: وقد كادوا يستفزونك من أرض المدينة ليخرجوك منها إلى الشام، وإذاً لو أخرجوك لا يلبثون خلفك إلا قليلاً، أي إلا مدة يسيرة حتى يهلكهم الله. ومن قرأ: خلافك[3]، فمعناه: في مخالفتك.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدر، أي أتسن بهم سنة من قد أرسلنا، فإن سنة الله قد خرجت فيمن قبلك من الرسل بأن أممهم إذا أخرجوهم من مواضعهم لم يلبثوا إلا قليلاً. والسنة: هي العادة الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي لا يقدر أحد على تحويل السنة التي أجراها الله. وقال مجاهد وقتادة: همّ أهل مكة بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حين تشاوروا فيما بينهم، ولو فعلوا لما أمهلوا، ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره الله، ولقل ما لبثوا بعد خروج رسول الله صلى

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 3/ 512.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 193.

(3) ابن مجاهد، السبعة: 384.

الله عليه وسلم من مكة حتى أهلكهم الله يوم بدر. غير أن التأويل الأول أصح[1].

قوله تعالى:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا ﴿78﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿79﴾
وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا
﴿80﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿81﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ
شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿82﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه معناه: أقم الصلاة لغروب الشمس. والصلاة المأمور بها على هذا هي المفروضة. والغسق: بدو الليل. وعن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه مثل قول ابن مسعود، وفي الرواية الثانية وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة: أن دلوكها زوالها. والصلاة المأمور بها على هذا هي: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. فالغسق على هذا القول: هو اجتماع ظلمة الليل[2].

قوله عز وجل: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وأقم قرآن الفجر في صلاة الفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل، وملائكة النهار يصلونها مع المسلمين. وإنما سميت صلاة الفجر قرآناً لأن القرآن فيها أطول، ولأن القراءة فريضة في الركعتين جميعاً. وفي هذا بيان أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال ابن عباس: فصلِّ بالقرآن. والتهجد: هو التيقظ بعد النوم. يقال: هجد: إذا نام، وتهجد: إذا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 193.

(2) قال البغوي في معالم التنزيل: 3/ 515، الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، دلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر، وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء، وقرآن الفجر: هو صلاة الصبح.

استيقظ. والمعنى: أقم الصلاة بالليل بعد التيقظ من النوم، ويقال: المتهجد للقائم إلى الصلاة من النوم، وقيل له متهجد: لإلقائه الهجود عن نفسه.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي تطوعاً، وقيل: فضيلة لك. والنافلة في اللغة: ما كان زيادة على الأصل، وصلاة الليل كانت زيادة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات لا كفارات فإنه عليه السلام قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وليست لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا، وإنما هي كفارة لغير النبي صلى الله عليه وسلم. هكذا قال مجاهد[1]. وقد روي ما يدل على أنها نافلة لغير النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الوضوء يكفِّر ما قبله ويصيِّر الصلاة نافلة**». قيل له: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي المقام الذي تحمد عاقبته، وهو المقام الذي يعطيه الله النبي صلى الله عليه وسلم، فيه ألوان الحمد تجتمع تحته الملائكة والأنبياء، فيكون صلى الله عليه وسلم أول شافع وأول مشفع. قال ابن عباس: وعسى من الله واجبة. ويعني بقوله: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي يعطيك الله يوم القيامة مقاماً يحمدك فيه الأولون والآخرون تشرف به على جميع الخلائق. والمقام المحمود: مقام الشفاعة. ومعنى يبعثك: يقيمك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وقيل: أدخلني فيما أمرتني به وأخرجني مما نهيتني عنه، وقيل: أدخلني مدخل صدق في جميع الأمور، وأخرجني مخرج صدق من جميع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي واجعل لي من عندك قوة

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 196.

أمتنع بها عمن عاداني، وقيل: حجة أتقوى بها على إبطال سائر الأديان الباطلة. وعن محمد بن المنكدر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الغار: «**رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق**»[1]. وقال الضحاك معناه: أخرجني مخرج صدق من مكة آمناً من المشركين، وأدخلني مكة مدخل صدق ظاهراً عليها بالفتح. وقال عطية عن ابن عباس: أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت، وأخرجني مخرج صدق عند البعث[2]. وقيل المعنى: أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق، وأخرجني منه بالصدق، أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه آخر، فإن ذا الوجهين لا يكون أميناً عند الله.

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ معنى الحق هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الشرائع والإسلام وما جاء به القرآن. وقال السدي: الحق: الإسلام، والباطل: الشرك. ومعنى زهق: بطل واضمحل. قال ابن مسعود وابن عباس: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنها بمخصرة[3] في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا[4]. فكان الصنم ينكب لوجهه وأهل مكة يتعجبون فيما بينهم ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شفاء للمسلمين في الدنيا والآخرة يتبركون بقراءته على أنفسهم، ويستعينون به على رفع الأسقام والبلايا، وقيل: هو شفاء للقلوب يزول به الجهل منها كما يشفى المريض.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نعمة من الله عليهم. وكون القرآن شفاء،

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 196.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 313.
(3) ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو قضيب، وقد يتكىء عليه.
(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 12/ 133، فتح مكة، والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 573، رقم: 5146.

أي يزيل عماء الجهل وحيرة الشك، فهو شفاء من داء الجهل. وقال ابن عباس: يريد شفاء من كل داء. ويؤكد هذا ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيد الكفار عند نزول القرآن إلا خساراً لأنهم لا ينتفعون به.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿83﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿84﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي إذا أنعمنا عليه بكشف الضر وتبديل البؤس أعرض عن شكره وتباعد عن ذلك بنفسه. قوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي تعظم وتكبر وبعد نفسه عن القيام بحقوق المنعم. قال ابن عباس: يريد بالإنسان: الوليد بن المغيرة[2].

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿83﴾﴾ أي إذا أصابته شدة كان قنوطاً من رجاء الفرج من الله تعالى بفضل الله تعالى على عباده، فيطمع في كشف تلك البلية من جهته. وهذه صفة الكافر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على طبعه الذي جبل عليه، وقيل: على عادته التي ألفها. وفي هذا تحذير عن إلف الفساد والسكون إليه، وقيل: على نيته، وقيل: على ظرفيته التي تشاكل أخلاقه.

قوله عز وجل: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي إن الله يعلم أي الفريقين على الهدى، وأيهما على الضلالة من المؤمنين والكفار.

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ

---

(1) الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة: 1/ 285.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 321.

إِلَّا قَلِيلًا ﴿85﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿86﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿87﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ اختلفوا في الذي سألوا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، قال بعضهم: سألوه عن القرآن، وقد سماه الله تعالى روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1].

قال أبو بكر الحداد:

وعن علي رضي الله عنه: إن الروح ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكل لسان من هذه الألسنة، فسألوه عن ذلك الملك[2]. وعن عبد الله بن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، ثم أتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم: ما تقول في الروح؟ فسكت ثم قام فأسند بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه وحي[3]، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية.. وعن ابن عباس أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش: سلوا محمداً عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي، سلوه عن فتية مضوا في الزمان، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، وسلوه عن الروح. فسألوه عن ذلك، فأنزل الله تعالى[4] في الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾[5] إلى آخر القصة، وأنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ﴾[6] الآية.. وأنزل في الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية.. وإنما سأله اليهود عن الروح لأنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره وليس فيها إلا ذكر اسمه الروح. وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع

(1) سورة الشورى (42)، الآية: 52.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 525.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 239، تفسير القرطبي: 10/ 323.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 197.
(5) سورة الكهف (18)، الآية: 9.
(6) نفس السورة، الآية: 83.

ومن فيهما بلقمة فعل، صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على وجه الآدميين، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترقت السموات من نوره[1]. ويقال: أراد بالروح روح الحيوان وهو ظاهر الكلام، وفي روح الحيوان خلاف بين العلماء ما هو؟ وكل حيوان فهو روح وبدن، وروح الحيوان جسم رقيق على بنية حيوانية في كل جزء منها حياة.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا ربي. وإنما لم يجبهم عن ذلك لأن اليهود هم الذين سألوه عن الروح، وكان في كتابهم أنه إن أجابهم عن الروح فليس بنبي، ولم يجبهم تصديقاً لما في كتابهم، وكانت المصلحة في هذا أن لا يعرفهم الروح من جهة النص، بل وكلهم في تعريفه إلى ما في عقولهم لما في ذلك من الرياضة باستخراج الفائدة. وقال بعضهم: الروح: الدم. ألا ترى أن من نزف دمه مات. والميت لا يفقد من جسمه إلا الدم. وزعم قوم أن الروح: هو استنشاق الهوى. ألا ترى أن المخنوق ومن منع استنشاق (شم) الهوى يموت. وقال بعض الحكماء: إن الله تعالى خلق الروح من ستة أشياء: من جوهر النور، والطيب، والبقاء، والحياء، والعلم، والعلو. ألا ترى أنه ما دام في الجسد كان الجسد نورانياً تبصر العينان، وتسمع الأذنان، ويكون طيباً، فإذا خرج أنتن الجسد، ويكون عالماً باقياً، فإذا زايله الروح صار فانياً، ويكون حياً، وبخروجه يكون ميتاً، ويكون عالماً، فإذا خرج منه الروح صار غير عالم بشيء، ويكون الجسد علوياً لطيفاً ما دام فيه الروح، فإذا خرج منه صار سفلياً كثيفاً. والاختيار من هذه الأقوال: أنه جسم لطيف توجد به الحياة، بدليل قوله تعالى في صفة الشهداء ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[2]. والأرزاق والفرح من صفات الأجسام، والمراد بهذه أرواحهم، لأن أجسادهم بليت في التراب، وكذلك قوله

---

(1) الثعلبي في المصدر السابق.
ـ معالم التنزيل: 3/ 526.

(2) سورة آل عمران (3)، الآيتان: 169 ـ 170.

صلى الله عليه وسلم: «**إن أرواح الشهداء تعلق في شجرة من الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش**»[1]. وهذا لا يكون إلا في جسم، ولا يتأتى ذلك في الأعراض. كما زعمت المعتزلة والنجارية: إن الروح عرض وهو مردود بما ذكرنا. وعن ابن عباس: أن الروح إذا خرجت مات الجسد وصار الروح صورة أخرى لا تطيق الكلام، لأن الجسد جرم والروح يصوت من جوفه ويتكلم، فإذا فارق الروح الجسد صار الجسد صفراً، وصار الروح صورة أخرى ينظر إليه الناس بتكونه ويغسلونه ويدفنونه، ولا يستطيع أن يتكلم، كما أن الروح إذا دخل في مكان ضيق سمعت له دوياً، فإذا خرج منه لم يسمع له صوت، وكذلك المزامير. فأرواح المؤمنين ينظرون إلى الجنة ويجدون رائحتها، وأرواح الكفار يعذبون في قبورهم. وهذا الذي ذكرناه كله في تفسير الروح عند التحقيق ضرب من التكلف، لأن الله سحبانه أبهم علم ذلك. قال عبد الله بن بريدة:[2] ما يبلغ الجن والإنس والملائكة والشياطين علم الروح، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدري ما الروح، ولم يخبر الله أحداً من خلقه به، ولم يعط علمه أحداً من عباده[3] فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من علم ربي وإنكم لا تعلمونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أعطيتم من العلم المنصوص عليه إلا قليلاً من كثير بحسب حاجتكم إليه، فالروح من المتروك الذي لا يصلح النص عليه لأمور من الحكمة تقتضي تركه. والخطاب لليهود، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على اليهود قالوا: أوتينا التوراة وفيها الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4]. فأعلمهم الله أن علم التوراة قليل في علم الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 361، رقم: 4098، والدارمي في سننه: 2/ 206، باب أرواح الشهداء.

(2) أبو سهل، عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، ولد لثلاث سنين خلون من خلافة عمر، وقد روى عن أبيه وعن عبد الله بن عمر، توفي سنة خمس عشرة ومائة.
الطبقات الكبرى: 7/ 165، تذكرة الحفاظ: 1/ 102.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 526.

(4) سورة البقرة (2)، الآية: 269.

فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي لو شئنا لمحونا القرآن من القلوب والكتب وأنسينا ذكره كيلا يوجد له أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ يتوكل عليه في رد شيء منه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن لا يشاء ذلك رحمة من ربك، فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث اختارك للنبوة، واصطفاك للرسالة، وخصك بالوحي والقرآن، وجعلك سيد ولد آدم، وختم بك النبيئين، وأعطاك المقام المحمود. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج وهو معصوب الرأس من وجع، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أيها الناس، ما هذه الكتب التي تكتبون، أكتاب غير كتاب الله؟ يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقاً ولا قلباً إلا أخذه منه**». قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذٍ؟ قال: «**من أراد به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله**»[2]. وعن عبد الله بن مسعود قال: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، وليصلين أقوام لا دين لهم[3]، وإن هذا القرآن لتصبحن يوماً وما في قلبكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ وقد أيقناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا وأبناء أبنائنا إلى يوم القيامة. قال: يسرى به في ليلة فيذهب ما في المصاحف وما في القلوب. وقرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. وعن عبد الله قال: أكثروا الطواف بالبيت قبل أن يرفع ويبني الناس مكانه وأكثروا من تلاوة القرآن قبل أن يرفع. فقيل: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور

---

(1) سورة لقمان (31)، الآية: 27.

(2) ذكره الثعلبي بسنده عن ابن عمر في تفسيره، ورقة: 197.

(3) رواه البيهقي في الشعب: 4/ 325، رقم: 5273، باب في الأمانات.

الرجال؟ قال: يسرى عليه ليلاً فيصبحوا منه فقراء وينسون قول لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم[1]. وعن عبد الله بن عمر قال: لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل به، له دوي كدوي النحل، فيقول الرب عز وجل: ما بالك؟ فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أتلى ولا يعمل بي[2].

قوله تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ تكذيب للنضر بن الحارث حين قال: لو شئنا لقلنا مثل هذا[3]. والمعنى: قل لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله في حسن النظم وجودة اللفظ، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة لا يأتون بمثله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي أعواناً. وأما رفع ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ فلأن جواب القسم غالب على جواب «إن» لوقوعه في صدر الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من التخويف والترغيب، فامتنع أكثرهم ـ أي أهل مكة ـ إلا جحوداً وإنكاراً للحق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 326.
(2) المصدر نفسه.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 527.

وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿93﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿90﴾﴾ روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان، والنضر بن الحارث، وأبا البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وغيرهم.. اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه. فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاء إليهم النبي صلى الله عليه وسلم سريعاً يظن أنه بدا لهم في أمره شيء، فجلس إليهم فقالوا: يا محمد والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما جئت تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كان هذا الذي بك تابعاً من الجن بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه. فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما بي ما تقولون، ما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم، ولكن الله تعالى بعثني رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر إلى أمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**». فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقل مالاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك إلينا أن يسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا ويجري لنا فيها أنهاراً كأرض الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت لنا ما سألناك صدقناك وعرفنا بذلك منزلتك عند الله أنه بعثك رسولاً كما تقول[1].

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 240 ـ 241، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 528.

فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به**». قالوا: فإن لم تفعل هذا فاسأل ربك يبعث ملكاً يصدقك عما نرى بك فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش. فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما أنا بالذي يسأل الله هذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً**». قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن الله ما شاء فعل. فقال صلى الله عليه وسلم: «**ذلك إلى الله، إن شاء فعله بكم**». فقالوا: قد أعذرنا إليك يا محمد، والله ما نتركك وما بلغت منا حتى يهلكك أو يهلكنا. وقال مقاتل: لن نؤمن بك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا هذا قام النبي صلى الله عليه وسلم فقام معه عبد الله بن أبي أمية المخزومي ـ وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل منهم، ثم سألوك أموراً لأنفسهم ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل لهم ما خوفتهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تلج بابها وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك نبي كما تقول: وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله حزيناً لما ناله من سفاهة قومه وتباعدهم من الله[1]. فقال أبو جهل حين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى إلى ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلس له بحجر غداً قدر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضخت رأسه به. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿90﴾﴾ قرأ أهل الكوفة: تفجر ـ مخففة بفتح التاء وضم الجيم، واختاره أبو حاتم، لأن الينبوع واحد، وقرأ الباقون بالتشديد[2]، ولم يختلفوا في الثاني أنه مشدد لأجل الأنهار لأنها جمع، وذلك أنهم لما عجزوا عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن وانقطعت حجتهم، جعلوا يقترحون من الآيات ما ليس لهم مع

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 242، المحرر الوجيز: 10/ 345 ـ 346.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 382.

أن الذي أتاهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن وانشقاق القمر وغير ذلك من دلائل النبوة كان أبلغ في الدلالة مما اقترحوه من تفجير الينبوع وغير ذلك. والينبوع: عين تفور بالماء. وأراد بقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي بساتين من نخيل وعنب، فتشقق الأنهار في وسط ذلك البستان تشقيقاً.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ من قرأ بسكون السين ـ أي قطعاً ـ جمع التكثير كسدرة وسدر، وقيل أراد جانباً، ومن قرأ: كسفاً ـ بفتح السين، فهو جمع القليل، أي جمع كسفة[1]. يقال: أعطني كسفة من هذا الثوب، أي قطعة منه. والكسوف: هو انقطاع النور.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ قال قتادة والضحاك: عياناً[2]: تأتي بهم حتى نراهم مقابلة ونشاهدهم ويشهدون على صدق دعواك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب. والزخرف في الأصل: هو الزينة، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[3] أي زينتها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه: أو تصعد ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نصدقك مع ذلك حتى تأتينا بكتاب من الله نقرؤه أنك رسول من الله إلينا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ أي قل لهم يا محمد: تنزيهاً لربي عن المقابلة التي وصفتم، فإن العارف بالله يعلم أنه لا تجوز المقابلة على الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي ما كنت إلا بشراً رسولاً كسائر الرسل، فلا أقدر على الإتيان بالآيات المقترحة كما لم يقدر عليها من كان

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 382 ـ 383.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 198.

(3) سورة يونس (10)، الآية: 24.

قبلي من الأنبياء. قرأ ابن مسعود: أو يكون لك بيت من ذهب. قال مجاهد: كنت لا أدري ما الزخرف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ قرأ أهل مكة والشام: قال سبحان ربي[2]، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (94) قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (96) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (97)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (94)﴾ أي ما صرف الناس عن الإيمان إذ جاءهم الهدى إلا شبهة أدخلوها على أنفسهم وهي قولهم: أبعث الله بشراً رسولاً. وهذه شبهة ضعيفة وتعجب منهم في غير موضع التعجب، ومرادهم هذا بعثه الله ملكاً رسولاً. فأجابهم الله بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي لو كان في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم مقيمين في الأرض كما أنتم مقيمون فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكاً من جنسهم رسولاً كما أرسلنا إليكم بشراً من جنسكم رسولاً، لأن الملك إنما يبعث إلى الملائكة.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ إني رسوله إليكم، فإن الله يشهد لي بالنبوة في القرآن وأنتم تنكرون نبوتي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ بأحوالكم.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 331.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 385.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يوفقه الله لدينه بالطاعة فهو المهتدي، ومن يضلل، أي من يخذلهم عن دينه فلن تجد لهم أولياء يهدونهم من دون الله.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ عما يسرهم، بكماً عما ينفعهم، صماً عما يمنعهم. وقيل: يحشرون في أول الحشر عمياً وبكماً وصماً على هذه الصفة، ثم تزول هذه الصفات عنهم فيرون ويتكلمون ويسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[1]، وقال: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[2]، وقال: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[3]. ويقال: إنه لم يرد بالحشر في هذه الآية الحشر من القبر، وإنما أراد به الحشر عن موضع المحاسبة، فإنهم يسحبون من ذلك الموضع على وجوههم على هذه الصفات. وعن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «**إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه**»[4]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم**». قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك**»[5].

قوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم إليها.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي كلما سكن لهيبها من جانب ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ اشتعالاً من جانب آخر. يقال للنار إذا سكن لهيبها: خمدت، فإذا طفئت ولم يكن فيها شيء من النار قيل: همدت. وقال ابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾: أي سكنت. وقال مجاهد: طفئت. وقال قتادة: لانت وضعفت[6].

---

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 53.
(2) سورة الفرقان (25)، الآية: 12.
(3) نفس السورة، الآية: 13.
(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 149.
(5) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 578، رقم: 5150.
(6) ذكر البغوي هذه الأقوال في: معالم التنزيل: 3/ 532.

قوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي وقوداً. ثم بيّن الله تعالى لماذا يزادون سعيراً فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (100)﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بدلائلنا وإنكارهم للبعث، وهو قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)﴾ والمعنى: أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض في عظمهما وشدتهما وقوتهما قادر على أن يخلق مثلهم في صغرهم وصفتهم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(2) ولأن من قدر على خلق الأكبر علم أنه قادر على خلق الأصغر، فإذا قدر على خلق أمثالهم قدر على إعادتهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لإعادتهم وقتاً لا شك فيه أنه كائن، فأبى الظالمون إلا جحوداً مع وضوح الدلالة والحجج.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾ جواب لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ المعنى: لو أنتم تملكون مقدرات رحمة ربي إذاً لأمسكتم لأنفسكم مخافة أن يفنى بالإنفاق ولا يبقى لكم.

---

(1) سورة النازعات (79)، الآية: 27.

(2) سورة غافر (40)، الآية: 57.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أي وكان الكافر ممسكاً بخيلاً. قوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ أي خشية الفقر والفاقة، وقيل: خشية أن ينفقوا فيفترقوا.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿101﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿102﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿103﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿104﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ﴾ أي تسع دلالات واضحات. قال ابن عباس: هي العصا واللسان، فإنه كان في لسانه عقدة فرفعها الله كما قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿27﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿28﴾﴾[1] والبحر واليد، والآيات الخمس هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم[2]. وقال محمد بن كعب: هذه الخمسة والعصا واللسان وانفجار الماء من الحجر والطمس[3]، كما قال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[4] وقيل: هذه الخمسة والعصا ويده والسنون ونقص من الثمرات. قال محمد بن كعب في الطمس: كان الرجل منهم مع أهله في فراشه وإذا قد صارا حجرين، وإن المرأة لقائمة تخبز وقد صارت حجراً، وإن المرأة في الحمام وإنها لحجر، وكانت تنقلب الفواكه والفلوس والدراهم والدنانير أحجاراً[5].

قال أبو بكر الحداد:

روي أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي. فأتياه فسألاه عن

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 27 ـ 28.
(2) تفسير القرطبي: 10/ 336.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة يونس (10)، الآية: 88.
(5) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 533.

هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ قال: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفروا من الزحف. وعليكم خاصة يا يهود أن لا تعدوا في السبت. فقبلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي[1].

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يقع له العلم من عند الله، فكان لا يحتاج في معرفة ذلك إلى الرجوع إلى أهل الكتاب، فكأنه تعالى قال: فاسأل أيها السامع وأيها الشاك بني إسرائيل إذ جاءهم موسى بالبينات. قال ابن عباس: فاسأل بني إسرائيل بمعنى المؤمنين من بني قريظة والنضير[2].

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سحرت، فلذلك تدعي النبوة، وقيل: هذا مفعول بمعنى فاعل، كأنه قال: إني لأظنك يا ساحراً. وقيل: المسحور المخادع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون أن هذه الآيات لا تدخل في مقدور العباد، فلم ينزلها إلا رب السموات والأرض ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي حججاً للناس يبصرون بها في أمر دينهم، وإني لأعلم يا فرعون أنك هالك. يقال: ثبر الرجل فهو مثبور: أي هالك. والظن قد يرد بمعنى اليقين على ما تقدم. وقرأ الكسائي: لقد علمت ـ بضم التاء، وهي قراءة علي كرم الله وجهه وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم. فبلغ ذلك ابن عباس فقال: إنها: لقد علمت[3]، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 580، رقم: 5158، تفسير سورة بني إسرائيل، والنسائي في سننه: 7/ 102، باب السحر.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 199.

(3) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 383.

﴿وَعُلُوًّا﴾[1]، وقراءة النصب أصح وأشهر، وليست قراءة الضم مشهورة عن علي رضي الله عنه ولا ثابتة، وإنما رواها رجل مجهول لا يعرف[2] ولا يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائي[3].

قوله تعالى: ﴿مَثْبُورًا﴾ قال ابن عباس: مغلوباً، وقال مجاهد: هالكاً، وقيل: مخبولاً لا عقل له، وقيل: بعيداً من الخيرات، وقيل: سلاَّحاً في القطيفة[4]. قال مجاهد: دخل موسى على فرعون وعليه قطيفة، فألقى عصاه فرأى فرعون ثعباناً وأحدث في القطيفة[5]. وروى أبو سعيد الجوهري قال: كنت قائماً على رأس المأمون وهو يناظر رجلاً وهو يقول: يا مثبور. ثمّ أقبل عليّ فقال: ما معنى يا مثبور؟ قلت: لا أدري. قال: حدثني الرشيد قال: حدثني المهدي قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين المنصور، فسمعته يقول لرجل يا مثبور، فقلت: ما معنى يا مثبور؟ قال: قال ميمون[6]: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: ناقص العقل[7].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي فأراد فرعون أن يزعج بني إسرائيل ويخرجهم من أرض مصر قهراً. والاستفزاز: هو الخوف بالشدة، ويجوز أن يكون المراد به: قصد قتلهم. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾ أي أمرنا موسى وقومه بالخروج من مصر، فتبعه فرعون وقومه، فجعلنا في الماء طريقاً يبساً، فجاوز موسى وقومه البحر، فتبعهم فرعون وقومه، فأطبقنا الماء عليهم حتى غرقوا كلهم، وقلنا من بعد هلاك فرعون لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض أرض الشام

---

(1) سورة النمل (27)، الآية: 14.

(2) هو: كلثوم المرادي.

(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 131.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 534.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 199.

(6) أبو أيوب، ميمون بن مهران الرقي: الإمام القدوة، عالم أهل الجزيرة، روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما، وحدث عنه سالم بن أبي المهاجر الأوزاعي، استعمله عمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة وقضائها. توفي سنة سبع عشرة ومائة.
تذكرة الحفاظ: 1/ 98، الطبقات الكبرى: 7/ 332.

(7) تفسير الثعلبي، ورقة: 200.

وأرض مصر، وأورث بني إسرائيل مساكنهم وديارهم. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه يفعل به وبالمشركين ما فعل بموسى وعدوه. فأظهر الله النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين ورده إلى مكة ظافراً بها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ يعني القيامة جئنا بكم جميعاً، أي أتينا بكم من كل قبيلة. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى، وقيل: جئنا بكم مختلطين لا تتعارفون. والمعنى: جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطاً، يعني جميع الخلق المسلم والكافر، والبر والفاجر.

قوله تعالى:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يعني القرآن. ويجوز أن تكون الهاء كناية عن جبريل، فإن الله تعالى أنزله بالقرآن ونزل هو به.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً لمن أطاع بالجنة، ومخوفاً بالنار للكفار.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ معناه: وأنزلنا قرآناً فرقناه شيئاً بعد شيء، فإنه كان ينزل منه شيء ثم يمكثون ما شاء الله، ثم ينزل منه شيء آخر، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

قوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على تثبت وتوقف لتفهموه بالتأمل، وتعملوا بما فيه بالتفكر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي تأكيداً لإنزاله مرة بعد مرة لعظم شأنه.

---

(1) سورة المزمل (73)، الآية: 4.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة: آمنوا بالقرآن أو لا تؤمنوا. فهذا وعيد لهم، أي إن آمنتم وإن لم تؤمنوا فالله غني عنكم وعن إيمانكم، وإيمانكم لا ينفع غيركم وكفركم لا يضر سواكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل نزول القرآن، والمراد به مؤمنو أهل الكتاب: إذا يتلى عليهم القرآن يخرون، أي يقعون على وجوههم سجداً لله. والمراد بالأذقان: الوجوه. كذا قال ابن عباس[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿108﴾﴾ أي يقولون في سجودهم: تنزيهاً لله عما لا يليق به، وقد كان وعد ربنا كائناً لا محالة. وهؤلاء الذين سجدوا كانوا يسمعون أن الله يبعث نبياً من العرب، وينزل عليه كتاباً. فلما سمعوا القرآن سجدوا لله وحمدوه على إنجاز الوعد ببعث الرسول والكتاب وقالوا: قد كان وعد ربنا مفعولاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي يسقطون على الوجوه يبكون في السجود، ويزيدهم البكاء في السجود خشوعاً إلى خشوعهم لأن مخافتهم لله داعية إلى طاعته والإخلاص في عبادته. وفي الآية دليل على أن البكاء في الصلاة من خوف الله لا يقطع الصلاة، لأن الله مدحهم عليه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يصلي فيسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[2] من البكاء[3]. وعن عبد الله بن شداد[4] قال: كنت أصلي خلف عمر رضي الله

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 200.

(2) المرجل: الإناء الذي يغلى فيه الماء.
(ابن الأثير، النهاية، باب: مرجل).

(3) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 3/ 172ا890، باب البكاء في الصلاة.

(4) عبد الله بن شداد بن أسامة بن عمرو بن ليث، وأمه: سلمى بنت عميس. روى عن عمر وعلي، وكان ثقة قليل الحديث، كان يأتي الكوفة كثيراً فينزلها، وكان شيعياً فخرج مع ابن الأشعث فقتل. الطبقات الكبرى: 5/ 45، الجرح والتعديل: 5/ 81، تهذيب التهذيب: 5/ 251.

عنه صلاة الصبح وكان يقرأ سورة يوسف، حتى إذا بلغ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] سمعت نشجه وأنا في آخر الصفوف[2].

قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿110﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿111﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ قال ابن عباس: تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة بمكة فجعل يقول في سجوده: يا الله يا رحمن. فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن وهم لا يعرفون الرحمن. فأنزل الله هذه الآية[3]، ومعناها: قل يا محمد ويا معشر المؤمنين: ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، إن شئتم فقولوا: يا الله، وإن شئتم فقولوا: يا رحمن، وإن شئتم فقولوا: يا الله يا رحمن، أي أسماء الله تدعونه بها فأسماؤه كلها حسنة، فادعوه بصفاته العليا.

قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ قال بعضهم: «ما» في هذا صلة ومعناها: التأكيد، تقديره: أياً تدعوه، ومثله: عن ما قليل، وحبذا ما هنالك، وفبما رحمة!.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال ابن عباس: نزلت بمكة، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، ولغوا وصفقوا وصفروا ولغطوا، كل ذلك ليغلطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يؤذونه، وإذا خافت بالقراءة لم يسمعه أصحابه، فأنزل الله هذه الآية[4]، أي لا تجهر

---

(1) سورة يوسف (12)، الآية: 86.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 200.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 242، تفسير القرطبي: 10/ 342.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 242، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 536.

بقراءتك في الصلاة فيسمعها المشركون فيؤذونك، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك. وقال الحسن معناه: لا تجهر بقراءتك في الصلاة كلها ولا تخافت بها في الصلاة كلها، ولكن اجهر بها في بعض الصلوات وخافت بها في بعضها. وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر عن قراءته بالليل؟ فقال: أخافت بها كيلا أوذي جاري أناجي ربي وقد علم بحاجتي. فقال صلى الله عليه وسلم: «**أحسنت**». وسأل عمر عن قراءته بالليل؟ فقال: أرفع صوتي أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال: «**أحسنت**». فلما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «**زد في صوتك**». وقال لعمر: «**انقص من صوتك**»[1]. وعن ابن عباس أن معنى الآية: لا تصل مراءاة للناس، ولا تدعها مخافة الناس. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحسن الناس قراءة؟ فقال: «**الذي إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله تعالى**».

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يرث ملكه، أو يسر به، أو ينتفع به. وهذا تكذيب لليهود والنصارى وغيرهم من أهل الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يعاونه عليه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي من أهل الذل وهم اليهود والنصارى يودون إخراج رؤوسهم ويقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقال مجاهد معناه: ولم يخلف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. والمعنى: أنه عز وجل لا يحتاج إلى موالاة أحد لذل يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير.

قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي عظمه عظمة تامة عن أن يكون له شريك أو ولي، وصفه بأنه أكبر من كل شيء، وأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، العالم الذي لا يخفى عليه شيء، الغني عن كل شيء، معتقداً لربك بقلبك، عاملاً على أمره. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفصح الولد من بني عبد المطلب علمه هذه الآية[2]: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية..

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 4/ 210، رقم: 1315، باب رفع الصوت بالقراءة في الصلاة.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 200.

وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني كثير الدين كثير الهم. فقال: «**اقرأ آخر سورة بني إسرائيل**[1]: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ **إلى آخر السورة. ثم قل: توكلت على الحي الذي لا يموت ثلاث مرات**». وعن ابن عباس أنه قال: من قرأ سورة بني إسرائيل في سفر أو حضر إيماناً ضرب الله عليه سوراً من حديد من الغرق والحرق والشرق. وعن عبد الحميد أنه قال: من قرأ آخر سورة بني إسرائيل كتب الله له من الأجر مثل السموات السبع والأرضين السبع والشجر والجبال[2].

(1) تفسير القرطبي: 10/ 342.
(2) المصدر نفسه: 10/ 345.

سُورَةُ الكَهْفِ

سورة الكهف مكية غير آيتين منها: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ إلى آخرهما[1].. وعدد حروف السورة ستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفاً، وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة، وآياتها مائة وعشر آيات[2] عند الكوفيين، وإحدى عشرة عند البصريين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ④ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ⑤ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الذي أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي لم يجعله ملتبساً لا يفهم، ومعوجاً لا يستقيم.

قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيماً عدلاً، أي مستوياً قيماً على الكتب كلها، ناسخاً لشرائعها.

---

(1) الآيتان: 28 ـ 29.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 201.

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي لينذر العبد الذي أنزل عليه الكتاب ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر الكفار عذاباً شديداً من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي ثواباً حسناً في الجنة ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③﴾ أي مقيمين في ذلك الأجر خالدين فيه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ④﴾ أي ويخوف الكفار الذين قالوا اتخذ الله ولداً وهم قريش واليهود والنصارى. فإن قريشاً قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله.

قوله عز وجل ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي هم وآباؤهم كلهم مقلد، ليس لهم على ذلك بيان ولا حجة، بل قالوا جهلاً وافتراءً على الله.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي كبرت مقالتهم تلك الكلمة تخرج من أفواههم، ما يقولون إلا كذباً. وكلمة نصب على التمييز، وإنما كبرت هذه الكلمة لأن صاحبها يستحق بها العذاب، ومن ذلك سميت الكبيرة كبيرة لأن عقابها يزيد على استطاعة صاحبها.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ فيه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن إهلاك نفسه جزعاً عليهم بسبب إعراضهم عن الإيمان لشدة شفقته عليهم. وحقيقة الأسف: الحزن على ما فات. ومعنى الآية: فلعلك قاتل نفسك. يقال: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة حزنه على الشيء أو وجده بالشيء.

قال أبو بكر الحداد:

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي من بعدهم، يعني من بعد توليهم وإعراضهم عنك ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن.

وقوله تعالى: ﴿أَسَفًا﴾ أي حزناً.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿7﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا
عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿8﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا
﴿9﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا ﴿10﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي جعلنا جميع ما على الأرض من الأشجار والثمار زينة للأرض والنبات والمياه والذهب والفضة والخواتيم منها زينة للأرض، وجعلناها محفوفة بالشهوات.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنأمرهم فيظهر أيهم أعمل بطاعة الله هذا أم هذا؟ وقال الحسن: أيهم أزهد في الدنيا وأترك لها. وقال مقاتل: أيهم أصلح فيما أوتي من المال ويحسن العمل ويزهد فيما زين له من الدنيا. ثم بيّن الله تعالى أنه يفنى ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿8﴾﴾ أي نجعل ما عليها من الحيوان والنبات تراباً يابساً مستوياً في الأرض. والجرز: الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات، ويقال: سنة جرز: إذا كانت جدبة. وقال عطاء: يريد: يوم القيامة يجعل الله الأرض جرزاً لا ماء فيها ولا نبات.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿9﴾﴾ أي لم يكونوا بأعجب آياتنا، فقد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك. قال الزجاج: أعلم الله أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف[1]. والكهف: الغار في الجبل. والرقيم: قيل هو واد دون فلسطين، وهو الوادي الذي فيه أصحاب الكهف، وقيل الرقيم: لوح من حجارة، وقيل: من رصاص كتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم وضعوه على باب الكهف، وهو على هذا التأويل يعني: المرقوم، أي المكتوب. والرقيم: الخط والعلامة. والرقم:

---

(1) الزجاج، معاني القرآن، وإعرابه: 3/ 270.

الكتابة[1]. قال ابن عباس: وذلك أن قريشاً بعثوا خمسة رهط إلى اليهود يسألونهم عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم: إنه يزعم أنه نبي مرسل، واسمه محمد، وهو فقير يتيم، وبين كتفيه خاتم، وإنا لنزعم أنه يتعلم من مسيلمة، فإنه يقول: أنا رسول من عند الرحمن، ونحن لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ـ يعنون مسيلمة ـ. فلما أتى الرهط المدينة أتوا أحبار اليهود وعلماءهم فسألوهم عنه، ووصفوا لهم صفته وخاتمه، فقالوا: نحن نجده في التوراة كما وصفتموه، ولكن سلوه عن ثلاث خصال، فإن كان نبياً أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة، فإنا قد سألنا مسيلمة عن هذه الخصال فلم يدر ما هي، وأنتم سلوه عن خبر ذي القرنين، وعن الروح، وعن أصحاب الكهف. فرجعوا وأخبروا قريشاً بذلك، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**سأخبركم غداً**». ولم يقل إن شاء الله، فأبطأ جبريل عليه السلام خمس عشرة ليلة، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم أخبره عن أصحاب الكهف، وحديث ذي القرنين، وأمر الروح، وحدثه أن مدينة بالروم كان فيها ملك كافر يدعو إلى عبادة النيران والأوثان، ويقتل من خالفه، وفي المدينة شاب يدعو إلى الإسلام سراً، فبايعه فتية من أهل المدينة ففطن بهم الملك فأخذهم ودفعهم إلى آبائهم يحفظونهم، فهربوا ومروا بغلام راع، فتابعهم ومعه كلبه حتى أتوا غاراً فدخلوه، وألقى الله عليه النوم سنين عدداً والملك طالب لهم، لم يقف على أمرهم، وعمي عليه خبرهم، ثم اطلع عليهم فسدوا باب الكهف ليموتوا فيه إن كانوا هنالك، ثم عمد رجل إلى لوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم وأسماء آبائهم ومدينتهم، وأنهم خرجوا فراراً من دين ملكهم في شهر كذا في سنة كذا وألزقه بالسد، وكان السد في داخل الكهف، وذكر القصة إلى آخرها، فهذا لوح الرصاص هو الرقيم. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً بذلك، فلما وافق النبي صلى الله عليه وسلم قول اليهود أخبرهم بخصلتين ولم يخبرهم بالثالثة. قال كفار قريش: ساحران

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 202، تفسير القرطبي: 10/ 356 ـ 357.

تظاهرا، وقالوا: إنا بكل كافرون. وقال محمد بن إسحاق[1] : كثرت في أهل الإنجيل الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأوثان والأصنام، وفيهم بقايا على دين المسيح بن مريم متمسكون بعبادة الله وتوحيده، وكان ممن فعل ذلك ملك من ملوكهم يقال له دقيانوس، وكان قد عبد الأصنام وذبح للطواغيت، فسار حتى دخل مدينة أهل الكهف وهي أفسوس، فلما دخلها عظم على أهل الإيمان واستخفوا منه وهربوا إلى كل ناحية، فأمر دقيانوس أن يجمع له أهل الإسلام، واتخذ شرطاً من أهلها من الكفار، وأمرهم باتباع المسلمين وإحضارهم، فجعلوا يتبعون المسلمين حتى أخذوهم ومضوا بهم إلى دقيانوس، فخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمنهم من رغب في الحياة ومنهم من قال لا أعبد غير الله فقتله، فلما رأى ذلك أهل الإيمان جعلوا يصبرون للعذاب والقتل، فقتلهم وقطع لحومهم وربطها على سور المدينة ونواحيها كلها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت المحنة على المسلمين، فلما رأى الفتية ذلك قاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والدعاء إلى الله، وكانوا من أشراف الروم، وكانوا ثمانية نفر، فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿14﴾﴾، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة، وارفع عنهم البلاء. فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم الشرط إلى مصلاهم فوجدوهم سجوداً يبكون ويتضرعون إلى الله يسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته، فقالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه. ثم خرجوا من عندهم إلى دقيانوس وأخبروه بخبرهم وقالوا: أنت تجمع الجمع وهؤلاء الفتية يعصون أمرك. فأرسل إليهم الشرط فأتوا بهم تفيض أعينهم من الدمع معفورة وجوههم بالتراب، فقال لهم دقيانوس: ما منعكم أن تشهدوا الذبح للأصنام وتعبدوها وتجعلوا أنفسكم كغيركم، اختاروا إما أن تعبدوا الأصنام مثل الناس وإما أن نقتلكم. فقال مكسلمينا[2] : إن لنا إلهاً تملأ السموات والأرض عظمته لن ندعو من دونه إلهاً أبداً، ولن نفعل هذا الذي تدعونا إليه، ولكن نعبد الله ونسبحه ونحمده خالصاً من أنفسنا، إياه نعبد وإياه نسأل النجاة. وأما الأصنام

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 202 ذكر قول ابن إسحاق.

(2) اسم أحد أصحاب الكهف.

فلا نعبدها أبداً. اصنع بنا ما بدا لك. وقال أصحاب مكسلمينا كلهم لدقيانوس مثل هذه المقالة، فقال دقيانوس: إني سأؤخركم وأمهلكم حتى تراجعوا عقولكم وأجعل لكم مدة تشتورون فيها، فإن أبيتم طاعتي وخالفتم أمري أوقعت بكم العقوبة، وما يمنعني أن أعجل قتلكم إلا أني أراكم شباباً حديثاً شبابكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم مدة تنظرون فيها ما يصلح لكم. ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم، وأمر بإخراجهم من عنده فعمد كل واحد منهم إلى بيت أبيه وأخذ له منه زاداً وخرجوا هاربين، فمروا بكلب فتبعهم فطردوه ثم تبعهم فطردوه، ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب: ما تخشون مني، فإني أحب أحباء الله فمتى نمتم أحرسكم. وقال ابن عباس: كانوا سبعة هربوا ليلاً فمروا براع ومعه كلب فتبعهم على دينهم، فوصلوا إلى كهف قريب من البلد فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد، وجعلوا نفقتهم على يد واحد منهم يقال له يمليخا، وكان يشتري لهم متاعهم من المدينة سراً، وكان من أجملهم وأجلدهم، وكان إذا أراد أن يدخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يسألون الناس، ثم يأخذ ورقه ويشتري طعاماً ويتجسس الأخبار ويسمع هل يذكر هو وأصحابه، ثم يعود إلى أصحابه. فلبثوا كذلك ما لبثوا، ثم إن دقيانوس الجبار شدد على ما بقي من المسلمين وأمرهم بالذبح للطواغيت، وكان يمليخا حينئذٍ هناك متنكراً، فسمع بأن دقيانوس يطلب الفتية وسأل عنهم، فرجع يمليخا هارباً إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل، فأخبرهم أن دقيانوس يسأل عنهم، ففزعوا ووقعوا سجوداً يتضرعون إلى الله ويتعوذون به من فتنتهم وذلك عند غروب الشمس[1].

قال أبو بكر الحداد:

فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم، وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم، فلما كان من الغد التمسهم دقيانوس فلم يجدهم، فغضب غضباً شديداً وأرسل

---

(1) ذكر هذه القصة الثعلبي في تفسيره، ورقة: 202، وكذا البغوي في معالم التنزيل: 3/ 542.

إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال: أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني. فقالوا: ما ندري أين ذهبوا، ولقد أخذوا أموالنا وهربوا بها وليس لنا في ذلك ذنب لأنا لم نغضبك فلا تعاقبنا فيهم. فخلى سبيلهم وجعل لا يعرف ما يصنع بالفتية، فبلغه الخبر أنهم ارتفعوا إلى الجبل فالتمسهم هناك حتى وجدوا الكهف، فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم، فقال دقيانوس: سدوا باب الكهف ودعوهم فيه يموتوا جوعاً وعطشاً، وليكن كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم. وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم، وقد توفى الله أرواحهم في النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف وقد غشيه ما غشيهم، يقلبون ذات اليمين وذات الشمال، فبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقرون بعده كثيرة، وجاءت ملوك بعد ملوك، وقيل إن دقيانوس لما أتى إلى كهفهم لطلبهم كان كلما أراد رجل أن يدخل عليهم الكهف أرعب فلم يطق الدخول فجعلوا يقولون: سدوا عليهم باب الكهف ليموتوا جوعاً وعطشاً، ففعلوا ذلك، فلما مضى على ذلك قرون وأزمان جاء راعي غنم إلى الكهف بغنمه فأدركه المطر عند الكهف ففتح الكهف ليدخل غنمه فيه من المطر فوجدهم هناك، فرد الله عليهم أرواحهم فجلسوا فرحين مستبشرين، وظنوا أنهم أصبحوا من ليلتهم، فقاموا إلى الصلاة فصلوا، لا يرى في ألوانهم ولا في أجسادهم شيئاً يكرهه وهم يحسبون أن دقيانوس في طلبهم ثم قالوا ليمليخا: ما الذي قال الناس في شأننا بالأمس؟ فقال: سمعت أنهم يلتمسونكم. فقال مكسلمينا: يا إخوتي ما أعلم أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا طلبكم غداً. فقالوا ليمليخا: اذهب إلى المدينة واستمع لنا الأخبار وما الذي يذكره الناس فينا عند دقيانوس، وتلطف ولا تشعرن بنا أحداً، واشتر لنا طعاماً فإنا قد أصبحنا جياعاً. فمضى يمليخا وقد أخذ الثياب التي كان يتنكر فيها، وأخذ ورقاً من نفقتهم التي عليها طابع دقيانوس فدخل المدينة مستخفياً يصد عن الطريق لئلا يراه أحد يعرفه فيعلم دقيانوس. ولم يعلم يمليخا أن دقيانوس وقومه قد هلكوا منذ ثلاثمائة سنة، فرأى يمليخا على باب المدينة علامة أهل الإسلام، فعجب وجعل ينظر يميناً وشمالاً مستخفياً، ثم ذهب إلى الباب الثاني فرأى عليه كذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرفها، ثم رأى ناساً كثيراً يتحدثون لم يكن رآهم

قبل ذلك، فخيل إليه أنه حران وجعل يقول: لعل هذه غشية. ثم سمع الناس يتحدثون بحديث أهل الإسلام ويحلفون بالله ويذكرون عيسى بن مريم عليه السلام[1]، فقال: لعل هذه مدينة أخرى. فقام كالحيران فمر به إنسان فسأله: ما هذه المدينة؟ فقال: هذه أفسوس. فقال: لعلي ذاهب العقل. ثم دخل السوق ليشتري طعاماً، فأخرج الورق الذي معه فأعطاه رجلاً وقال: بعني بهذا طعاماً. فعجب الرجل من نقشها وضربها، ثم أعطاها رجلاً من أصحابه لينظر إليها، ثم جعلوا يتفرجون بها بينهم من رجل إلى رجل فقالوا: هذا أصاب كنزاً في الأرض. وجعلوا يتشاورون في أمره، فلما رآهم يتشاورون ظن أنهم يريدون أن يمضوا به إلى دقيانوس، ففزع فزعاً شديداً، فقالوا له: من أنت يا فتى وما شأنك؟ والله إنك وجدت كنزاً من كنوز الأولين، فإما أن تشاركنا فيه ونخفي عليك أمرك، وإلا سلمناك إلى السلطان يقتلك. فقال في نفسه: قد وقعت في الذي كنت أحذر منه. فجعل يمليخا لا يدري ما يقول لهم، وفزع حتى إنه ما أطاق أن يخبرهم بشيء، فلما رأوه لا يتكلم أشاعوا خبره وجعلوا يقودونه في سكك المدينة وهم يقولون: هذا رجل وجد كنزاً. فاجتمع عليه أهل المدينة فجعلوا ينظرون إليه ويقولون: ما هذا الرجل من أهل المدينة، وما رأيناه فيها قط ولا نعرفه. ولو قال لهم أنا من أهل هذه المدينة لم يصدقوه، وكان مستيقناً أن أباه وإخوته في المدينة وأنهم سيأتون من جملة الناس إذا سمعوا خبره، ثم إنهم انطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبري أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرنوس والآخر أسطوس، فظن يمليخا حين مضوا به أنهم يمضون به إلى دقيانوس، فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إله السماء والأرض أفرغ اليوم عليّ صبراً وأولج معي روحاً تؤيدني به عند هذا الجبار. فلما انتهوا به إلى الرجلين الصالحن سكن خوفه، فأخذ الرجلان الورق فنظرا إليه وعجبا منه وقالا: يا فتى أين الكنز الذي وجدته؟ هذا الورق يشهد عليك أنك وجدت كنزاً. فقال يمليخا: والله ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن لا أدري ما شأني ولا أدري ما أقول لكم. فقال

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 202، البغوي، معالم التنزيل: 3/ 542.

أحدهما: ممن أنت؟ فقال: أما ما أرى فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة. فقال له: من أبوك؟ ومن يعرفك بها؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يعرفوه، فقال له أحدهما: أنت رجل كذاب لا تخبر بالحق. فلم يدر يمليخا ما يقول، فقال الرجل: هذا مجنون. وقال آخر: إنه ليس بمجنون ولكنه يجن نفسه حتى تطلقوه. ونظر إليه آخر شرزاً وقال: أتظن أنا نصدقك أو نطلقك، فإن هذا الورق لضربه أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار. فقال يمليخا: أنبئوني بشيء أسألكم عنه، قالوا: سل. قال: ما فعل دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك قد هلك منذ زمان طويل، وهلكت بعده قرون كثيرة[1]. فقال يمليخا: والله لقد كنا فتية فإنه أكرهنا على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجت لأشتري لأصحابي طعاماً، وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي. فلما سمع أرنوس ما يقول يمليخا قال: يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى فامضوا بنا معه يرينا أصحابه. فمضوا معه ومضى جميع أهل المدينة، فلما سمع الفتية الذين في الكهف الأصوات وجلبة الخيل مصعدة نحوهم، وقد كان أبطأ عليهم يمليخا، ظنوا أنه دقيانوس جاء في طلبهم، فسبق يمليخا القوم فجاء إليهم فسألوه عن شأنه فأخبرهم بالخبر كله، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها. فلما فرغ يمليخا من كلامه قبض الله روحه وأرواحهم، وعمي على أولئك القوم باب الكهف فلم يهتدوا إليه[2].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي اذكر لقومك إذ أوى الفتية، أي الشباب إلى الكهف ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ننجوا بها من قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⑩﴾ أي اجعل لنا طريقاً ومخرجاً، ارفعنا وارشدنا إلى ما يقربنا إليك.

---

(1) الثعلبي والبغوي في المصدرين السابقين.

(2) الثعلبي والبغوي في المصدرين السابقين.

قوله تعالى:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿11﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿12﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿13﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿11﴾﴾ أي أنمناهم في الكهف سنين معدودة وهم أحياء يتنفسون، ثم أيقظناهم من نومهم لنعلم، أي لنعرف غيرهم أنه ليس فيهم من يعرف مقدار السنين التي ناموا فيها. والمراد بأحد الحزبين: الفتية، والآخر: ناس من أهل ذلك الزمان، وقيل: أراد بأحد الحزبين: المؤمنين، والحزب الآخر: الكافرين.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي نبين لك خبرهم بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شباب ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي ثبتناهم على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟﴾ أي ألهمنا قلوبهم الصبر وشجعناها حين قاموا بحضرة الكفار، يعني: دقيانوس الذي كان يفتن أهل الإيمان حين قالوا بين يديه: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿14﴾﴾ أي كذباً وجوراً. والمعنى: إن عبدنا غير الله ودعونا معه إلهاً آخر قلنا قولاً ذا شطط، أي متجاوزاً للحق في غاية البطلان.

قوله تعالى:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿15﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿16﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي قالوا هؤلاء قومنا عبدوا من دون الله آلهة، أي عبدوا الأصنام، يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس.

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هلا يأتون على عبادتهم لها برهان واضح.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي فمن أظلم لنفسه ممن اختلق على الله كذباً بأن جعل معه شريكاً في العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي قال بعضهم لبعض: قيل إن القائل لهذا: يمليخا، وهو رئيس أصحاب الكهف قال لأصحابه: إذ فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانباً، أي عن عبدة الأصنام. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ هذا حد الكلام. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني إلا الله فلا تعتزلوه، أي فلا تعتزلوا عبادته.

قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي فصيروا إلى الكهف واجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ أي يبسط لكم من نعمه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ ما ترتفقون به هنالك في معايشكم، مخلصاً لكم من ظلم هؤلاء الكفار. قال ابن عباس معناه: ويسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه. يقال فيه: مرفقاً ـ بكسر الميم وفتح الفاء، وفتح الميم وكسر الفاء[1]. وكذلك في مرفق اليد.

قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. قرأ أهل الكوفة: تزاور ـ بالتخفيف على حذف أحد الفاءين، وقرأ أهل الشام ويعقوب: تزورُّ ـ بوزن تحمر[2]. وكلها بمعنى واحد، أي تميل. وفيه بيان أن الكهف الذي آووا إليه كان بابه نحو القطب الذي هو بقرب

(1) ابن مجاهد، السبعة: 388، النحاس، إعراب القرآن: 2/ 450.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 387، الفراء، معاني القرآن: 2/ 136.

بنات نعش، وكانت الشمس تطلع مزاورة على باب الكهف عند الطلوع وعند الغروب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تعدل عنهم. وقال الكلبي: يقول إذا طلعت الشمس مالت عن كهفهم ذات يمين الكهف، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال، يعني شمال الكهف لا تصيبه. وكان كهفهم في أرض الروم أعلم الله أنه يميل عنهم الشمس طالعة وغاربة لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم[1].

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في متسع من الكهف، هيأ الله لهم مكاناً واسعاً لا يصيبهم فيه حر ولا سموم، ولا يتغير لهم ثوب ولا لون ولا رائحة، ولكن كان ينالهم فيه نسيم الريح وبردها.

وقوله تعالى: ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ القرض: هو القطع من قولهم: قرضته بالمقراض أي قطعته. وقال: يعطيهم اليسير من شعاعها عند الغروب، كأنه شبهه بقرض الدراهم التي تعطى ثم تسترد.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾أي إبقاؤهم طول السنين التي ذكرها الله نياماً لا يستيقظون من دون طعام ولا شراب من آيات الله.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي تظنهم يا محمد منتبهين وهم نائمون، وإنما كان يحسبهم الرائي منتبهين لأنهم كانوا نياماً وهم مفتوحو الأعين وكانوا يتنفسون.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قرأ الحسن: ونقلبهم بالتخفيف[2]. والمعنى: نقلبهم تارة من اليمين إلى الشمال، وتارة من الشمال

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 369.

(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 206 قراءة الحسن.

إلى اليمين كما يتقلب النائم لئلا تأكل الأرض أجسامهم. وذكر قتادة أن لهم في كل عام تقليبتين. وعن ابن عباس: في كل عام مرة[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي على باب الفجوة أنامه الله كذلك. والوصيد من قولهم: أوصدت الباب وأصدته: إذا أغلقته، وقد يقال لذلك: الأصيداء أيضاً، وقيل الوصيد: فناء الكهف. وقال سعيد بن جبير الوصيد: التراب، وقال السدي: الوصيد: الباب، وقال عطاء: عتبة الباب وكان لون الكلب أحمر. كذا قال ابن عباس. وقال مقاتل: كان أصفر يضرب إلى الحمرة، وقيل: كان كلون الحجر، وقيل: كلون السماء. وقال علي رضي الله عنه: كان اسمه ريان. وقال ابن عباس: قطمير، وقال سفيان: كان اسمه حمران، وقال عبد الله بن سلام: اسمه بسيط. روي عن بعضهم أنه مما أخذ على الكلب: أن لا يضر بأحد يقرأ ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي لو اطلعت عليهم يا محمد لوليت منهم فراراً لما ألبسهم الله من الهيئة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم وينتبهون من رقدتهم، وقيل: لأنهم كانوا في مكان موحش من الكهف، وقيل: لأن أعينهم كانت مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام. وعن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقال ابن عباس: ليس لك ذلك، قد منع الله من هو خير منك ذلك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم. فبعث ناساً فقال: اذهبوا وانظروا. ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليه ريحاً فأخرجتهم من الكهف[3].

قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي: 206، والقرطبي: 10/ 370.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 208، والبغوي في تفسيره: 3/ 556.

بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿19﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿20﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي وكذلك أيقظناهم كما أنمناهم ليتحدثوا ويسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ وهو رئيسهم ويسمى مكسلمينا ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾ في نومكم في الكهف ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾ فلما نظروا إلى الشمس وقد بقي منها شيء قالوا: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ توقياً من الكذب، فلما نظروا إلى أظفارهم وأشعارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم فقالوا: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي وابعثوا يمليخا. والورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. وأما المدينة فهي: أفسوس. فلما جاء الإسلام سموها طرسوس، كان اسمها في الجاهلية أفسوس، فلما جاء الإسلام سموها طرسوس. ومعنى الآية: فابعثوا أحدكم بدراهمكم هذه إلى السوق فلينظر أيها أزكى طعاماً، أي أحل ذبيحة لأن عامتهم كانوا مجوساً وفيهم مؤمنون يخفون إيمانهم. وقيل: أطيب خبزاً وأبعد من الشبهة، لأن ملكهم كان يظلم الناس في طعامهم، وكانوا يحسبون أن ملكهم كان يظلم الناس في طعامهم ـ دقيانوس الكافر ـ. وقال عكرمة معناه: أكثر وأفضل في المعنى، لأن الزكاة هي الزيادة[1].

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي بقوت وطعام. قوله: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي يتوقف في الذهاب والمجيء في دخوله المدينة حتى لا يعرفه الكفار ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ أي لا يخبرن أحداً من أهل المدينة بمكانكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ أي أنهم إن علموا مكانكم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 557.

رجموكم بالحجارة حتى يقتلوكم، وقيل: يشتموكم ويؤذوكم. وكان من عادتهم القتل بالرجم وهو أخبث القتل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي إلى دينهم الكفر. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إن عدتم إلى دينهم لم تظفروا بخير في الدنيا والآخرة. فإن قيل: أليس لو أكرهوهم وأظهروا الكفر لم يكن في ذلك مضرة عليهم؟ قيل: يجوز أنه لم يكن في شريعتهم جواز إظهار كلمة الكفر على وجه التقية.

قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿21﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي أطلعنا عليهم، وذلك أنهم لما بعثوا بورقهم على يد يمليخا إلى السوق، فإذا ملكهم مسلم قد أظهر علامات الإسلام، فتعجب من تغير الأمر وقال لخباز: بعني من طعامك بهذا الورق. فلما رأى الخباز دراهمه أنكرها وقال له: من أين لك هذه؟ وقد ضربت منذ ثلاثمائة سنة، فإما أن تعطيني من هذا الكنز أو أرفعك إلى الملك، فأنت وجدت كنزاً. فحمله إلى الملك، فلم يجد بداً من أن يذكر للملك قصتهم، فجاء الناس معه إلى باب الكهف فدخل هو قبلهم وأخبر أصحابه بأن الملك أتاهم، فجعلوا يبكون إذ أظهر القوم عليهم، فسألوهم عن أمرهم فقصوا عليهم قصتهم، فنظروا فإذا اللوح من الرصاص فيه أسماؤهم وفرارهم من دقيانوس فقال الملك: هؤلاء قوم هلكوا في زمان الكافر فأحياهم الله في زماني. وحسبوا المدة فوجدوها ثلاثمائة سنة وتسع سنين. فبينما هم يحدثونهم إذ ضرب الله على آذانهم بالنوم. هكذا روى ابن عباس. وذكر عكرمة: بأن القوم دخلوا المكان وقد ضرب الله على آذانهم. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾. قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي

ليعلم الملك وقومه وغيرهم أن البعث بعد الموت كائن وأن القيامة لا شك فيها[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ قيل: كان التنازع في أن قال بعضهم لبعض إنهم قد ماتوا في الكهف، وقال بعضهم: بل ناموا كما ناموا من قبل وسيوقظهم الله من بعد، وقيل: كانوا يتنازعون في البناء كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾ أي قال بعضهم نبني عليهم بنياناً كما تبنى المقابر كي تستروهم عن الناس، وقال بعضهم: بل نبني في هذا الموضع مسجداً يعبد الله فيه، وهو قول الذين غلبوا على أمرهم وهم رؤساؤهم[2].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي أعلم بلبثهم ورقادهم وأحوالهم، لأن قوم الملك تنازعوا في قدر مكثهم في الكهف وفي عددهم وفيما يفعلون بعد ذلك.

قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الآية.. وذلك أن أهل الكتاب الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل هذه القصة مختلفون في عددهم. روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من النصارى وأهل نجران كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب: كانوا خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب، أي ظناً من غير يقين، كأنهم يرجمون بالقول فيهم بالغيبة عنهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. قال بعضهم: هذه الواو واو الثمانية، وذلك أن العرب تقول: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية، لأن

(1) تفسير القرطبي: 10/ 378.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 208.

العقد عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾[1]، وقوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[2]، وقوله في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَبْكَارًا﴾[3].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي ربي أعلم كم كان عددهم.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ عنى به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه تعالى أخبره بعددهم وأمره أن لا يماري من ادعى معرفة عددهم إلا بأن نبين له أن تقوله بغير حجة ولا خبر عنده من الله، فإن هذا العلم ليس هو عند أهل الكتاب، وهذا هو المراء الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لا تستفت في أصحاب الكهف من اليهود وأهل الكتاب أحداً، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته، لأنه كان مستغنياً بإخبار الله إياه عن أن يستفتيهم. وعن ابن عباس أنه قال: أنا من القليل الذي يعلم عددهم. كانوا سبعة وثامنهم كلبهم[4]. وإنما عرفه سماعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿24﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿25﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لا تقل إني سأفعل شيئاً حتى تقرن به قولك: إن شاء الله، فلعلك لا تبقى إلى الغد، ولا تقدر عليه في الغد. قال المفسرون: لما سأل اليهود النبي صلى

(1) سورة التوبة (66)، الآية: 112.
(2) سورة الزمر (39)، الآية: 73.
(3) سورة التحريم (66)، الآية: 5.
(4) ذكره القرطبي في تفسيره: 10/ 384.

الله عليه وسلم عن خبر الفتية وعدهم أن يخبرهم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فحبس عنه الوحي حتى شق ذلك عليه، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكره فاستثنى. قال سعيد بن جبير: إذا قلت لشيء إني فاعله غداً ونسيت الاستثناء ثم تذكرت فقل: إن شاء الله، وإن كان بعد يوم أو شهر أو سنة. وعن ابن عباس معناه: إذا حلفت على شيء ونسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن مكانك وقل: إن شاء الله، ولو كان إلى سنة ما لم تحنث. وقال الحسن: له أن يستثني في اليمين ما لم يقم من المجلس[1].

وقال إبراهيم وعطاء والشعبي: لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام. فيكون المعنى على هذا القول: واذكر ربك إذا نسيت، أي نسيت شيئاً فادع الله حتى يذكرك. وقال عكرمة معناه: واذكر ربك إذا غضبت. قال وهب: مكتوب في الإنجيل: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة[2]، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿24﴾﴾ أي قل عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب إلى الرد وأدل من قصة أصحاب الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿25﴾﴾ يعني من يوم دخلوا الكهف إلى أن بعثهم الله، وأطلع عليهم الخلق. قال الفراء، والزجاج، والكسائي: التقدير: سنين ثلاثمائة، لأن التميز لا يكون بلفظ

---

(1) يراجع قول ابن عباس وما بعده في: تفسير القرطبي: 10/ 386.
(2) ذكر البغوي هذه الأقوال في: معالم التنزيل: 3/ 560.
(3) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 5/ 193، قضاء الفائتة واستحباب تعجيله، وابن ماجه في سننه: 1/ 227، رقم: 696، باب من نام عن صلاة أو نسيها.

الجمع[1]. وقال أبو علي الفارسي: سنين بدل من ثلاثمائة. وقرأ حمزة: ثلاثمائة سنين مضافة غير منونة[2]. وقال الضحاك: نزل قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾ فقالوا أياماً أو شهوراً أو سنين، فنزل: سنين، ولذلك لم يقل سنة[3].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي مقدار ما لبثوا ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له العلم بكل مستور عن الخلق في السموات والأرض وفي قعر البحار.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي اذكر بذلك الناس فهو من خفي صفاته. وقيل معناه: ما أبصر الله بكل موجود، وما أسمعه بكل مسموع.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ أي ما لأهل السموات والأرض من دون الله من ولي ولا ناصر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي لا يشرك في أمره أحداً غيره. وقرأ ابن عامر: ولا تشرك ـ على المخاطبة[4]، أي لا تشرك أيها الإنسان. على النهي.

قوله تعالى:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿27﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿28﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ عليهم القرآن وعرفهم أنه الحق لا مبدل لكلماته ولا خلف لخبره ولا مغير له.

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 138.
(2) تيسير الداني: 143.
(3) تفسير القرطبي: 10/ 387.
(4) ابن مجاهد، السبعة: 390.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي ملجأ وموئلاً يهرب إليه. من قولهم: لجأت إلى كبير: إذا ملت إليه، ومنه اللحد لأنه يمال به إلى ناحية القبر، ومنه الإلحاد في الدين، أي الميلان عنه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ نزلت الآية في سلمان الفارسي، وصهيب بن سنان، وعمار بن ياسر، وخباب، وعامر بن فهيرة، وغيرهم من الفقراء كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مع سلمان شملة قد عرق فيها، إذ دخل عيينة بن حصن الفزاري فقال: يا محمد إنا رؤوس مضر وأشرافها، وإنه والله ما يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء ـ يعني سلمان وأصحابه ـ ولو أنا إذا دخلنا عليك أخرجتهم عنا لاتبعناك، إنه ليؤذينا ريحهم، أما يؤذيك ريحهم؟ فأنزل الله في سلمان وأصحابه هذه الآية[1]، ومعناها: واحبس نفسك يا أيها النبي مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، أي رضوانه وتعظيمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا تصرف بصرك عنهم لفقرهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي مجالسة أهل الشرف والغناء. و«تريد» ههنا في موضع الحال، أي مريداً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ يريد عينيه، وأتباعه، أي لا تطعهم في تنحية الفقراء عنك ليجلسوا إليك. ومعنى: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي جعلناه غافلاً عن القرآن والإسلام. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي ضياعاً وندماً، وقيل: هلاكاً، وقيل: مخالفاً للحق، وقيل: باطلاً، وقيل معناه: ضيع أمره، وعطل أيامه.

قوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ

(1) الواحدي، أسباب النزول: 442، تفسير الثعلبي، ورقة: 208.

وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿29﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿30﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿31﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي قل: القرآن والدلالات على وحدانية الله ونبوة رسوله، هو الحق من ربكم. والحق مرفوع على الحكاية، وقيل: خبر مبتدأ مضمر أي هو الحق. والمعنى: وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس الذي أنبئكم به الحق من ربكم، لم آتكم به من قبل نفسي.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ تهديد بلفظ التخيير. والمعنى: من شاء فليؤمن ومن شاء فليكر فقد أعد لكم ناراً على كفركم أحاط بكم سرادقها.

قال أبو بكر الحداد:

قال ابن عباس: السرادق: حائط من نار يحيط بهم، وقيل: دخان يحيط بهم قبل أن يصلوا إلى النار[1]. وعن أبي سعيد الخدري قال: سرادق النار أربعة جدر غلاظ، كل جدار مسيرة أربعين سنة[2]. فهذه الجدر محيطة بهم. وقال ابن عباس معنى الآية: فمن شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ معناه: وإن يستغيثوا من شدة الحرارة يغاثوا بماء الزيت أسود غليظ، وقيل: إن المهل هو الصفراء المذاب، ويقال: هو القيح والدم[3].

قوله تعالى: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ أي إذا قربه ليشربه أنضج الوجه لحرارته وأسقط فروة وجهه ولحمه، بئس الشراب وساءت النار مرتفقاً، أي ساءت متكأً لهم.

---

(1) تفسير القرطبي: 10/ 394.
(2) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 209.
(3) معالم التنزيل: 3/ 565.

مأخوذة من المرفق، لأنهم يتكئون على مرافقهم، وقيل قالوا: وساءت منزلاً ومقراً، وقيل: مأخوذ من المرافقة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿30﴾﴾ أي لا نبطل ثواب من أخلص عملاً لله تعالى، ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً منهم بل نجازيهم. ثم ذكر جزاءهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة. وقد ذكرنا صفات جنات عدن.

قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي يلبسون في الجنان ذلك. قال الزجاج: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار[1]، وهو زينة يلبس في الزند من اليد، من زينة الملوك، يسور في اليد ويتوج على الرأس. قال ابن جبير: يحلّى كل واحد منهم بثلاثة من الأساور: واحد من فضة وواحد من ذهب، وواحد من لؤلؤ ويواقيت[2]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته تحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها**».

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والخضر جمع أخضر، وهو أحسن ما يكون من الثياب، والسندس: الرقيق الديباج الفاخر، وقيل: هو الخز. وواحد السندس: سندسة، والاستبرق: الديباج الغليظ الذي له بريق.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي على السرر في الحلل وهي من ذهب مكلل بالدر والياقوت ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي متكأً.

قوله تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿32﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿33﴾ وَكَانَ لَهُۥ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 283.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 565.

﴿ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ الآية.. هذا مثل ضربه الله لعباده ليستدعيهم إلى طاعته ويزجرهم عن كفران نعمته. والمعنى: واضرب لهم مثلاً رجلين. قال ابن عباس: كانوا أخوين في بني إسرائيل توفي أبوهما وترك ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، فأصاب كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فالمسلم أنفقها في سبيل الله حتى أنفدها فأوجب الله له الجنة والكافر اشترى بها بساتين فاحتاج المسلم إليه، فأتاه يتعرض إليه[1]، فقال له: أين مالك؟ قال: أنفقته في سبيل الله. فقال له الكافر: لا أعطيك شيئاً حتى تتبع ديني. ثم أخذ بيد أخيه فأدخله بساتينه وجعل يطوف به فيها وهو يقول: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي جعلنا للكافر منهما بساتين من كروم، وجعلنا حول البساتين نخيلاً، وجعلنا بين البساتين زرعاً، أي مزرعة.

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي كلا البساتين أخرجت ثمرها ولم ينقص منه شيئاً، كان لا يذهب صنف من الثمار إلا أثمر صنف آخر. وإنما قال: آتت، ولم يقل: آتتا، لأن المعنى: أعطت كل واحدة من الجنتين. ولفظ كلتا واحدة، لأن الألف في كلتا وليست الألف ألف تثنية، كأنه قال: كل واحدة منهما آتت أكلها.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي فجرنا وسط البساتين نهراً يسقيهما ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي كان لهذا الكافر ذهب وفضة ومن كل المال، وقيل: ثمار، من قرأ: ثمر ـ بضم الثاء، فمعناه: صنوف من الأموال: الذهب والفضة وغيرهما. يقال: أثمر الرجل إذا كثر ماله. ومن قرأ بنصب الثاء[2] كان معناه ثمرة البساتين، والأول هو الأقرب، لأن قوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ يدل على الثمار، فاقتضى أن يكون الثمر غير ذلك.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 209، تفسير القرطبي: 10/ 399.

(2) ابن مجاهد، السبعة: 390.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي لأخيه المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يراجعه ويفاخره في الكلام: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي خدماً وحشماً وولداً. تطاول بذلك على أخيه، ورأى تلك النعم من قبل نفسه لا من قبل الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿35﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿36﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿37﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿38﴾﴾.

قال الإمام أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي دخل الكافر بستانه وهو ظالم لنفسه بالكفر وترك الشكر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي ما أظن أن تفنى هذه أبداً. قال المفسرون: أخذ بيد أخه المسلم فأدخله جنته وطاف به فيها وأراه إياها وجعل يعجبه منها ويقول: ما أظن أن تفنى هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة. أنكر البعث والثواب والعقاب، وأخبر أخاه بكفره وإنكاره للقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿36﴾﴾ يعني: لئن كان البعث حقاً ورددت إلى ربي على زعمك لأجدن في الآخرة خيراً منهما مرجعاً ومنزلاً، ولم يعطني الله هذه في الدنيا الأولى فعنده أفضل منها لكرامتي عليه. ومن قرأ: منهما[1]، فمعناه: الجنتين اللتين تقدم ذكرهما. وفي هذا بيان أن هذا الكافر لم يكن قاطعاً لنفي المعاد ولكن كان شاكاً فيه، والشاك في المعاد كافر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي أجابه المسلم مكفراً له بما قال وهو يخاطبه ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي بالذي خلق أصلك

(1) قال ابن خالويه في كتاب: إعراب القراءات: 1/ 393، قرأ ابن عامر ونافع وابن كثير: خيراً منهما. وقال النحاس في: إعراب القرآن: 2/ 456، والتثنية أولى، لأن الضمير أقرب إلى الجنتين.

من تراب ثم خلقك من نطفة أبيك ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي أكملك وجعلك معتدل القامة والخلق، وجعلك بشراً سوياً.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ معناه: أما أنا فلا أكفر. وفي: لكن أنا، هو الله ربي تقديره: لكن أنا هو الله ربي، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: لكن الله هو ربي أنا. أعلم بذلك أخاه الكافر بأنه موحد مسلم. ومن قرأ: لكنا، بمعنى: لكن أنا الله، حذفت الهمزة وأبقيت حركتها على الساكن الذي قبلها، فالتقا نونان فأدغمت إحداهما في الأخرى[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿39﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿40﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿41﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه: أن المسلم قال للكافر: هلّا قلت حين دخلت جنتك ما شاء الله، أي ألا قلت بمشيئة الله وما شاء الله كان يعني إن شاء الله خراب هذه الجنة وإهلاكها كان ذلك بمشيئة الله لا قوة إلا بالله، أي لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله، ولا يكون له إلا ما شاء الله، ولا قوة في يديه وملكه إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ معناه: أن المسلم قال له: إن كنت أنا أقل منك مالاً وعشيرة فأنا راضٍ بما قسم لي. وقوله تعالى: ﴿أَقَلَّ﴾ منصوب لأنه مفعول ترني. وقوله تعالى: ﴿أَنَا۠﴾ عماد. ومن قرأ: أقل - بالرفع، فعلى معنى: أنا مبتدأ، وأقل خبره، والجملة في موضع المفعول[2].

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي لعل الله يعطيني في

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 1/ 391، الفراء، معاني القرآن: 2/ 144، النحاس، إعراب القرآن: 2/ 456 - 457.

(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 154، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان: 6/ 129.

دار البقاء بستاناً خيراً من بستانك في الدنيا ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على بستانك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ناراً من السماء فتحرقها. وسمي العذاب حسباناً على معنى أنه يرسل عليها بحسبان ما كسبت يداك. وقال النضر بن شميل: الحسبان: المرامي، أي أرسل عليها مرامي عذابه إما برد وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء لا نبات عليها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائر في الأرض يعني النهر الذي في خلالها ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي لا يبقى له أثر بطلبه بوجه من الوجوه لا تناله الأيدي.

قوله تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿42﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿43﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي هلك ماله وبستانه. يقال: أحيط بالقوم: إذا هلكوا. فأصبح الكافر يقلب كفيه، أي يضرب بإحدى يديه على الأخرى. وتقليب الكفين يفعله النادم كثيراً، فصار عبارة عن الندم على ما أنفق فيها، أي في جنته ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فندم حين لا ينفعه الندم، ولم يكن تندمه على إشراكه إيماناً منه لأنه لم يقله تحقيقاً للتوبة، ولكن كان يتأسف على هلاك ماله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لم تنصره الفئة الذين افتخر بهم في قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وما كان منتصراً بأن يسترد بدل ما ذهب منه.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي في ذلك الموطن علم الكافر أن الولاية بالنصر لله الحق، فهو الذي يملك النصر. هذا معنى قراءة: الولاية ـ بخفض الواو، وأما الولاية ـ بفتح الواو فهو نقيض العداوة. وقيل: إن معنى

قراءة الولاية ـ بالكسر: الإمارة والسلطان، يعني في يوم القيامة الولاية لله، ومن قرأ بفتحها فهو من الموالاة[1]، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2] يعني أنهم يؤمنون بالله يومئذ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون من دونه. قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ من قرأه بالكسر فهو نعت لله، ومن رفعه فهو نعت للولاية[3].

قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي خير من أثاب وجازى على العمل ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي خير من أعقب عاقبة، وقيل: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره. قال ابن عباس: هذان الرجلان هما اللذان ذكرهما الله في سورة الصافات[4]: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿51﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿55﴾﴾[5].

قوله تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿45﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿46﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية.. أي اضرب يا محمد للولاة المتكبرين المترفين من قومك الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين صفة الحياة الدنيا في بقائها وفنائها، كماء أنزلناه من السماء فتجمع في النبات حتى خالطه، وأخذ النبات زخرفه فصار أجناساً مختلفة بعضها مختلط ببعض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ متفتتاً. والهشيم: ما يكسر ويحطم، ثم فرقته الرياح وطارت به كما تطير الأشياء الحقيقية فلا يبقى له أثر، كذلك الدنيا تفنى فلا يبقى منها شيء كما لا يبقى من الهشيم شيء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي لم يزل قادراً على خلق الأشياء. قالت الحكماء: شبه الله الدنيا بالماء، لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على أحد.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 392.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 257.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 396، النحاس، إعراب القرآن: 2/ 1456.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 209، تفسير القرطبي: 10/ 399.
(5) سورة الصافات (37)، الآيات: 51 ـ 55.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي مما ينتفع به في الدنيا لا في الآخرة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ قيل إنها الصلوات الخمس، وقيل: جميع الطاعات وسميت الباقيات لبقاء ثوابها للإنسان، بخلاف الأموال والأولاد التي لا تبقى. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هي قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر(1). يدل عليه ما روي عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غصناً فحركه حتى سقط ورقه فقال: «**إن المسلم إذا قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياه كما تحات هذا، خذهن إليك يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة، وهن الباقيات الصالحات**»(2). وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**خذوا جنتكم من النار، قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن المقدمات وهن المنجيات وهن المعقبات وهن الباقيات الصالحات**». وقال عثمان بن عفان، وابن عمر، وسعيد بن المسيب: هن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(3). وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**استكثروا من الباقيات الصالحات**». قيل: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**التكبير والتهليل والتسبيح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»(4). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوان أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر(5) فإنها من الباقيات الصالحات**»، وقيل: هي كل عمل صالح يثاب عليه.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل ثواباً وأفضل أملاً من المال والبنين.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 571.

(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 9/ 514، رقم: 3599.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 209.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 1/ 425، رقم: 605، باب في محبة الله عز وجل.

(5) رواه أبو نعيم في: الحلية: 4/ 166.

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48) وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي واذكر يوم نسير الجبال، ويجوز أن يكون المعنى: وخير أملاً يوم نسير الجبال، وتسييرها قلعها، فإن الله تعالى يقلعها عن وجه الأرض يومئذٍ فيسيرها في الهواء كما يسير السحاب في الدنيا ثم يجعلها هباء منبثاً فتعود في الأرض حتى لا يبقى شيء يسيرها، وكذلك قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة مستوية لا يستر شيء شيئاً، ولو كان يبقى شيء من الجبال والأشجار والبنيان لم تكن الأرض بارزة.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ يعني المؤمنين والكافرين، أي بعثناهم من قبورهم ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك منهم أحداً في قبره لنسيان ولا عفو.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أن الناس كلهم يعرضون على الله تعالى مصفوفين كل زمرة وأمة صف، فيكونون صفاً بعد صف كصفوف الصلاة، إلا أنهم صف واحد.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي أعدناكم كما خلقناكم أول مرة. قال ابن عباس معناه: حفاة عراة ليس معهم شيء مما اكتسبوه في الدنيا كما في أول الخلق. قال صلى الله عليه وسلم: «**يحشر الناس يوم القيامة من قبورهم حفاة عراة غرلاً**»[1]. فقالت عائشة: واسوأتاه يا رسول الله، أما يستحي بعضهم من بعض؟! فقال صلى الله عليه وسلم: «**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**»[2].

(1) الغرل بوزن فعل، جمع أغرل: وهو الأقلف. والغرلة والقلفة: الذي لم يختن (النهاية، باب: غرل).

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 193، والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 7/ 107، رقم: 2539.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي بل زعمتم في الدنيا أن لن نجعل لكم أجلاً للبعث. وهذا خطاب لمنكري البعث خاصة.

قوله عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي كتاب كل إنسان في يده بعضهم في اليمين وبعضهم في الشمال ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي المذنبين وهم المشركون ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفين مما في الكتاب يدعون على أنفسهم بالويل والثبور ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ قال ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة: الضحك. وقال ابن جبير: الصغيرة: المسيس والتقبيل، والكبيرة: الزنا[1]. والمعنى: لايترك صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا إلا أثبتها.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي وجدوا ما عملوا مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا ينقص من حسنات أحد ولا يزيد في سيئات أحد ولا يعاقب بغير جرم. روي أن الفضيل بن عياض كان إذا قرأ هذه الآية قال: ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر[2].

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (50) مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد تقدم تفسيره فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قد تقدم أيضاً الاختلاف في أنه كان من الملائكة أم من الجن، والصحيح أنه من بني الجان: وهم جنس غير جنس الملائكة، لأن الملائكة رسل الله، ولا يجوز على رسول من رسل الله أن يكفر.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 211.

(2) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي خرج عن طاعة ربه، وقيل: رد أمر ربه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ هذا استفهام بمعنى الإنكار يقول كيف تطيعونه وقد فسق؟ وهو اليوم عدو لكم، بئس ما استبدل الظالمون عن رب العزة إبليس لعنه الله، حيث تركوا طاعة من خلقهم، وأنعم عليهم، ويجازيهم بجنة الخلد، وأطاعوا من يؤديهم إلى العقاب الدائم.

قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ قال قتادة والحسن: يعني أولاد إبليس وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. قال مجاهد: فمن ذرية إبليس: ولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة، وزلنبور صاحب راية إبليس بكل سوق، وثبر صاحب المصائب يأمر بضرب الوجه والدعاء بالويل والثبور وغير ذلك، والأعور وهو صاحب أبواب الزنا، ومسوط وهو صاحب الأخبار يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يوجد لها أصل[1]، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره في المتاع ما لم يرفع ولم يوضع في موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله عليه أكل معه. ومن أولاد إبليس أيضاً: الهفاف ومرة وبه يكنى أبا مرة. وقال ابن زيد: إن إبليس أبو الجن، كما أن آدم أبو الإنس. قال الله تعالى لإبليس: إني لا أخلق لآدم ذرية إلا جعلت لك مثلها، فليس من ولد آدم أحد إلا وله شيطان قرن به[2].

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إبليس وذريته. والمعنى: ما أطلعتهم على خلق السموات والأرض ولا أحضرتهم عليه ولم يكونوا موجودين يوم خلقت السموات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، ولا أعطيتهم العلم بكيفية خلق الأشياء، ولو كنت ممن أستعين بأحد ما استعنت بالمضلين، فكيف والاستعانة علي مستحيلة إذا أردت خلق شيء كان. والمعنى: إنكم اتبعتم الشياطين كاتباع من يكون عنده علم باطن الأشياء، وأنا ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 575.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 212، النحاس، إعراب القرآن: 2/ 460.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي ما كنت متخذ الشياطين الذين يضلون الناس أعواناً يعضدونني. ومن قرأ: وما كنت ـ بالفتح[1]، فالمعنى: وما كنت يا محمد لتتخذ المضلين أنصاراً.

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (52) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا (54)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي: الأصنام والشيطان وذريته ليدفعوا عنكم عذابي ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي فلم يجيبوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي جعلنا بين العابد والمعبود من العذاب ما يوبقهم، أي يهلكهم، وقيل معناه: وجعلنا بينهم وبين المؤمنين، أي بين أهل الهدى وأهل الضلالة موبقاً قال عبد الله بن عمر: هو واد في جهنم من الصديد والقيح والدم يفرق به يوم القيامة بين أهل لا إله إلا الله ومن سواهم. وقال عكرمة: هو نهر من النار يسيل ناراً على حافتيه حيات مثل البغال الدهم. وقال الضحاك معناه: وجعلنا بينهم مهلكاً. وقال الحسن: عداوة[2]، ويقال: أوبقه الله أي أهلكه، ووبق أي هلك. قرأ حمزة: ويوم نقول ـ بالنون[3].

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي ورأى المشركون النار مسيرة أربعين سنة وأيقنوا أنهم داخلوها ولم يجدوا عنها معدلاً يعدلون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب والمواقعة: ملامسة الشيء بشدة، ومنه وقائع الحرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا لهم من كل مثل يحتاجون إليه في أمر دينهم ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ في تكذيب الرسل وما جاؤوا به من الآيات. قيل: أراد الإنسان:

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 414.
(2) ذكر الثعلبي قول ابن عمر وما بعده في تفسيره، ورقة: 212.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 393.

النضر بن الحارث وجادله في القرآن، وقال الكلبي: يعني أبي بن خلف، ويقال معناه: ليس شيء من الملائكة والجن والشياطين وسائر الأصناف أجدل من الإنسان. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أعطوا الجدل**»[1].

قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿55﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿56﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿57﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿55﴾﴾ أي ما منع أهل مكة أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم جاءهم من عند الله بالرشاد ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي يتوبوا من الكفر ما منعهم من ذلك إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين وهو أنهم إذا لم يؤمنوا جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون أو مقابلة من حيث يرون هذه الآية فيمن قتل من المشركين ببدر وأحد، وهو قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عياناً مقابلة. وقرأ أهل الكوفة: قبلاً ـ بضم القاف والباء[2]، جمع قبيل أي صنوف من العذاب وضروب منه مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ظاهر المعنى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي يخاصم الذين كفروا بالكتاب والرسل بالحجة الباطلة ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليطلبوا به الإسلام والقرآن. قال ابن عباس: يعني المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم. يقال: دحضت حجته إذا بطلت.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿56﴾﴾ أي اتخذوا القرآن وما

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 341، رقم: 8438، باب في حسن الخلق.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 393.

خوفوا به من النار والقيامة هزؤاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي ليس أحد أظلم ممن وعظ بالقرآن وما فيه من الوعيد ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي تهاون بها ولم يتفكر فيها.

قوله تعالى: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي وترك ذكر ما عملت يداه وتغافل عن ذكره ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾أي أغطية لئلا يفهموا الهدى، وجعلنا في آذانهم وقراً لئلا يسمعوه.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إن تدعهم إلى الإيمان وإلى القرآن فلن يهتدوا. أخبر الله أن هؤلاء طبع على قلوبهم.

قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿58﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿59﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي الغافر الساتر على عباده، ذو الرحمة حين لم يعاجلهم بالعقوبة، لو يؤاخذهم بعقاب ما كسبوا لعجل لهم العذاب في الحال، بل لعدى بهم أجل ضربه الله ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي ملجأً ولا منجياً.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي القرى الماضية قرى عاد وثمود لما أشركوا. والمراد أهل القرى ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي لوقت إهلاكهم أجلاً.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿60﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿61﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ

لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿62﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿63﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ أي واذكر إذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون. قال ابن عباس: وقصة ذلك أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه فقال له: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: كيف لي به؟ يا رب دلني عليه؟ فقال: تأخذ معك حوتاً وتمضي إلى شاطىء البحر، فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً من السمك وجعله في مكتل، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون إلى شاطىء البحر، فأويا إلى صخرة عندها ماء تسمى عين الحياة، فجلس يوشع بن نون يتوضأ من تلك العين، فانتضح من ذلك الماء على الحوت فحيي فوثب في الماء ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿63﴾﴾ أي اتخذ الحوت طريقاً في البحر مسلكاً يابساً، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿سَرَبًا﴾ أي ذاهباً. فقام يوشع حين رأى ذلك من الحوت وذهب إلى موسى ليخبره بذلك فنسي، وذهبا يومهما ذلك حتى صليا الظهر من الغد، فنصب موسى: أي تعب فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي تعباً[1]. ومعنى الآية: وإذ قال موسى لفتاه لا أزال أمضي حتى أبلغ الموضع الذي يلتقي فيه بحر فارس والروم، وأمضي سنين كثيرة. والحقب: جمعه أحقاب، وقد تسكن قافه فيقال: حقب، والحقب ثمانون سنة، وقيل: سبعون سنة بلغة قريش[2]. ويسمى يوشع فتاه لأنه كان يخدمه ويلازمه في السفر والحضر للعلم منه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي الموضع الذي يجتمع فيه ماء البحرين، نسي صاحب موسى أن يخبره بخبر الحوت. قال المفسرون: وكان حوتاً في زنبيل، وكانا يأكلان منه عند الغداء والعشاء، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه الزنبيل، فأصاب الحوت من الماء الذي ذكرناه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 580.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 463.

شيء، فتحرك في الزنبيل فانسرب في البحر. وقد كان قيل لموسى: تزود معك حوتاً مالحاً فحيث تفقد الحوت فهناك تجد الرجل العالم. فلما انتهيا إلى الصخرة قال موسى لفتاه: امكث هنا حتى آتيك. وانطلق لحاجته فجرى الحوت في البحر، فقال فتاه: إذا جاء نبي الله أخبرته بذلك فأنساه الشيطان، فذلك قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وإنما نسي يوشع أن يذكر قصته لموسى، وأضاف النسيان إليهما توسعاً لأنهما جميعاً تزوداه، كما يقال: نسي القوم زادهم، وإنما نسيه أحدهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿63﴾﴾ أي جعل الحوت يضرب بذنبه في البحر فلا يضرب شيئاً وهو ذاهب إلا يبس موضعه كهيئة السرب. قال قتادة: جعل لا يسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً[1]. وقال الربيع: انحاث الماء عن مسلك الحوت في الماء فصار كوة لم يلتئم. والسرب في اللغة: المحفور في الأرض. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**انحاث الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم، فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر**»[2]. قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من الماء إلا يبس حتى صار صخرة[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿62﴾﴾ أي لما جاوز رأس البحرين قال موسى ليوشع: ائتنا بما نتغدى به لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً ومشقة. فلما قال له موسى ذلك تذكر قصة الحوت فقال له: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة عند رأس البحرين فإني نسيت ما رأيت هنالك من أمر الحوت أن أذكره لك يا نبي الله، وما شغلني عن ذكره لك إلا وسوسة الشيطان واتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً، أي سبيلاً عجباً، وهو أن الماء انجاب عنه وبقي كالكوة لم يلتئم.

قوله تعالى:

---

(1) تفسير القرطبي: 11/ 12.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 213.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 582.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ أي قال موسى: ذلك الذي كنا نطلب دلالة لنا من الله تعالى موضع الخضر ونريد من العلامة. ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ أي رجعا وعادا في الطريق الذي جاءا منه يقصان آثارهما قصصا. والقصص: اتِّباع الأثر، ومنه قوله: ﴿قُصِّيهِۖ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر. قال ابن عباس: وذلك أنهما حين انتهيا إلى الصخرة، جعل يوشع يري موسى مكان الحوت وأثره في الماء، وكان موسى يتعجب من ذلك، إذ وقع بصر موسى على رجل قائم يصلي، فانتظره حتى فرغ فسلم عليه، فرد عليه السلام. وإنما سمي الخضر لأنه إذا صلى في مكان اخضر ما حوله[2].

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي أكرمناه بالنبوة وعلمناه من عندنا علماً ببواطن الأمور. قال ابن عباس: أعطاه علماً من علم الغيب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ أي بأن تهديني إلى الصواب. ويجوز أن يكون معنى رشداً: ترشدني به. والرشد والرشد لغتان. قال قتادة: لو كان أحد مكتفياً عن العلم لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت؟ وقال الزجاج: إن في فعل موسى عليه السلام، وهو من كبار الأنبياء، من طلب العلم والرحلة فيه دليلاً على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن

(1) سورة القصص (28)، الآية: 11.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 213.

يتواضع لمن هو أعلم منه[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿67﴾﴾ أي قال الخضر لموسى: إنك ترى مني شيئاً لا تصبر عليه، وكيف تصبر على ما ظاهره منكر والأنبياء والصالحون لا يصبرون على ما يرونه منكراً. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أراه منك ولا أعصي لك أمراً تأمرني به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أي قال الخضر لموسى: فإن اتبعتني فلا تسألني عمّا أنكرت فعله، ولا تعجل في المسألة عنه حتى أبيّن لك الوجه فيه وأفسره لك لأنه قد غاب علمه عنك.

قوله تعالى:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿71﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿72﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿73﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿74﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿75﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿76﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي فمضيا حتى إذا ركبا في السفينة ثقبها الخضر، وذلك أنهما لما مشيا على الساحل مرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما، فحملوهما بغير أجرة حين عرفوا الخضر. قال ابن عباس: فلما ركبا في السفينة أخذ الخضر بيده فأساً ومنقاراً وأكب على السفينة يخرقها، فقال أهل السفينة: ننشدك الله تعالى أن لا تخرقها. فأتاه موسى فقال له: يا عبد الله لا يحل لك هذا فإنك تغرقهم. فلم يكلمه الخضر حتى خرق السفينة. قيل إنه قلع لوحين مما يلي الماء فحشاهما موسى بثوبه وقال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي منكراً، ثم تنحى موسى فجلس وقال: ما حاجتي في اتباع هذا الرجل الذي يظلم الناس،

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 301.

كنت في بني إسرائيل أقرأ عليهم التوراة بكرة وعشية ويقبلون مني، فتركت ذلك وصحبت هذا الظالم. فقال له بعدما أخرج أهل السفينة متاعهم إلى الساحل: أتدري ما تحدث به نفسك؟ قال: وما هو؟ فأخبره بما حدث به نفسه[1]، ثم قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بما تركت من عهدك ووصيتك، وقيل: أراد به النسيان الذي هو ضد الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي لا تكلفني مشقة وعاملني باليسر لا بالعسر، ولا تضيق عليّ في صحبتي إياك. وأصل الرهق: الغشيان. يقال: رهق الفارس فلاناً إذا غشيه فأدركه.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قال سعيد بن جبير: وجد الخضر غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً وضيء الوجه. قال ابن عباس: كان من أحسنهم وأصبحهم، فأخذه من بينهم فصرعه وذبحه بالسكين، وكان غلاماً لم يبلغ الحنث، وقيل: إنه اجتذب رأسه فقلعه، نزع رأسه من جسده، وقيل: رفسه برجله فقتله، وقيل: ضرب رأسه بجدار فقتله. وكان اسم الغلام خشيود، وقيل: حيسور. فقال له موسى حين رأى ذلك: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي أقتلت نفساً بريئة من الذنوب لم تجن ما يوجب قتلها؟[2].

قال أبو بكر الحداد:

ومن قرأ: زاكية[3]، فمعناه: طاهرة من الذنوب لم يبلغ الحلم ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع. وقد اختلفوا في هذا الغلام أنه كان بالغاً أو لم يكن بالغاً، إلا أن قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ دليل على أنه كان بالغاً، لأن غير البالغ لا يقتل وإن قتل غيره، وكان هذا الغلام يقطع الطريق ويلجأ إلى أبويه فيحلفان دونه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(1) تفسير القرطبي: 11/ 18 ـ 19.
(2) تفسير القرطبي: 11/ 20 ـ 21.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 395، الفراء، معاني القرآن: 2/ 155.

«**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً**»[1].

قوله تعالى: ﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً عظيماً. قال القتيبي: المنكر أبلغ من الأمر في الإنكار، لأن قتل النفس أشد من خرق السفينة. وقال الزجاج: الأمر أبلغ من الإنكار، لأن خرق السفينة يوجب غرق أهلها وذلك أعظم من قتل نفس واحدة[2].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿75﴾﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه الكرة فلا تصاحبني إن طلبت صحبتك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي بلغ من عندي إلى وقت العذر روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**رحم الله أخي موسى استحيا فقال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ولو ثبت مع صاحبه لأبصر العجائب**». قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قرأه العامة بتشديد النون وهو الأجود، لأن أصل «لدن» الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً ليسلم سكون النون الأولى كما تقول: عن زيد وعني، ومن قرأ بتخفيفها قال: لدن اسم غير متمكن فيجوز حذف النون منه[3].

قوله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿77﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿78﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ قيل هي قرية

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 4/ 205 من حديث أبي بن كعب، والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 596، رقم: 5158، تفسير سورة الكهف، وأبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 472، رقم: 4680، باب في القدر.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 303.

(3) ابن مجاهد، السبعة: 396.

أنطاقية[1]. وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ أي سألاهما الطعام ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «**كانوا أهل قرية لئاماً**»[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ أي جداراً مائلاً مشرفاً على الانهدام يكاد يسقط بسرعة. قال وهب: كان جداراً طوله في السماء مائة ذراع. وأما قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ هذا من كلام العرب، لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه: قرب ودنا. قوله تعالى: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قال ابن عباس: هدمه ثم أعاد بناءه. وقال ابن جبير: مسح الجدار ورفعه بيده فاستقام[3].

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قرأ أبو رجاء: يضيفوهما مخففة[4]. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**كانوا أهل قرية لئاماً**». وقال قتادة في هذه الآية: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه[5].

قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قال له موسى: لو شئت لاتخذت على إقامتك للجدار جعلاً نأكله. وقرىء: لتخذت[6]، ومعناه معنى الأول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ أي هذا الكلام والإنكار على ترك الأجر هو الفراق بيننا، لأنك قد حكمت على نفسك. وقيل معناه: هذا فراق بيننا، أي فراق اتصالنا. والبين من الأضداد.

قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿78﴾﴾ أي سأخبرك بتأويل الأشياء التي رأيتها مني فلم تصبر عليها.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 431.
(2) ذكره البغوي، معالم التنزيل: 3/ 589 عن أبي بن كعب.
(3) البغوي في المصدر السابق.
(4) أبو رجاء العطار: تقدمت ترجمته. (تفسير الثعلبي: 214).
(5) تفسير القرطبي: 11/ 25.
(6) ابن مجاهد، السبعة: 396.

قوله تعالى:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿79﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿80﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿81﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿82﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يعني السفينة التي ثقبتها كانت لفقراء يعملون في البحر لم يكن لهم مال غيرها وكانوا يعملون عليها ويأخذون أجرتها، فأردت أن أعيبها بالخرق، وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً. وقد يذكر وراء بمعنى قدام، وفيه دليل أن للوصي أن يعيب مال اليتيم إذا رأى فيه مصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي الغلام الذي قتله كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فلذلك قتلته. وكان قد أعلمه الله بذلك. قال صلى الله عليه وسلم: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً**». رواه مسلم في الصحيح[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿81﴾﴾ أي فأراد الله أن يبدلهما ولداً خيراً منه صلاحاً وطهارة. قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي وأوصل للرحم وأبر بوالديه قال ابن عباس: أبدلهما الله جارية تزوجها نبي من الأنبياء فولدت سبعين نبياً[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي في القرية المذكورة، وكان اسم اليتيمين: أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قيل إنه كان مالاً، وقيل كان علماً.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 591.

قال أبو بكر الحداد:

وعن ابن عباس أنه كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله. عجبت لمن أبصر الموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها[1]. وقيل: كان ذهباً وفضة.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي كان ذا أمانة وكان يقال له: كاشح، وقيل: إنه كان من الأنبياء. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً. قال جعفر بن محمد: كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء. وعن محمد بن المنكدر قال: إن الله تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل دويرات حوله وأسرته التي هو فيها، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي فأراد ربك بالأمر بتسوية الجدار إلى أن يكبرا ويعقلا ويستخرجا كنزهما نعمة من ربك ـ وهذا نصب على المصدر ـ أي رحمهما الله تعالى بذلك رحمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وإنما فعلته بأمر الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وأصله: تستطع، إلا أن الطاء والتاء من مخرج واحد فحذفت التاء لما اجتمعا ليخف اللفظ. ويروى أن الخضر لما أراد أن يفارق موسى قال له موسى: أوصني. قال: يا موسى انزع عن اللجاجة، ولا تمش لغير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير المذنبين بخطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران[3].

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 11/ 38 مع بعض الاختلاف في ترتيب العبارات.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 215.
(3) تفسير القرطبي: 11/ 45.

قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (87)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83)﴾ يعني يسألك اليهود يا محمد عن خبر ذي القرنين، قل سأتلو عليكم خبره. قال مجاهد: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان سليمان، وذو القرنين، والكافران النمروذ وبختنصر[1]. واختلفوا في تسميته بذي القرنين فقال بعضهم: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه بلغ قطري الأرض، وكان اسمه اسكندر.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكناه في الأرض ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (84)﴾، أي من كل شيء يستعين به الملوك على فتح المدائن ومحاربة الأعداء. سببا: أي بلاغاً إلى حيث أراد. وقيل: قربنا له أقطار الأرض كما سخرنا الريح لسليمان. وقال علي رضي الله عنه: سخر له السحاب فحمله عليه، ومد له في الأسباب، وبسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواء[2]. وهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنه سهل عليه المسير فيها، وذلل له طرقها.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)﴾ أي طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي إلى قوم لم يكن بينهم وبين مغرب الشمس أحد، لأن أحداً لا يمكنه أن يبلغ موضع غروب الشمس.

قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي رآها تغرب في الماء، وقيل:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 215.

(2) تفسير القرطبي: 11/ 48.

في عين ذات حمأة وهي الطين الأسود المنتن. ويقرأ: حامية: أي حارة، وهي قراءة العبادلة الثلاثة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو، وابن عامر، وأهل الكوفة[1].

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي عند العين ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قيل: في هذا دليل أن ذا القرنين كان نبياً، لأن الإنسان لا يعلم أمر الله إلا بالوحي، ولا يجوز إلا إلى الأنبياء. وقيل: كان معه نبي، فأوحى الله إلى ذلك النبي. وفي الجملة لا يمكن إثبات النبوة إلا بدليل مقطوع به. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذي القرنين فقال: هو ملك يسيح في الأرض. قال ابن الأنباري: إن كان نبياً فإن الله قال له كما قال للأنبياء إما بتكليم أو بوحي، ومن قال لم يكن نبياً قال: معنى قوله: ﴿قُلْنَا﴾ ألهمنا، كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[2] أي ألهمناها.

قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي قلنا له إما أن تقتلهم على الكفر إن أبوا الإسلام، وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي من أشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي نقتله، وكل من أشرك فقد ظلم نفسه، ثم يرد إلى ربه في الآخرة بعد قتلي إياه ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ يعني في النار أنكر من القتل وأعظم.

قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي فله في الآخرة

---

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات: 398، تفسير الثعلبي، ورقة: 215.
(2) سورة القصص (28)، الآية: 7.

جزاءً الحسنى، أي الجنة بالطاعة التي عملها في الدنيا. قرأ أهل الكوفة: جزاء الحسنى ـ نصباً[1]، وهو مصدر وقع موقع الحال، أي فله الحسنى مجزياً بها. قال ابن الأنباري: جزاء ـ نصب على المصدر، أي فيجزى الحسنى جزاء.

قوله تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي سنأمره في الدنيا بما يتيسر عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿89﴾﴾ أي سلك طريقاً آخر نحو الشرق.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي حتى إذا انتهى إلى آخر العمارة من جهة الشرق وجد الشمس تطلع على قوم لم يكن لهم جبل ولا شجر ولا شيء يسترهم عن الشمس. قال الكلبي: حفاة عراة يفترش أحدهم أذنه ويلبس الأذن الأخرى[2].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿91﴾﴾ أي وجد قوماً كذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس، وقيل معناه: كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي بما عنده وما معه من الملك والجيوش والآلات خبراً، أي علماً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿92﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ أي ثم أتبع سبباً ثالثاً مما يبلغه قطر من أقطار الأرض، وقيل: ثم اتبع طريقاً من الشرق نحو الروم، حتى إذا بلغ بين الجبلين الذين جعلوا الردم بينهما وهما السدان. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: السدين ـ بفتح السين، وقرأ الباقون بضمها[3]، وهما لغتان. وجد من دون الجبلين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يكادون يفقهون قول غيرهم ولا يعرفون غير لغتهم. قرأ حمزة والكسائي وخلف: يفقهون ـ بضم الياء وكسر القاف[4]، ومعناه: لا يكادون يفقهون أحداً قولاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يفهمون كلام أحد ولا أحد يفهم كلامهم.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 398 ـ 399، إعراب النحاس: 2/ 471.

(2) تفسير القرطبي: 11/ 53.

(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 417.

(4) المصدر نفسه.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿95﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿96﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿97﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قالوا بإشارة وترجمان، لأنه قد تقدم أنهم لا يفقهون قولاً: إن يأجوج ومأجوج: وهما قبيلتان من أولاد يافث بن نوح مفسدون في الأرض، يفسدون أموال الناس، لأنهم كانوا أهل بغي وظلم.

قال أبو بكر الحداد:

وقال الكلبي: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء الذين شكوهم إلى ذي القرنين وذلك أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه. وعن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج قال: «**يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمائة ألف لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حملوا السلاح**». قلنا: يا رسول الله صفهم لنا. فقال: «**هم ثلاثة أصناف صنف طول الرجل منهم مائة وعشرون ذراعاً، وصنف طوله وعرضه سواء نحواً من الذراع، وهم الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش كل رجل إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا جمل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه. لهم مخالب في أيديهم وأضراس كأضراس السباع وأنياب تسمع لها حركة كحركة الجرس في حلوق الإبل، ولهم من الشعر في أجسادهم ما يواريه وما يتقي به الحر والبرد، يعوون عواء الذئاب، ويتسافدون تسافد البهائم حين التقوا**»[1]. قال وهب: يشربون ماء البحار ويأكلون دوابها ويأكلون الخشب والشجر، ومن ظفروا به من الناس أكلوه. وقال كعب: هم زيادة في ولد آدم

---

(1) تفسير القرطبي: 11/ 56 ـ 57.

وذلك أن آدم احتلم ذات يوم في الأرض فامتزجت نطفته في التراب فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، وهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم[1]. وقال ابن عباس: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء، وقيل: إن الترك منهم إلا أن أولئك أشد فساداً من الترك، فتباعدوا عن الناس كما تنعزل اللصوص، ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لا ينصرفان، لأنهما معرفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي قالوا له: هل نجعل لك بعضاً من أموالنا ضريبة في كل سنة على أن تجعل بيننا وبينهم سداً حاجزاً؟ وردمت الباب أي سددته. والخرج والخراج واحد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي قال لهم ذو القرنين: ما مكني الله من الاتساع في الدنيا خير من خراجكم الذي تبذلونه لي. يريد ما أعطاني وملكني أفضل من عطيتكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بالرجال والآلات أجعل بينكم وبينهم ردماً. الردم: أشد الحجاب وهو أكبر من السد.

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي أعطوني قطع الحديد. والزبرة: القطعة. فأتوه بها فبناه حتى إذا ساوى بين الصدفين أي حتى إذا ملأ بين الجبلين. وسماهما صدفين لأنهما يتصادفان، أي يتقابلان.

قال أبو بكر:

فلما وضع بينهما الحديد وجعل بين كل قطعتي حديد حطباً حتى ملأ ما بين الجبلين، وأمر بالنار فأرسلت فيه، وقال للحدادين انفخوا بالمنافيخ، حتى إذا صار الحديد كالنار قال: أعطوني قطراً: وهو النحاس الذائب أصبه على الحديد والحطب فيتقطر كما يتقطر الماء، ففعل حتى إذا دخل بعضه في بعض وصار الجميع شيئاً واحداً جبلاً صلداً من حديد ونحاس، قيل: إنه حفر له الأساس حتى إذا بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً ثم علاه وشرفه.

---

(1) قال القرطبي في تفسيره: 11/57، وهذا فيه نظر، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ أي ما قدروا أن يعلوه لارتفاعه وملامسته، وما قدروا أن يثقبوه من أصله لشدته وصلابته. وعن أبي هريرة أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم ثم يقولون نرجع إلى غد ونجيء أيضاً نحفره فيأتونه غداً وقد أعاده الله كما كان قبل أن يحفروه[1].

قوله تعالى:

﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي قال لهم ذو القرنين لما فرغ من بنائه: هذا التمكين الذي أدركت به السد رحمة من ربي من حيث ألهمني وقواني ورحمة من ربي عليكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي وقت أشراط الساعة جعل السد كسراً. ومن قرأ: دكاً، فمعناه: أرضاً منبسطة[2]. يقال: ناقة دكياء: إذا لم يكن لها سنام ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ أي كان تقديره لخروجهم صدقاً كائناً.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أي تركنا يأجوج ومأجوج يوم انقضاء أمر السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم. يقال: ماج الناس: إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء، فيخرجون على الناس فيشربون المياه ويأكلون الدواب، ومن ظفروا به من الناس أكلوه، فإذا كثر فسادهم في الأرض بعث الله عليهم نغفاً[3] فيقتلهم فيموتون موت الجراد.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ يعني النفخة الثانية التي تكون للحشر يحشر بها الناس من قبورهم ويجمعون جمعاً في الموقف.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي وظهرنا جهنم يوم

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 218.

(2) ابن مجاهد، السبعة: 402.

(3) النغف ـ بالتحريك: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، واحدتها نغفة.

القيامة حتى يروا جزاء أعمالهم معاينة.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي أظهرنا جهنم حتى يشاهدها الذين كانت أعين قلوبهم في غطاء عن ذكري بما ركبها من الرين والغشاوة ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي كان يثقل عليهم سماع ذكر الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا (102) قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (103) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا (104) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا (105) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ أي أفحسب الكفار أن ينفعهم اتخاذهم عبادي مثل المسيح والملائكة الذين عبدوهم من دوني أرباباً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ أي جعلناه منزلاً ومأوى لهم، ومعدة لهم عندنا كما يهيأ المنزل للضيف.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (103)﴾ أي قل يا محمد: هل نخبركم بالأخسرين أعمالاً في الآخرة، يعني كفار أهل الكتاب. وقال علي رضي الله عنه: هم الرهبان والقسيسون الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع[1]. وقيل: هم جميع اليهود والنصارى الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا[2]، أي بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ أي وهم يظنون أنهم يعملون عملاً صالحاً، ثم بيّن من هم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي جحدوا دلائل توحيده وأنكروا البعث بعد الموت فحبطت أعمالهم، أي بطلت حسناتهم التي عملوها مثل صلة الرحم والإحسان إلى الناس فلا يرون سعيهم

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 219.
(2) نسبه الثعلبي في تفسيره إلى سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس (ورقة: 219).

مثل الكفر شيئاً، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي ذلك الإحباط جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي، أي واتخاذهم القرآن ونبوة أنبيائهم هزؤاً يستهزئون بها.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿107﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿108﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿109﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿107﴾﴾ الفردوس في اللغة: جنة ذات كروم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها منها تتفجر الأنهار الأربعة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**»[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «**جنات الفردوس أربع: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما من فضة، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما من ذهب**». وقيل: خلق الله الفردوس بيده يفتحها كل يوم خمس مرات فيقول: ازدادي حسناً وطيباً لأوليائي. وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأفضلها وأرفعها[2]. وقال أبو أمامة: الفردوس سرة الجنة[3]. وقال كعب: ليس في الجنة جنة أرفع من الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر[4].

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿108﴾﴾ أي مقيمين فيها لا يطلبون

---

(1) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 6/ 87، رقم: 2790، وأحمد في مسنده: 5/ 316.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 605.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 456.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 605.

عنها تحويلاً. قال صلى الله عليه وسلم: «**إن الفردوس أرفع موضع في الجنة وأحسنه**».

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية.. وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] قالت اليهود والنصارى: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة فيها علم كل شيء. فأنزل الله هذه الآية[2]، أي ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ لعلم ربي وحكمه، فتكتب من البحر كما تكتب من المداد لنفد البحر ولتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ بمثل البحر مداداً لهذا البحر. ويقال: أراد بكلمات ربي معاني القرآن والأحكام المستنبطة منه. والمدد: هو الجاري شيئاً بعد شيء.

قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي قل يا محمد إنما أنا آدمي مثلكم. قال ابن عباس: علم الله نبيه التواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره، إلا أنه أكرم بالوحي[3]، وهو قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي يخشى لقاء ربه، ويقال: فمن كان يؤمل لقاء ربه ويخاف البعث والمصير إليه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي خالصاً لا يرائي في عبادة الله أحداً، ولا يشرك مع الله غيره في العبادة. وقال سعيد بن جبير معناه: لا يرائي. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ولم يقل: ولا يشرك به، لأنه أراد العمل الذي يعمله لله، ويحب أن يحمده عليه. وقال الحسن: هذا فيمن أشرك بعمله يريد

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 85.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 245، ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 457.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 606.

الله به والناس. وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من صلى صلاة يرائي فيها فقد أشرك، ومن صام صوماً يرائي فيه فقد أشرك**». وقرأ هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]. وعن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من قرأ سورة الكهف فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون فيها، ومن قرأ الآية التي في آخرها حين يأخذ مضجعه كان له نور يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون[2] عليه حتى يقوم من مضجعه، وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ**». وقال صلى الله عليه وسلم: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره**»[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية[4] أيام من كل فتنة تكون، فإذا خرج الدجال عصم منه**»[5].

وبالله التوفيق.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 4/ 329، والهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 54.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 371د والهيثمي في مجمع الزوائد: 10/ 126.

(3) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 6/ 92، فضل سورة الكهف، وأبو داود في سننه: عون المعبود: 11/ 451، رقم: 4301، باب خروج الدجال.

(4) في النسخة (س): ستة.

(5) ذكره ابن كثير في تفسيره: 3/ 71.

سورة مريم

سورة مريم مكية، وهي ثلاثة آلاف وثمانمائة حرف، وتسعمائة واثنتان وستون كلمة، وثمان وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (2) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7)﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿كٓهيعٓصٓ (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (2)﴾ قال ابن عباس: أول هذه السورة ثناء أثنى به الرب على نفسه، فالكاف: من كافٍ، والهاء: من هادٍ، والياء: من حكيم، والعين: من عليم، والصاد: من صادق وصمد، وقيل معناه: كاف لخلقه، وهاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بتربيته صادق في وعده[1]. قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (2)﴾ أي هذا ذكر رحمة ربك على زكرياء، أو ما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك وعبده

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ، الورقة 1.

منصوب بالرحمة[1]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③﴾ أي إذ دعا ربه سراً في جوف الليل مخلصاً لم يطلع عليه إلا اللَّه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف العظم مني. قال قتادة: اشتكى[2] ذهاب أضراسه، والوهن في اللغة: نقصان القوة ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ يقول شخت وضعفت ومن الموت قربت، والاشتعال: انتشار شعاع النار، واشتعاله في الشيب من أحسن الاستعارة، لأنه ينتشر في الرأس كما ينتشر شعاع النار. قوله تعالى: ﴿شَيْبًا﴾ نصب على المصدر. وهذا يدل على أنه أفضل الدعاء دعاء السر كما قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**خير الدعاء الخفي، وأفضل الرزق ما يكفي**»[3]. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي كنت تجيبني إذا دعوتك، وقد عودتني الإجابة فيما مضى فلم لا تجيبني؟ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي خفت العصبة وبني العم أن يرثوا علمي دون من كان من نسلي، ويقال خفتهم على الدين من ورائي لأنهم كانوا من شرار بني إسرائيل، قرأ يحيى بن يعمر: خفّت بفتح الخاء وتشديد الفاء، وكسر التاء، والموالي بسكون الياء يعني ذهبت الموالي وقلت[4]. وقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي من بعد موتي.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي عقيماً من الولد، والرجل العاقر الذي لا يولد له، وامرأته هي أخت أم مريم بنت عمران بن ماثان. قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤﴾ أي أعطني من عندك ولداً يرث نبوتي ومكاني، ويرث من آل يعقوب العلم والنبوة. أراد بذلك يعقوب بن ماثان وهم أخوال يحيى، وبنو ماثان كانوا رؤساء بني إسرائيل، وليس يعقوب هذا أبا يوسف. قرأ أبو عمرو والكسائي: يرثني ويرث ـ بالجزم ـ فيهما على جواب الدعاء، وقرأ الباقون برفعهما على الحال أو الصفة[5]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيًّا﴾

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 624.
(2) في النسخة: س، شكا.
(3) رواه أحمد في المسند: 1/ 180.
والبيهقي في شعب الإيمان: 1/ 406، رقم: 552.
(4) ابن جني، المحتسب: 2/ 37.
والنحاس في إعراب القرآن: 3/ 5.
(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 9.

أي وارثاً. قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي وفقه للعمل حتى يصير ممن ترضاه. وقال أبو صالح معناه: واجعله ربِّ نبياً كما جعلت آباءه، وقيل: اجعله صالحاً تقياً براً مرضياً[1]، وذهب بعض المفسرين أن معنى قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ أي يرث مالي، إلا أن حمل الآية على ميراث العلم أولى لأن الأنبياء كانوا لا يشحون بالمال، ولا يأسفون على مصير المال بعد موتهم إلى مستحقه، ولأنه قال تعالى: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ولم يرد بذلك المال، ولأن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**»[2]. وإنما دعا زكرياء بالولد ليلي أمور الدين بعده لخوفه من بني أعمامه أن يبدلوا دينه بعد وفاته، وخاف أن يستولوا على علومه وكتبه فيحرقونها، ويؤاكلون الناس بها ويفسدون دينه ويصدون الناس عنه. قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ معناه: إن اللّه سبحانه استجاب له فأوحى إليه يا زكريا، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى أي يفرحك بغلام اسمه يحيى، وإنما سمي يحيى: لأن اللّه أحياه بالإيمان والحكمة. قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال الكلبي وقتادة معناه: لم يسمّ أحد قبله يحيى، وقال ابن جبير وعطاء: لم نجعل له شبيهاً ولا مثلاً لأنه لم يعص ولم يهم بمعصية، وقيل لم تلد العواقر مثله[3]، وإنما قال ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأنه تعالى أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم، وقيل إن اللّه تعالى لم يرد بهذا القول جمع الفضائل كلها ليحيى، وإنما أراد في بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله، وكانا أفضل منه.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 11/ 82.
(2) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 13/ 488، رقم: 6227، كتاب الفرائض.
رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 71، كتاب الجهاد والسير والفيء.
رواه مالك في الموطأ تنوير الحوالك: 2/ 156 ما جاء في تركة النبي صلى اللّه عليه وسلم.
(3) الثعلبي في تفسيره.

عِتِيًّا ﴿8﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا
﴿9﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
﴿10﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿11﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ
ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿12﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿13﴾ وَبَرًّۢا
بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿14﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا
﴿15﴾».

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ» أي قال زكرياء لجبريل يا سيدي من أين يكون لي ولد وكانت امرأتي عاقراً من الولد، وقد بلغت من الكبر إلى حال اليبس والجفاف، روي أنه كان له يومئذ بضع وتسعون سنة، والعُتيّ والعِتِيّ: هو الذي غيّره طول الزمان إلى اليبس. قال قتادة: إنما قال ذلك لنحول عظمه يقال: رجل عات إذا كان قاسي القلب غير لين، وقرأ حمزة والكسائي: عِتياً بكسر العين[1] وهما لغتان، وقد تقدم أن هذا القول من زكرياء لم يكن منه على جهة الإنكار، ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون، أيردُّهما إلى الشباب، أو يرزقهما الولد وهما على هذه الصفة؟ قوله تعالى: «قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» أي قال له جبريل هكذا قال ربك كما قلت لك، هو علي هين أي خلقه علي هين وقد خلقتك من قبل نجياً وكنت معدوماً. قرأ حمزة والكسائي: قد خلقناك من قبل ـ بالنون والألف[2] ـ قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً» أي قال زكرياء يا رب اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به لأتعجل المسرة؟ قال علامتك أن لا تقدر أنْ تكلم الناس وأنت سوي لا خرس بلسانك ولا آفة، فإنه كان يقرأ الزبور، ويدعو اللّه ويسبحه، ولكن اعتقل لسانه عن كلام الناس. وقوله تعالى: «سَوِيًّا» أي صحيحاً سالماً من غير بأس ولا خرس وسوياً منصوب على الحال. قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ» أي خرج عليهم من مصلاه متغير اللون وهم ينتظرونه فأنكروه، وقالوا مالك يا زكرياء «فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ» أي أشار إليهم

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 407.
(2) ابن مجاهد نفسه: ص 408.

وأومأ، ويقال كتب بيده ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي صلوا للّه غداة وعشية والسبحة الصلاة، والمعنى: أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشياً فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة ثم تكلم بعد ثلاث، وأتى امرأته على طهر فحملت بيحيى.

قوله تعالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي قال اللّه ليحيى بعدما بلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب: خذ الكتاب بقوة أي اعمل بما في التوراة بجد ومواظبة وصحة عزيمة. قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه الحكمة وهي الفهم لكتاب اللّه صبياً فكان يحيى عليه السلام على هيئة الصبيان وله عقل البالغين. وقال ابن عباس معناه: وآتيناه النبوة في صباه وهو ابن ثلاث سنين. وروي أنه مرّ بالصبيان وهو صغير فقالوا: تعال حتى نلعب، فقال: ما للعب خلقت[1]. قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ أي وآتيناه تحنناً على قومه ورقة قلب عليهم ليدعوهم إلى طاعة ربهم. وقوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي وعلماً صالحاً وإخلاصاً، وقيل جعلناه طاهراً من الذنوب، وقيل معناه: وحناناً من لدنا أي جعلناه رحمة من عندنا لأبويه وزكاة أي صدقة عليهما. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي مطيعاً مخلصاً لجميع ما يرضاه اللّه من عباده. قال المفسرون: وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا هم بها[2]. قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي عطوفاً لطيفاً بوالديه محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متكبراً في دينه ولا عاصياً لربه. قوله تعالى: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أي سلامة وسعادة منا عليه حين ولد وحين يموت وحين ﴿يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من القبر. وقال عطاء: يريد سلامة له منا في هذه المواضع. قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خائفاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، وأحكاماً لم يكن يعهدها، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم يره[3]. فخص اللّه يحيى بالكرامة والسلامة والسلام في المواطن الثلاثة. وعن الحسن أن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال له

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(2) القرطبي في تفسيره: 11/ 87.
(3) ذكره ابن كثير في تفسيره: 4/ 443.

عيسى استغفر لي فأنت خير مني، وقال يحيى: استغفر لي فأنت خير مني: فقال له عيسى: بل أنت خير مني، أنا سلمت على نفسي وأنت سلَّم اللَّه عليك[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿16﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿17﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿18﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿19﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿20﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿21﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿16﴾﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن خبر مريم ليعتبر الناس بدينها وصلاحها، والمعنى: اذكر خبرها لأهل مكة. قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ وتفردت ممن كانوا معها في الدار إلى مكان في جانب الشرق جلست فيه لأنها كانت في الشتاء، فجلست في مشرقة الشمس. وقال عكرمة: أرادت الغسل من الحيض فتحولت إلى مشرقة دارهم للغسل ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي من دون أهلها ستراً لئلا يروها فبينما هي في مشرقة الدار تغتسل من الحيض إذ دخل عليها جبريل عليه السلام بعدما فرغت من الاغتسال في صورة شاب أمرد حسن الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ وإنما أرسل اللَّه جبريل إليها في صورة البشر ليثبت مريم، وتقدر على استماع كلامه. قال ابن عباس: فلما رأت جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد فقالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ـ أي إن كنت تقياً مخلصاً مطيعاً فتسلمني لتعوذي باللَّه منك، وقيل إن تقياً كان رجلاً من الصالحين في ذلك الزمان فقالت: إن كنت في الصلاح مثل التقي فإني أعوذ بالرحمن منك. وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ أي

---

(1) ذكره ابن عطية في تفسيره: 11/ 18.

جبريل عليه السلام خصّ بالإضافة إلى اللّه تعالى تشريفاً له، وتسمى روحاً لأن الناس يحيون بما جاء به في أديانهم كما يحيون بأرواح أبنائهم قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿19﴾﴾ أي لأهب لك بأمر اللّه ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب، ومن قرأ ليهب لك غلاماً زكياً فالمعنى: يهب اللّه لك[1]. قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ أي من أين يكون لي ولد ولم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي ولم أكن فاجرة زانية. والبغي هي الطالبة للزنا. قال ابن عباس: قالت مريم ليس لي زوج، ولست بزانية، ولا يكون الولد إلا من الزوج أو الزنا. قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي قال لها جبريل: كما قلت لك قال ربك هو على هين أي خلقه على هين من غير هاتين الجهتين كخلق آدم بلا أب ولا أم. قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي لنجعله دلالة على قدرتنا ورحمة للخلق، وقيل ورحمة لمن اتبعه على دينه وصدقه، وكان خلقه أمراً مقضياً أي محكوماً مفروغاً منه سابقاً في علم اللّه أن يقع.

قال اللّه تعالى:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿23﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿24﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿26﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿27﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿28﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿29﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾﴾ وذلك أنها لما سمعت كلام جبريل اطمأنت إلى قوله، فدنا منها ونفخ في جيبها فوصلت تلك النفخة إلى بطنها فحملت بعيسى عليه السلام، وقيل نفخ جبريل نفخاً من بعيد فوصل

(1) نسب ابن خالويه في إعراب القراءات السبع: 2/ 14. هذه القراءة لأبي عمرو. وفي إعراب القرآن للنحاس: 3/ 10، روايتها عن «ابن مسعود» أيضاً.

النفخ إليها فحملت فلما ظهر حملها انتبذت أي خرجت وانفردت وتنحت لولادتها إلى مكان بعيد من الناس، والانتباذ: مأخوذ من نبذت الشيء إذا رميت به ناحية، والقاصي والقصي خلاف الداني، واختلفوا في مدة حملها فقال بعضهم: تسعة أشهر كحمل سائر النساء على ما جرت به العادة، وقال بعضهم: ثمانية أشهر، وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غير عيسى عليه السلام، وقال بعضهم: ستة أشهر، وقيل ثلاث ساعات، وقيل ساعة واحدة. وقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: ما هو إلا أن حملت فوضعت، ولم يكن بين الحمل والانتباذ إلا ساعة لأن اللَّه تعالى لم يذكر بينهما فصلاً وقال مقاتل: حملت في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وهي تحت عشر سنين وقد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام[1]. قوله تعالى: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي مكاناً بعيداً. قال ابن عباس: أقصى الوادي فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج. قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها، يقال جاءها وأجاءها بمعنى واحد كما يقال: ذهبت به وأذهبت. والمخاض وجع الولادة، وقيل تحرك الولد للولادة وقيل الحمل وقرأ عبد اللَّه: فأواها المخاض. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة يابسة في الصحراء ولم يكن بها سعف أي لا رأس لها، وقيل كان جذعاً يابساً قد أتى به لبناء بيت.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي لم أخلق، وقيل شيئاً متروكاً لا يذكر والنسي في كلام العرب النسيء الحقير الذي إذ ألقي نسي ولم يلتفت إليه. قال السدي: إنما تمنت مريم الموت استحياء من الناس، خافت الفضيحة، وقيل للحال التي دفعت إليها من الولادة، والصحيح أنها إنما تمنت الموت لعلمها بأن الناس سيرمونها بالفاحشة فيأثمون بسببها فتمنت أن تكون ماتت قبل أن يقول الناس بسببها قولاً يسخط اللَّه تعالى: قرأ حمزة وحفص نَسياً بفتح النون[2] وهما لغتان. قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى﴾ قال ابن عباس والسدي والضحاك وقتادة: إن المنادي من تحتها هو

---

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 15.

جبريل عليه السلام كأنه كان في مكان أسفل من مكانها فناداها ألا تحزني يا مريم على ولادة عيسى فقد أحسن اللَّه لك الاختيار، وجعل تحتك سرياً. قال السدي: هو النهر الصغير سمي سرياً لأنه يسري بجريانه. وقال الحسن: هو عيسى وهو واللَّه السري من الرجال. وهذا التأويل على قراءة من قرأ من تَحْتِها، بكسر الميم والتاء وهي قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص وقرأ الباقون بالفتح وهو عيسى عليه السلام[1] لما خرج من بطن أمه ناداها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً أي نهراً صغيراً قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال ابن عباس: ضرب جبريل، وقيل عيسى عليه السلام ،برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب، وجرى تحت النخلة فحيّت بعدها يبسها فأورقت وأثمرت وأرطبت، ومعنى الآية حركي واجذبي إليك جذع النخلة، والباء فيه زائدة تقول العرب: هزيه وهزي به، وخذ بالخطام وخذ الخطام. قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قرأ يعقوب: يساقط بالياء يعني الجذع، وقرأ حفص بالتاء وضمها وتخفيف السين وكسر القاف وقرأ حمزة: تساقط بفتح التاء والقاف مخففاً، وقرأ الباقون بفتح التاء والقاف وتشديد السين أي تتساقط فأدغمت التاء في السين ومعناه: تسقط عليك النخلة، والرطب الجني هو المجني من الثمرة الرطبة الطرية. ونصب رطباً على التفسير ومن قرأ تساقط بالضم انتصب على المفعول[2]. قوله تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي فكلي من الرطب واشربي من النهر وقري عيناً بولدك عيسى وطيبي نفساً. يقال: قرت عينه أي بردت من برد السرور بما يرى، ويقال سكنت سكون السرور برؤية ما يحب فالأول من القر والثاني من القرار، وانتصب عيناً على التفسير المحول كما يقال: طيبي نفساً أي طابت نفسك.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فإما ترين من الآدميين أحداً فيسألك عن الولد أو لا يسألك عليه ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً وكذلك كان يقرؤها ابن مسعود وأنس رضي اللَّه عنهما. قال ابن عباس رضي

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 408.

(2) المبسوط في القراءات العشر: ص 288، وابن مجاهد في المرجع نفسه.

اللَّه عنهما ـ صمتاً: أي أوجبت على نفسها أن لا تتكلم، وقال قتادة: صامت عن الطعام والشراب والكلام ولهذا قالت ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي آدمياً، وكان قد أذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم سكتت. قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: أمرت بالصمت لأنها لم تكن لها حجة عند الناس في شأن ولدها فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها ولدها الكلام بما يبرىء ساحتها، وفي الآية دلالة أن الصمت كان قربة في دينهم ولولا ذلك لما نذرته مريم، ثم فسخ ذلك بنهي النبي صلى اللَّه عليه وسلم عن صوم الصمت، ويروى أنه صلى اللَّه عليه وسلم نهى عن صمت يوم إلى الليل[1]. قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿27﴾﴾ روي أنها أتت بعيسى تحمله إلى قومها بعدما طهرت من نفاسها أي بعد أربعين يوماً، فتكلم عيسى في الطريق وهو ابن أربعين يوماً فقال لها يا أماه أبشري فإني عبد اللَّه ومسيحه فلما دخلت على قومها بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالح، وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً أي منكراً عظيماً لا يعرف منك ولا من أهل بيتك. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ قال ابن عباس: هارون رجل صالح من بني إسرائيل نسبت إليه ـ والمعنى يا شبيهة هارون في العبادة. روي أن أهل الكتاب قالوا كيف يقولون إن مريم أخت هارون وبينهما ستمائة سنة؟ فذكر ذلك للنبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين**». فعلى هذا يجوز أن أخا مريم كان يسمى هارون. وقال السدي: هو هارون أخو موسى عليهما السلام نسبت إليه لأنها من ولده كما يقال: يا أخا بني فلان، وقيل كان رجلاً فاسقاً معروفاً بالفسق فنسبت إليه[2]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ قال ابن عباس: يريد زانياً، وما كانت أمك ـ حنة ـ بغياً ـ أي ما كانت زانية فمن أين لك هذا الولد؟ قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي أشارت إلى عيسى عليه السلام وهو يرضع بأن كلموه فعجبوا من ذلك و﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي في الحجر رضيعاً والمهد هاهنا حجر أمه، وقيل هو

---

(1) رواه أبو داود في سننه: 3/ 293، رقم: 2873، كتاب الوصايا.
رواه البيهقي في السنن: 6/ 57، باب البلوغ بالاحتلام.
(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير ابن كثير: 4/ 452.

المهد بعينه. قال أبو عبيدة: كان هاهنا زائدة لا معنى لها والتقدير كيف نكلم صبياً في المهد[1]، ويجوز أن تكون من في موضع الشرط والجزاء. والمعنى: من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه. والماضي يكون بمعنى المستقبل في باب الجزاء، ويجوز أن يكون صبياً نصب على الحال أي كيف نكلم من في المهد صبياً أي في هذه الحالة. قال السدي فلما أشارت إلى عيسى عليه السلام غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد من زناها، فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل بوجهه عليهم وقال.

قال اللَّه تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿30﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿31﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿32﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿33﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿34﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿35﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿36﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿37﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿38﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿39﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿40﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني علمني التوراة والزبور، وقال مقاتل: علمه اللَّه تعالى الإنجيل في بطن أمه[2] ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي حكم لي بالنبوة فيما قضى. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي معلماً للخير نفّاعاً حيث ما كنت أدعو إلى اللَّه تعالى وإلى توحيده وعبادته. قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي أمرني بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ما دمت حياً. قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجعلني براً بوالدتي. قال ابن عباس: لما قال عليه

---

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 7.
(2) البغوي في تفسيره: 3/ 618.

السلام بوالدتي ولم يقل بوالدي علموا أنه شيء من اللَّه تعالى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي متعاظماً أقتل وأضرب على الغضب، ولا ﴿شَقِيًّا﴾ أي ولا عاصياً لربه. قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ معناه والسلامة عليّ من اللَّه تعالى يوم ولدت حتى لم يضرني شيطان، ويوم أموت، ويوم أبعث حياً من القبر، وفي هذا دليل أن للإنسان أن يصف نفسه بصفات الخير إذا أراد تعريفها إلى غيره ولم يرد الافتخار، وهو مثل قول يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1] قال ابن عباس: إنما كلمهم عيسى بهذا الكلام لا غير ثم سكت ولم يتكلم حتى بلغ قصار مدة ما يتكلم الصبيان قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك الذي قال إني عبد اللَّه عيسى بن مريم قول الحق ـ من قرأه بنصب
قولَ ـ فالمعنى: أقول قول الحق، ومن رفعه، فالمعنى: هو قول الحق أو كلمة ٥٩
الحق والحق هو اللَّه تعالى، ومعنى قراءة النصب أقول قول الحق الذي فيه يمترون[2] أي يشكون فيختلفون فإنهم اختلفوا، يعني النصارى، فقائل يقول: هو اللَّه، وقائل يقول: هو ابن اللَّه، واليهود تقول: ولد لغير رشدة. قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما ينبغي اللَّه أن يتخذ ولداً وليس ذلك من صفاته. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي تنزيهاً له عن الولد والشريك. قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي كيف يتخذ الولد من إذا شاء أمراً كان كما خلق عيسى بلا أب. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾
هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك. من قرأ بفتح الهمزة فالمعنى وأوصاني أن ٦٠
اللَّه ربي وربكم أو قضى أن اللَّه ربي وربكم ومن كسرها فعلى الاستئناف[3]، ويجوز أن يكون عطفاً على أن يعبد اللَّه، والصراط المستقيم هو الدين المستمر في جهة واحدة وقيل معناه: هو الذي أخبرتكم أن اللَّه أمرني به هو الطريق المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من زائدة والمراد بالأحزاب

---

(1) سورة يوسف (12)، الآية: 55.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات: ص 409.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 19.

النصارى كانوا أحزاباً متفرقين في أمر عيسى عليه السلام فبعضهم يقول: هو اللَّه، وبعضهم يقول: هو ابن اللَّه، وبعضهم يقول: ثالث ثلاثة. وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿37﴾﴾ أي فويل للذين تحدثوا في عيسى من مشهد يوم عظيم تشهده الخلائق. قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، أي يشاهدون من البعث ما يسمع ويبصر بلا شك ولا مرية. قال قتادة: سمعوا حين لم ينفعهم السمع وأبصروا حين لم ينفعهم البصر، وقال الحسن: لأنهم كانوا في الدنيا عمياً وصماً عن الحق فما أبصرهم وأسمعهم يوم القيامة. قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لكنهم في الدنيا كافرين. قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي خوف يا محمد أهل مكة يوم يتحسر المسيء هلاّ أحسن العمل والمحسن هلاّ زاد من الإحسان. وقال أكثر المفسرين يعني الحسرة يوم يذبح الموت بين الفريقين فلو مات أحد فرحاً لمات أهل الجنة ولو مات أحد حزناً لمات أهل النار. وعن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح**[1] **فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة تعرفون هذا؟ فيشرفون عليه، فيقولون نعم هذا الموت، ويقال لأهل النار كذلك فكلهم قد عرفه فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويقال يا أهل النار خلود فلا موت**»[2]. ثم قرأ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ قال مقاتل: لولا ما قضى اللَّه من تخليد أهل النار وتعميرهم فيها لماتوا حسرة حين رأوا ذلك. قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي قضي لهم العذاب في الآخرة وهم في الدنيا على غفلة وقال السدي: إذا قضي الأمر أي ذبح الموت وهم في غفلة في الدنيا عن ما يصنع بالموت ذلك اليوم وهم لا يؤمنون بما يصنع بالموت ذلك اليوم، ويقال معنى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ هو يوم يأتيهم ملك الموت لقبض

---

(1) الأملح: الذي بياضه أكثر من سواده.

(2) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 13/ 234، رقم: 6548، كتاب الرقائق.
رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 184.
رواه الدارمي في سننه: 2/ 329، باب في ذبح الموت.

أرواحهم فإذا وقعت المعاينة قال عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ قال اللَّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي وهم في الدنيا في غفلة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن. قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي نميت سكانها فنرثها ومن عليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[2] لأنهم إذا ماتوا انقطع ملك العباد عن الأرض. قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت فيجزيهم بأعمالهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ أي واذكر في القرآن لقومك قصة إبراهيم إنه كان كثير التصديق موقناً صدوقاً نبياً رسولاً. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي لم تعبد من دون اللَّه ما لا يسمع إن دعوته، ولا يبصر إن عبدته؟ يعني الصنم، ولا يغني عنك شيئاً من عذاب اللَّه، ولا يدفع عنك ضراً. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى

---

(1) سورة المؤمنون (23)، الآية: 99 ـ 100.
(2) سورة الحجر (15)، الآية: 23.

مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي من العلم بالله والمعرفة، وأن من عبد غير الله عذبه ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ على ديني ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿43﴾﴾ أي أرشدك إلى دين مستقيم. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي كثير العصيان لله تعالى. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي عذاب من الله بطاعتك للشيطان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي قريناً في النار. قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي قال له أبوه مجيباً له: أمعرض وتارك أنت عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن مقالتك وتسكت عن شتم آلهتي وعيبها لأرجمنك أي لأرمينك بالشتم والعيب، وقيل لأقتلنك رجماً ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي تباعد عني دهراً طويلاً، وقال الحسن وقتادة يعني: ملياً أي سالماً سوياً من قبل أن يلحقك مكروه مني. وأصل الملاوة: الزمان الطويل من الدهر يقال: أقام في موضع كذا ملياً. والملوان الليل والنهار(1). قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي قال إبراهيم لأبيه سلمت مني لا أصيبنّك بمكروه وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره ـ وهذا سلام توديع ـ وقوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي سأسأل الله لك توبة تنال بها مغفرته ويرزقك التوحيد. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي لطيفاً رحيماً، وقيل عالماً يستجيب لي إذا دعوت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أتنحى عنكم وأفارقكم وأعتزل ما تدعون من دون الله يعني الأصنام، فاعتزلهم وهاجر إلى الأرض المقدسة. قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿48﴾﴾ أي محروماً خائباً. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلما خرج إلى ناحية الشام وتركهم وترك أصنامهم آنسنا وحشته بأولاد كرام على الله تعالى ووهبنا لهم نعماً كثيرة وأكرمناهم بالثناء الحسن. قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ أي وهبنا لهم المال والولد وبسطنا لهم في الرزق. وقال بعضهم: يعني الكتاب والنبوة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي ثناء حسناً في الناس علياً مرتفعاً سائراً في الناس فكل الملل والأديان يحسنون الثناء عليهم

---

(1) معالم التنزيل: 2/ 622.

ويتولّون إبراهيم ودينه. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ أي واذكر في القرآن خبر موسى أنه كان مخلصاً للّه بالعبادة والتوحيد، وكان رسولاً رفيعاً. ومن قرأ مخلصاً بفتح اللام[1] فمعناه: أخلصناه واجتبيناه. قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ قيل إن النداء هو قول اللّه تعالى له يا موسى إني أنا اللّه رب العالمين. والطور هو: جبل بالشام ناداه اللّه تعالى من ناحيته اليمنى يعني يمين موسى، والمعنى أن موسى سمع النداء عن يمينه ولا يكون للجبل يمين ولا يسار. قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي جعلنا محله منا محل من قرّبه مولاه من مجلس كرامته، والنجي هو: المختص بإدراك كلام مكلمه. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما قرب اللّه تعالى موسى إلى أعلى الحجب حتى سمع صريف القلم. قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ وذلك حين سأل موسى ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾[2] فاستجاب اللّه دعاءه.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ هو إسماعيل بن إبراهيم، ومعنى صادق الوعد أنه كان إذا وعد أنجز. قال ابن عباس: إنه وعد

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 410.
(2) سورة طه (20)، الآية: 29، 30.

رجلاً أن ينتظره حتى يرجع إليه فأقام مكانه ينتظره حتى حال الحول، ورجع إليه الرجل، وكان رسولاً نبياً إلى جرهم. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ قيل أراد بالأهل أمته، وأهل كل نبي أمته ونظيره ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] أي قومك ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي صالحاً زكياً. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿56﴾﴾ اسم إدريس ـ أخنوخ وهو جد أبي نوح، وسمي إدريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطاً وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أنزلت عليه ثلاثون صحيفة، وهو أول من لبس القطن وكانوا قبل ذلك يلبسون جلود الضبيان. قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿57﴾﴾ روي عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ومجاهد: إنه رفع إلى السماء الرابعة[2] وقال ابن عباس والضحاك: إلى السماء السادسة، وقيل معناه: ورفعناه في العلم والنبوة إلى درجة عالية. روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة**»[3]، وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يا رب إني مشيت يوماً واحداً فكيف بمن حملها خمسمائة عام في يوم واحد،، اللَّهم خفف عنه من ثقلها واحمل عنه حرها. فلما أصبح الملك الموكل بها وجد خفة في حرها بخلاف ما يعرف فقال: يا رب ما الذي قضيت؟ فقال إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته. فقال: يا رب اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه صحبة، فأذن له حتى أتى إلى إدريس فسأله عن ذلك فأخبره أنه دعا له شفقة عليه، ثم حمله ملك الشمس على جناحه ورفعه إلى السماء بإذن اللَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ معناه: إن الذين ذكرتهم هم الذين أكرمهم اللَّه بالنبوة والإسلام من ذرية آدم الآية، وإنما فرق ذكر نسبهم مع أن كلهم كانوا لآدم ليبين مراتبهم في مشرف النسب فإنه

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 132.
(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 1/ 145، من حديث أنس بن مالك.
(3) رواه الترمذي في سننه، تحفة الأحوذي: 8/ 230، رقم: 3157.

كان لإدريس شرف القرب من آدم وكان إبراهيم من ذرية نوح، وكان إسماعيل وإسحاق من ذرية إبراهيم، وكان موسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى من ذرية إسرائيل فقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يعني إدريس ونوحاً ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يعني في السفينة يعني إبراهيم لأنه من ولد سام بن نوح، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقوله: ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني أن من ذرية إسرائيل موسى وهارون ومن ذكرنا. قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا لأداء الرسالة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ التي أنزلت عليهم ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي وقعوا يسجدون للّه تعالى، ويبكون من مخافة اللّه تعالى، والسجد جمع ساجد، والبكي جمع باك. قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ فخلف من بعد هؤلاء الأنبياء المذكورين والصالحين خلف أي قوم سوء، وهم اليهود والنصارى ومن لحق بهم، يقال في الردأ خلْف بإسكان اللام، وفي الصلاح خلَف بفتح اللام. وقوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أخروها عن مواقيتها لغير عذر، وقيل تركوها أصلاً. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني المعاصي وشرب الخمر، واشتغلوا باللذات فيما حرم عليهم، وآثروها على طاعة اللّه. قال وهب: شرابون القهوات لعّابون بالكعبات ركّابون الشهوات يتبعون اللذات تاركون الجماعات مضيعون الصلوات. قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن مسعود وعطاء: هو واد في جهنم بعيد القعر[1]، وقال ابن عباس: الغي: واد في جهنم فتستعيذ أودية جهنم من حره أعدّ للزاني، وشارب الخمر، وآكل الربا، وأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً من غيره[2]. وقيل الغي: واد في جهنم يسيل قيحاً ودماً أعد للغاوين، يسمى غياً لأنه جزاء الغي. كما قال تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾[3] أي جزاء الإثم. وقال كعب: الغي: واد في جهنم أبعدها قعراً وأشدها حراً فيه بئر تسمى نهيم كلما خبت جهنم فتح لها باب إلى

---

(1) ابن عطية في تفسيره: 11/ 41.

(2) القرطبي في تفسيره: 11/ 125 مع بعض الاختلاف.

(3) سورة الفرقان (25)، الآية: 68.

تلك البئر فتستعر بها جهنم[1]. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ معناه: إلا التائبين منهم، ويجوز أن يكون نصب استثناء من غير الأول على معنى لكن من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا ينقصون من حسناتهم.

قال اللّه تعالى:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ
تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا
﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾
ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا
صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي بساتين إقامة، وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني أنهم غابوا عن ما فيها وانتصب قوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ لأنه بدل من الجنة. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي موعوده آتياً كائناً وإنما لم يقل آتياً لأن كل ما أتاك فقد أتيته. قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً ساقطاً، ولا يسمعون إلا سلاماً يسلم بعضهم على بعض، والسلام: هو الكلام الذي لا لغو فيه، ولا إثم، وقيل معناه: لا يسمعون في الجنة كلاماً باطلاً وفحشاً وهذراً وفضولاً من الكلام، وقال مقاتل: يميناً كاذبة[2]، ولا يسمعون إلا سلاماً يسلم بعضهم على بعض وتسلم عليهم الملائكة، ويرسل إليهم الرب بالسلام. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية ولكنهم يؤتون

(1) الثعلبي في تفسيره: خ، الورقة 7.
(2) الثعلبي نفسه.

برزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء أعجب به. وقال قتادة: كان العرب إذا حصل لأحدهم الغداء والعشاء أعجب به فأخبر اللّه أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشياً على قدر ذلك الوقت أي يجمع لهم الطعام في هذين الوقتين كما يكون في الدنيا ويأكلون فيما عدا هذين الوقتين ما يشتهون كما في الدنيا(1). قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿63﴾﴾ أي هذه الجنة التي وصفها اللّه تعالى هي التي نورث من عبادنا من اتقى معصية اللّه وعمل بالطاعة والإيمان. وقوله تعالى: ﴿نُورِثُ﴾ أي نعطي، وإنما قال: نورث لأن اللّه تعالى أورثهم من الجنة مساكن أهل النار لو أطاعوا، وقيل لأنه تمليك في حال مبتدأ بعد انقضاء آجال الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أبطأ على النبي صلى اللّه عليه وسلم بالوحي فلما آتاه قال له: «**ما زرتنا حتى استبطأناك**»، وقيل قال له: «**ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» فأنزل اللّه تعالى عذر جبريل(2) والمعنى: قل له وما نتنزل من السماء إلا بأمر ربك، وقيل استبطأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جبريل ثم جاءه فقال له يا جبريل أبطأت عليّ حتّى ساء ظني فاشتقت إليك فقال له: إني كنت أشوق إليك ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست فأنزل اللّه تعالى هذه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾. قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي له ما بين أيدينا من أمر الدنيا، وما خلفنا من أمر الآخرة، وما بين ذلك يعني ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي ما كان ليتركك وإن تأخر عنك رسوله. قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي اصبر على أمره ونهيه حتى الموت هل تعلم له سمياً؟ أي شبيهاً ومثلاً يعبد، وقيل هل تعلم من يستحق الإلّهية سواه؟ وقيل هل تعلم أحد يسمى اللّه غيره؟ وقيل هل يعلم من أحد يسمى رب السموات والأرض؟ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿66﴾﴾

---

(1) الثعلبي في المرجع نفسه.
(2) الواحدي في أسباب النزول: ص 247.

قال ابن عباس هو أبي بن خلف الجمحي قال هذا القول إنكاراً للبعث[1].
وقوله تعالى: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي أخرج من القبر حياً استهزاء وتكذيباً منه للبعث. قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم أولا يذكر بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد[2]. وهو الاختيار أي أو لا يتعظ ويتفكر، وعلى القراءة الأولى يذكر بالتخفيف ضد النسيان والمعنى: أولا يتعظ الإنسان أنا خلقناه من نطفة ولم يكن شيئاً موجوداً فيستدل بالابتداء على الإعادة. قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ يعني المنكرين للبعث أقسم اللَّه تعالى بنفسه ليحشرنهم من قبورهم مع الشياطين الذين أضلوهم ثم ليجمعنهم حول جهنم باركين على الركب، لأن المحاسبة إنما تكون بقرب جهنم يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ليخرجن من كل فرقة وجماعة أيهم أشد على الرحمن تمرداً وجرأة وفجوراً وكفراً، يبدأ بالأعتى والأكثر جرماً. قال قتادة المعنى: لننزعن من كل فرقة أي أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، والشيعة: الجماعة المتعاونون على أمر من الأمور. وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ﴾ رفع على الاستئناف ولننزعن يعمل في موضع من كل شيعة هذا قول يونس[3]، وقال الخليل على معنى الذين يقال لهم: أيهم أشد فليخرج[4]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾ أي نحن أعلم بالأولى بدخول النار وشدة العذاب وأحقهم بعظيم العقاب، والصلي: هو اللزوم من قولهم صلى بالنار صلياً.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ۝٧٤

(1) الواحدي، في المرجع نفسه.
(2) ابن مجاهد، في كتاب السبعة في القراءات: ص 410.
(3) إعراب القرآن، للنحاس: 2/ 24.
(4) الكتاب، لسيبويه: 1/ 259.

قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿75﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿76﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ اختلفوا في الخطاب الذي في أول هذه الآية. قال بعضهم: هو خطاب إلى الكفار لأنه تقدمه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿70﴾﴾ وقال الأكثرون هذا الخطاب يقصد الجميع ودليله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي ننجي من الواردين من اتقى. ثم اختلف هؤلاء أيضاً في معنى الورود، وقال بعضهم: هو الدخول كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[1] أي أدخلهم النار وقالوا إلا أنها تكون على المؤمنين برداً وسلاماً، واستدلوا بما روى جابر رضي اللَّه عنه أنه أهوى يديه إلى أذنيه، وقال صمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**الورود: الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم**»[2]. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من مسلم يموت له ثلاثة أولاد لم يلج النار إلا تحلة القسم**»[3] ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ومعنى القسم أن أول هذه الآية فيها إضمار القسم تقديره: واللَّه ما منكم من أحد إلا واردها. وروي عن ابن مسعود أنه قال: الصراط على متن جهنم مثل حد السيف تمر عليه الطائفة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كالجواد السابق، والرابعة كأجود البهائم ثم يمرون يقولون: اللهم سلّم اللهم

---

(1) سورة هود (11)، الآية: 98.

(2) رواه أحمد في المسند: 2/ 329.
رواه البيهقي في الشعب: 1/ 336، رقم: 370.

(3) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 3/ 455، رقم: 1251، كتاب الجنائز.
رواه مسلم بشرح النووي: 4/ 28، من حديث أبي هريرة.

سلّم[1]. وعن أبي هريرة أنه آوى إلى فراشه فقال: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت امرأته: يا أبا ميسرة إن اللَّه عزّ وجلّ قد أحسن إليك، هداك للإسلام. قال: أجل ولكن اللَّه تعالى قد بيّن لنا أنا واردو النار، ولم يبين لنا أننا خارجون منها[2]. وقال بعضهم الورود: هو الإشراف على النار بلا دخول لأن موضع المحاسبة يكون قريباً من النار. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[3] ولم يكن موسى دخل الماء. واستدلوا بما روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**لن يدخل النار إن شاء اللَّه تعالى أحد شهد بدراً والحديبية**»[4]. وعن مجاهد أنه قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار فعلى هذا من حم من المسلمين فقد وردها لأن الحمى من قيح جهنم[5].

وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه عاد مريضاً من وعك كان به فقال له: «**أبشر إن اللَّه تعالى يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار**»[6]. قال الزجاج: والحجة القاطعة على أنهم لا يدخلون النار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[7] وهذا حجة لا معارض لها[8]. قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ الحتم: القطع بالأمر، والمقضي: هو الذي قضي بأنه يكون. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي الذين اتقوا الشرك وصدقوا ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ونذر المشركين فيها

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 375.
رواه أحمد في المسند: 1/ 435.
(2) الثعلبي في تفسيره: الورقة 8.
(3) سورة القصص (28)، الآية: 23.
(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 4/ 42، من حديث أم بشر.
رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1431، رقم: 4281، باب ذكر البعث.
(5) البيهقي في الشعب: 1/ 339، رقم: 374.
(6) رواه البيهقي في الشعب: 7/ 161، رقم: 9844، باب في الصبر على المصائب.
(7) سورة الأنبياء (21)، الآية: 101 ـ 102.
(8) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 341.

جثياً على الركب. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ معناه: وإذا تتلى على الكفار آيات القرآن المنزلة قالوا للذين آمنوا أي الدينين خير مسكناً وأحسن مجلساً في الدنيا فكذلك يكون في الآخرة يعني أن مشركي قريش كانوا يقولون لفقراء المؤمنين أي الفريقين خير مقاماً نحن أو أنتم ؟والمقام المسكن والمنزل والندي والنادي مجلس القوم ومجتمعهم وكانوا يلبسون أحسن الثياب ثم يقولون مثل هذا للمؤمنين فأجابهم اللّه تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿74﴾﴾ أي وكم أهلنا قبل قريش من الأمم الخالية هم أحسن أموالاً وأحسن منظراً والأثاث: المال أجمع الإبل والغنم والعبيد والمتاع. وقال الحسن: الأثاث اللباس والرئي المنظر. وقرىء وريّاً بغير همز من الري الذي هو منة العطش[1]، والمراد أن منظرهم مرتوٍ من النعمة كأن النعيم بيّن فيهم لأن الري يتبعه الطراوة كما أن العطش يتبعه الذبول. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي قل لهم يا محمد من كان في العماية عن التوحيد ودين اللّه فليمدد له الرحمن أي ليزد في ماله وعمره وولده، ويقال: ليدعه اللّه في طغيانه حتى إذا وصل إلى الآخرة، لم يكن له فيها نصيب، وهذا لفظ أمر ومعناه الخبر. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعني الذين مدهم في الضلالة، وأخبر عن الجماعة لأن لفظ ـ من ـ يصلح للجماعة ثم ذكر ما يوعدون فقال: ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعني القتل والأسر والغنيمة والخلود في النار فسيعلمون حينئذ من هو شر مكاناً أهم أم المؤمنون لأن مكانهم جهنم ومكان المؤمنين الجنة. قوله تعالى: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ هذا رد عليهم في قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿73﴾﴾. قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أو يزيدهم هدى بالإيمان، والشرائع معناه: يزيدهم هدى بالأدلة والحجج والألطاف التي تدعو إلى الحسنات. قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قد تقدم تفسيرها سميت باقيات: لبقاء ثوابها للإنسان. قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 411 ـ 412.

أي أنفع من مقامات الكفار التي يفتخرون بها، وخير مرداً أي وأفضل مرجعاً في الآخرة، وأفضل ما يرد على صاحبه.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿77﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿78﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿79﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿80﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿82﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿83﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿84﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿85﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿86﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿87﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿77﴾﴾ نزلت هذه الآية في العاص بن وائل[1] قال خبّاب بن الأرت: كان لي دين على العاص بن وائل فجئت أتقاضاه منه، فقال لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قلت لا واللَّه لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين أبعث، قال: فدع مالك فإذا بعثت أعطيت مالاً وولداً فأقضيك هناك، قال ذلك مستهزئاً، قال فذكرت ذلك لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأنزل اللَّه هذه الآية[2]، وقال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة قال: لأوتين مالاً وولداً لئن كان ما يقول محمد في الآخرة حقاً لأعطين مالاً وولداً في الآخرة، ومن قرأ وُلداً بالضم[3] فمعناه

(1) العاص بن وائل بن هاشم السهمي والد عمرو بن العاص، كان من المستهزئين، الأعلام: 3/ 247.
(2) الواحدي في أسباب النزول: ص 248.
رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 9/ 355، رقم: 4732، كتاب التفسير.
رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 4/ 53.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 24.

واحد كالحُزن والحَزن، وقيل إنه جمع الولد كما تقول أسد وأُسُد. قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿78﴾﴾ أي أعلم ذلك غيباً، أم عهد اللّه إليه عهداً بما تمنى، وقال ابن عباس معناه: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟ وقال الكلبي: انظر في اللوح المحفوظ. قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال ابن عباس معناه: أم قال لا إلّه إلا اللّه فأرحمه بها، وقال قتادة: أقدم عملاً صالحاً يرجوه[1]؟ كلا ليس الأمر على ما قال: إنه يؤتى المال والولد ويجوز أن يكون معناه: كلا إنه لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنأمر الحفظة بإثبات ما يقول لنجازيه به في الآخرة ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿79﴾﴾ أي نزيده عذاباً فوق العذاب. قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه فلا يعود إليه بعد ذلك كما لا يعود المال إلى من خلفه بعد موته، ﴿وَيَأْتِينَا﴾ في الآخرة ﴿فَرْدًا ﴿80﴾﴾ أي وحيداً خالياً من المال والولد.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾﴾ أي اتخذوا أهل مكة من دون اللّه أصناماً آلهة ليكونوا لهم أعواناً وشفعاء في الآخرة، والعز: الامتناع من النعيم فهم اتخذوا هذه الآلهة ليصيروا بها في العز في زعمهم فلا يصيبهم سوء، وذلك أنهم رجوا منها الشفاعة والنصرة والمنع من عذاب اللّه. قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تمنعهم من شيء ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي تمجد الآلهة عبادة المشركين لها كما قالوا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي يصيرون أعواناً عليهم يكذبونهم ويلعنونهم ويتبرؤون منهم. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿83﴾﴾ أي ألم تعلم أنا خلينا بين الشياطين والكفار وسلطناهم عليهم فلم نعصم الكفار من القبول منهم، وقد تسمى التخلية إرسالاً في سعة اللغة. قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تزعجهم إلى معصية اللّه تعالى إزعاجاً

---

(1) تراجع هذه الأقوال في معالم التنزيل: 3/ 638.
(2) سورة القصص (28)، الآية: 63.

وتغريهم إغراء. وقال القتيبي: تحركهم إلى المعاصي وأصله الحركة والغليان ومنه الحديث المروي ـ ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[1] ـ. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تعجل بمسألة إهلاكهم إنما تعد لهم عداً أي تعد أنفاسهم نفساً بعد نفس كما تعد أيامهم وآجالهم. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿85﴾﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجمع فيه من اتقى اللَّه في الدنيا واجتنب الكبائر والفواحش إلى دار الرحمن وهي موضع الكرامة والثواب. قوله تعالى: ﴿وَفْدًا﴾ أي ركباناً. قال علي رضي اللَّه عنه: وهل يكون الوفد إلا ركباناً. قال ابن عباس: يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة، وإنما وحد الوفد لأنه مصدر. قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿86﴾﴾ أي نحثهم على السير إلى جهنم. قوله تعالى: ﴿وِرْدًا ﴿86﴾﴾ أي عطاشاً مشاة حفاة عراة قد انقطعت أعناقهم من العطش. والورد الجماعة التي ترد الماء، ولا يرد أحد الماء إلا بعد العطش. قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون فإنهم يملكون الشفاعة. قال ابن عباس: العهد شهادة أن لا إلّه إلا اللَّه ـ ومن ـ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع. قال ابن عباس: لا يشفع إلا من قال: لا إلّه إلا اللَّه يتبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلا اللَّه عزّ وجلّ. وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول ذات يوم: «**أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند اللَّه عهداً**». قالوا: «**كيف ذلك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا بأني أشهد أن لا إلّه إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك فلا تكلني إلى نفسي فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعله عندك عهداً توفينيه يوم القيامة وإنك لا تخلف الميعاد، فإذا**

---

(1) رواه أبو داود في سننه عون المعبود: 3:172، رقم: 890، باب البكاء في الصلاة.
رواه البغوي في سننه: 3/ 244، رقم: 729، باب البكاء في الصلاة.
«أزيز المرجل»: صوت القدر.

قال ذلك طبع اللّه عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ إن الذين لهم عند الرحمن عهداً فيدخلون الجنة»[1].

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (93) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89)﴾ أي قالت المشركون الملائكة بنات اللّه، وقالت النصارى المسيح ابن اللّه، وقالت اليهود عزير ابن اللّه يقال لهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89)﴾ أي منكراً عظيماً. قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي تتصدع ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط بعضها على بعض بشدة صوت بأن دعوا للرحمن ولداً ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92)﴾ اقشعرت الأرض وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم، وفزعت السموات والأرض والجبال. قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (93)﴾ أي ما من أحد في السموات والأرض إلا سيأتي الرحمن مقراً بالعبودية، ويأتيه يوم القيامة عبداً ذليلاً يعني أن الخلق كلهم عبيده، وأن عيسى من جملة العبيد. قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94)﴾ أي لقد علم عددهم وأفعالهم ولا يخفى عليه شيء منهم مع كثرتهم. قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا أنصار لهم ولا أعوان ولا مال ولا ولد وكل امرىء مشغول بنفسه لا يهمه غيره. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

(1) الثعلبي في تفسيره: الورقة 9.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿96﴾ أي يحبهم في الدنيا ويحببهم إلى عباده المؤمنين من أهل السموات وأهل الأرضين. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**إذا أحب اللّه عبداً قال اللّه تعالى: يا جبريل إني قد أحببت فلاناً فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السموات إن اللّه قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السموات ثم توضع له المحبة في الأرض**»[1]، وإذا أبغض العبد قال مثل ذلك. وما أقبل عبد بقلبه على اللّه إلا أقبل اللّه بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ومحبتهم. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ أي يسرنا قراءة القرآن على لسانك لتبشر بالقرآن المتقين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي قوماً ذوي جدل بالباطل واللدّ جمع الألد وهو شديد الخصومة نظيره الأصم والصم. قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من قرون ماضية ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى منهم من أحد؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿98﴾﴾ أي صوتاً؟ والإحساس مأخوذ من الحس يقال هل أحسست فلاناً؟ أي هل رأيته؟ والركز هو الصوت الخفي الذي لا يفهم، ومنه الركاز وهو المغيب في الأرض. قال الحسن في معنى الآية ذهب القوم فلا يسمع لهم صوت، وقال قتادة: هل ترى من عين أو تسمع من صوت؟ وعن أبي بن كعب عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة مريم أعطي من الأجر بعدد من صدَّق بزكرياء ويحيى ومريم وعيسى وموسى وهارون وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وإدريس وبعدد من كذبهم وبعدد من دعا للّه ولداً وبعدد من وحّد اللّه تعالى**»[2]، واللّه سبحانه أعلم.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 12/ 68، رقم: 6040، كتاب الأدب.

(2) ذكره الزمخشري في تفسيره، الكشاف: 2/ 527، من غير ذكر سند.
والثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان عن أبي بن كعب.

سُورَةُ طه

سورة طه مكية وهي خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً، وألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمة، ومائة وخمس وثلاثون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ
خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى
۝١٠﴾.

٦٥

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿طه ۝١﴾ قرأ أبو عمرو وورش بفتح الطاء وكسر الهاء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الطاء والهاء، وقرأ الباقون بالتفخيم فيهما[1] واختلفوا في معناه: فقال أكثر المفسرين إن معناه: يا رجل يعني النبي صلى اللَّه عليه وسلم وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد[2] إلا أن عكرمة قال هو بلسان الحبشة، وقال قتادة إنما يقول هذه اللغة أهل السريانية، وروى السدي عن أبي مالك أن قوله معنى طه يا فلان، وقال الكلبي هو بلغة: عكل يا رجل[3] قال ابن الأنباري: ولغة

---

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات: ص 416، الأصبهاني في المبسوط في القراءات العشر: ص 292.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/4.

(3) البغوي نفسه.

قريش وافقت تلك اللغة أيضاً في هذا المعنى لأن اللَّه تعالى لم يخاطب نبيه إلا بلسان قريش قال الشاعر[1]:

إن السفاهة طه في خلائقهم ∴ لا قدّس اللَّه أرواح الملاعين[2]

يريد يا رجل.

وقال آخر[3]:

هتفت بطه [في القتال] فلم يجب[4]

وقرىء طه بتسكين الهاء ـ وله معنيان أحدهما: أن تكون الهاء بدلاً من همزة الطاء كقولهم في أرقت هرقت، والآخر أن يكون على ترك الهمزة ـ طأ يا رجل بقدمك الأرض ثم تدخل الهاء للوقف فإنه روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يجتهد في صلاة الليل بمكة حتى تورمت قدماه[5]، فكان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أخرى. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿طه ۝١﴾ أي طأ الأرض بقدميك، وقال بعضهم: أو السورة قسم أقسم اللَّه تعالى بطوله وهدايته، وقال بعضهم: الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية كأنه تعالى قال لنبيه صلى اللَّه عليه وسلم: يا طاهراً من الذنوب ويا هادياً إلى علام الغيوب.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ أي لتجهد نفسك وتتعب، وذلك أنه لما نزل عليه الوحي اجتهد في العبادة حتى أنه كان يصلي على إحدى رجليه لشدة قيامه وطوله فأمره اللَّه تعالى أن يخفف على نفسه، وذكر له أنه ما

---

(1) يزيد بن المهلهل.

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/ 332. ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير: 16/ 183. الطبرسي في تفسيره: 7/ 7.

(3) متمم بن نويرة بن شداد اليربوعي صحابي من أشراف قومه وشاعر فحل أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك، الأعلام: 5/ 274.

(4) ما بين القوسين ساقط من النسخة: ك، هذا صدر بيت، وعجزه: فخفت عليه أن يكون موائلاً، الطبري في تفسيره: 7/ 7.

(5) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 3/ 320، رقم: 1130 كتاب التهجد. رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 162.

أنزل عليه القرآن ليتعب ذلك التعب، ولم ينزله إلا تذكرة لمن يخشى اللَّه. قال مجاهد: نزلت هذه الآية بسبب ما كان يلقى النبي صلى اللَّه عليه وسلم من التعب والسهر من قيام الليل. وقال الحسن: هذا جواب للمشركين، وذلك أن أبا جهل، والنضر بن الحارث قالا للنبي صلى اللَّه عليه وسلم إنك لتشقى لما رأوا من طول عبادته، وشدة اجتهاده. فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**بل بعثت رحمة للعالمين**». قالوا: بل أنت شقي. فأنزل اللَّه هذه الآية[1] ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ ولكن لتسعد به، وتنال الكرامة به في الدنيا والآخرة. والشقاء في اللغة: استمرار ما شق على النفس من التعب. قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ نصب على المصدر أي أنزلنا تنزيلاً، والعلى: جمع العليا. قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ أي استولى وقد تقدم تفسيره قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي ما في السموات وما في الأرض وما بينهما من الخلق، معناه: إنه مالك كل شيء ومدبره. وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني الهواء. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي وما تحت التراب، والمفسرون يقولون: هو التراب الندي الذي تحت الأرض السفلى، وقيل تحت الصخرة التي عليها الثور ولا يعلم ما تحت الثرى إلا اللَّه. قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ معناه: ما حاجتك إلى الجهر فإن اللَّه لا يحتاج إلى جهرك ليسمع فإنه تعالى يعلم السر وأخفى منه. قال ابن عباس: السر: ما أسررت في نفسك، وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك مما يكون في غد علم اللَّه فيهما سواء، والتقدير وأخفى منه إلا أنه حذف للعلم به. وعن سعيد بن جبير قال: السر ما تسره في نفسك، وأخفى منه ما لم يكن وهو كائن، فاللَّه تعالى يعلم ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يفعله[2]. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ أي له الصفات العليا. قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ هذا استفهام تقرير بمعنى الخبر يريد قد أتاك حديث موسى ﴿إِذْ رَءَا

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: ص 250.

(2) البغوي في تفسيره: 4/ 5.

نَارًا﴾. قال ابن عباس: كان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لئلا يرى أحد امرأته فأخطأ الطريق في ليلة مظلمة، فرأى ناراً من بعيد ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي قال لامرأته أقيموا مكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي رأيتها وأبصرتها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي بشعلة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي من يدلني على الطريق. وقال مجاهد: يعني هادياً يهديني إلى الطريق[1]. قال الفراء: أراد هادياً فذكر لفظ المصدر[2]. قال هدى لأن النار لا تخلو من أهل لها أو ناس عندها، وكان رؤيته للنار ليلة الجمعة، وكان قد استأذن شعيباً عليه السلام في الرجوع إلى والدته فأذن له، فخرج بامرأته فولدت في الطريق في ليلة باردة مثلجة وقد حاد عن الطريق فقدح النار فلم تور المقدحة شيئاً فبينما هو في مداراة ذلك إذ أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق، فقال لامرأته امكثوا أي أقيموا مكانكم إني أبصرت ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار من يدلني على الطريق.

قال اللّه تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي فلما أتى النار

---

(1) البغوي نفسه.

(2) معاني القرآن: 2/ 175.

رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً فخاف وتعجب، وألقيت عليه السكينة، ثم نودي يا موسى إني أنا ربك وإنما كرر الكناية لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة، وتحقيق المعرفة، وقرىء: أني أنا ربك بفتح الهمزة وكسرها فمن فتح فعلى معنى بأني، ومن كسر فعلى معنى الابتداء[1]. قال وهب: نودي من الشجرة يا موسى، فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه، فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ قال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لربه عزّ وجلّ فأيقن به[2]. قوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ قال الحسن: إنما أمر بخلع نعليه لتطال قدماه بركة الواد المقدس ويباشر تراب الأرض المقدسة بقدمه فتناله بركتها. وقوله: ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ أي الطهر. وقال عكرمة: كانت نعلاه من جلد حمار ميت[3]. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ المقدس هو المطهر، وقيل: المبارك، ولا يستدل بما قال عكرمة على أن جلد الميت لا يطهر بالدباغ لأنه إن كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام: أيما إهاب دبغ فقد طهر[4]. قوله تعالى: ﴿طُوٗى﴾ هو اسم الوادي. قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ⑬﴾ أي اخترتك للرسالة لكي تقوم بأمري فاستمع لما يوحى إليك، واحفظه حتى تؤديه إلى الناس، وقرأ حمزة: وأنّا اخترتك ـ بالتشديد[5] ـ في أنا على التعظيم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ ولا تعبد غيري ظاهر المعنى. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لتذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم كما قال مجاهد والحسن، وقيل لأن أذكرك بالثناء والمدح، وقال مقاتل: معناه إذا نسيت الصلاة فأقمها إذا ذكرتها. قال صلى الله عليه وسلم: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا**

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 28.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 6.
(3) المرجع نفسه.
(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 4/ 53، طهارة جلود الميتة بالدباغ.
رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1193، رقم: 3609، باب لبس جلود الميتة إذ دبغت.
(5) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 417.

ذكرها فإن ذلك وقتها»[1]، ثم قرأ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قال ابن عباس معناه: إن القيامة كائنة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف أظهرها لغيري. قال المبرد: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً والمعنى أن اللّه تعالى بالغ في إخفاء الساعة فذكره بما بلغ ما تصرف العرب[2]. قال قتادة: هي في بعض القراءة أكاد أخفيها من نفسي ولعمري لقد أخفاها اللّه من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين. وفي مصحف عبد اللّه: أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق[3]. ومعنى الآية: أكاد أخفيها عن عبادي كيلا تأتيهم إلا بغتة ـ والفائدة في إخفائها عن العباد التهويل والتخويف ـ وفي ذلك مصلحة لهم لأنهم إذا لم يعلموا متى قيامها كانوا على حذر منها في كل وقت خائفين من الموت، مستعدين لذلك بالتوبة والطاعة. وقوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ أي بسعيها إما الثواب وإما العقاب. وقرأ الحسن وابن جبير: أكاد أخفيها بفتح الهمزة أي أظهرها وأبرزها يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته[4]. قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ أي فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة من لا يصدق بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بالإنكار ﴿فَتَرۡدَىٰ ﴿16﴾﴾ أي فتهلك وهو خطاب لموسى عليه السلام ونهي لسائر المكلفين. والصد: هو الصرف من الخير يقال: صده عن الحق وصده عن الإيمان ولا يقال: صده عن الشر ولكن يقال: صرفه عن الشر ومنعه عنه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿17﴾﴾ أي وما التي بيمينك يا موسى؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ أي احتمل عليها إذا عييت وإذا مشيت ولفظ أول الآية استفهام ومعناه التقرير على المخاطب أن الذي في يده عصا لكيلا تهوله إذا صارت ثعباناً وقيل كان الغرض بهذا السؤال إزالة الوحشة منه لأن

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي 5/ 183، قضاء الفائتة واستحباب تعجيله.
رواه الدارمي في سننه: 1/ 280، باب من نام عن صلاة أو نسيها.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 7.

(3) المرجع نفسه.

(4) النحاس في إعراب القرآن: 3/ 35، والفراء في معاني القرآن: 2/ 176.
وابن جني في المحتسب: 2/ 48.

موسى كان خائفاً مستوحشاً. قوله تعالى: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي أخبط بها الشجر ليتناثر ورقه فيأكله غنمي. وقرأ عكرمة: وأهس ـ بالسين[1] ـ يعني أزجر بها الغنم وذلك أن العرب تقول: هش وهس. قوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿18﴾﴾ أي حوائج أخرى. يقال: لا أرب لي في هذا أي لا حاجة لي فيه وأحد المآرب مأربة بضم الراء وكسرها وفتحها، وإنما لم يقل أخر لأجل رؤوس الآي.

قال ابن عباس: كانت مآربه أنه إذا قصر رشاؤه وصله بالمحجن ثم أدلى العصا وكان في أسفلها عكازة يقاتل بها السباع وكان يلقي عليها كساءه يستظل تحتها، ومن مآربه أيضاً أنه كان إذا أراد الاستسقاء من البئر أدلاها فكانت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو وكان يظهر على شعبتها كالشمعتين بالليل تضيء له مد البصر ويهتدي بها، وإذا اشتهى ثمرة من الثمار ركزها في الأرض فتغصنت أغصان تلك الشجرة وأورقت ورقها وأثمرت ثمرها. ومن المعلوم أن موسى لم يرد بهذا الجواب إعلام اللَّه تعالى لأن اللَّه تعالى أعلم بذلك منه، ولكن لما انقضى السؤال جواباً لم يكن له بد من الإجابة بذكرها مع العصا إقراراً بالنعمة فيها والتزاماً بما يجب عليه من الشكر للَّه تعالى، وهكذا سبيل أولياء اللَّه تعالى في إظهار شكر نعم اللَّه تعالى. وفي هذا جواب عن طعن بعض الملحدة بأن المسألة كانت عن ماهية ما في يده ولم تكن عن منافعها فلم كان الجواب عما لم يسأل؟ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿19﴾﴾ أي ألقها من يدك ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ﴾ تشتد رافعة رأسها عيناها متوقدتان ناراً تمشي بسرعة على بطنها لها عرف كعرف الفرس، فلما عاين ذلك موسى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ هارباً منها فنودي يا موسى ارجع فرجع وهو شديد الخوف فقال اللَّه له خذها بيمينك ولا تخف سنعيدها إلى سيرتها الأولى عصاً كما كانت. فلما أمره اللَّه بأخذها أدنى طرف ثوبه على يده وكان عليه مدرعة من صوف فلما جعل طرف المدرعة على يده ليتناولها قال ملك يا موسى أرأيت لو أن اللَّه قدر عليك ما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال لا ولكني ضعيف ومن

---

(1) ابن جني في المرجع نفسه: 2/ 50.

ضعف خلقت فأمر أن يدخل يده في فمها فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية وإذا يده في الموضع الذي كان يضعها فيه بين الشعبتين اللتين في رأس العصا وإنما أمر بإدخال يده في فمها لأنه إنما يخشى من الحية من فمها فأراد اللّه أن يريه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون ولا يولي مدبراً[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿22﴾﴾ قال الفراء: جناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه[2]. والمعنى: أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء ذات شعاع من غير مرض ولا برص آية أخرى. نعطيها مع آية العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿23﴾﴾ سوء هاتين الآيتين فكان عليه السلام إذا جعل يده في جيبه خرجت بيضاء يغلب شعاعها نور الشمس. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً[3]. قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿24﴾﴾ أي جاوز الحد في العصيان وكفر وتكبر.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿25﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿26﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿27﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿28﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿29﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿30﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿31﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿32﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿33﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿34﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿35﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿36﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿37﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿38﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿39﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿40﴾﴾.

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره: 4/ 9 عن محمد بن إسحاق.
(2) معاني القرآن: 2/ 178.
(3) البغوي في المرجع نفسه.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿25﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿26﴾﴾ أي وسع لي صدري لأتمكن من تحمل أثقال الرسالة والقيام بآدائها ومخاصمة الناس فيها، وسهل لي أمري، برفع المشقة ووضع المحبة. قوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿27﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿28﴾﴾ أي وارفع العقدة من لساني ليفقهوا كلامي، وكان سبب العقدة في لسانه أنه كان في جحر فرعون ذات يوم فأخذ بلحيته فنتف منها شيئاً، فقال فرعون لامرأته آسية: إن هذا عدوي المطلوب وهمَّ بقتله. فقالت آسية: لا تفعل فإنه طفل لا يعقل، ولا يفرق بين الأشياء، ولا يميز. وعلامة ذلك أنه لا يميز بين الدرة والجمرة، ثم جاءت بطستين: في أحدهما الجمر من النار، وفي الآخر الجوهر والحلي، ووضعتهما بين يدي موسى، فأراد موسى أن يأخذ شيئاً من الحلي، فأخذ جبريل بيده فوضعها على النار، فأخذ جمرة ووضعها في فمه حتى احترق لسانه فكانت في لسانه رقة[1]، فدفع عنه أكثر الضررين بأقلهما، وقد اختلفوا في أن هذه العقدة هل زالت بأجمعها في وقت نبوته أم لا؟ قال بعضهم: زال أكثرها إلا بقية منه بدلالة قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[2]، وقال بعضهم وهو الأصح وإليه ذهب الحسن: إن اللّٰه استجاب له فحل العقدة من لسانه لأنه تعالى قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فعلى هذا يكون قول فرعون ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يأتي ببيان يفهم وكان هذا القول كذباً منه عليه ليصرف الوجوه عنه.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿29﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿30﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿31﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿32﴾﴾ الوزير هو الذي يؤازر الأمير يتحمل عنه بعض ما حمل. فيكون المعنى: واجعل لي عوناً وظهيراً من أهلي. وقال الزجاج: اشتقاقه من الوزر وهو الجبل الذي يعتصم به لينجي من الهلكة[3]، ثم بين الوزير من هو فقال: هارون أخي، وقيل: هارون مفعول اجعل تقديره: اجعل هارون أخي

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 11.
(2) سورة الزخرف (43)، الآية: 52.
(3) معاني القرآن وإعرابه: 3/ 357.

وزيراً لي أشدد به أزري أي قوّ به ظهري، والإزر الظهر، لنتعاون على الأمر الذي أمرتنا به، يقال أزرت فلاناً إذا عاونته. قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿32﴾﴾ أي اجعله شريكاً لي في تبليغ هذه الرسالة ومن قرأ أشدد بفتح الألف، وأُشركه بضم الألف ردَّ الفعل إلى موسى عليه السلام[1]. قوله تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿33﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿34﴾﴾ أي كي نصلي لك، وقيل: كي ننزهك كثيراً ونذكرك بالحمد والثناء كثيراً بما أوليتنا من نعمك، ومننت علينا من تحمل رسالتك. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿35﴾﴾ أي عالماً. قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿36﴾﴾ أي أعطيت ما سألت يا موسى، وأوتيت مرادك. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿37﴾﴾ أي أنعمنا عليك كرة أخرى قبل هذه المرة ثم بين تلك النعمة فقال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿38﴾﴾ أي ألهمناها حين عنت بأمرك، وما كان فيه سبب نجاتك من القتل ما يوحى أي ما يلهم ثم فسر ذلك الإلهام فقال: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ وكان السبب في ذلك: أن فرعون كان يقتل غلمان بني إسرائيل على ما تقدم ذكره، ثم خشي أن يفنى نسل بني إسرائيل فكان يقتل في سنة، ولا يقتل في سنة، فولد موسى في السنة التي يقتل فيها الغلمان فنجاه اللّه من القتل بأن ألهم أمه: أن اجعليه في التابوت واطرحي التابوت في اليم وهو البحر وأراد به النيل، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ أي اجعليه. قوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لفظه لفظ الأمر وهو جزاء تقديره حتى يلقيه اليم بالساحل. قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أراد به فرعون. قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وذلك أن أم موسى لما اتخذت لموسى تابوتاً جعلت فيه قطناً محلوجاً، ووضعت فيه موسى، وألقته في النيل، وكان يشرع منه نهراً كبيراً في دار فرعون فبينما هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذا بالتابوت يجيء من الماء فلما رأى ذلك أمر الجواري والغلمان بإخراجه فأخرجوه وفتحوه فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 31.

وقال عطية العوفي: جعل عليه مسحة من جمال فأحبه كل من رآه. وقال عطاء عن ابن عباس معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي لا يلقاك أحد إلا أحبك من مسلم وكافر. وقال عكرمة: ألقيت عليك ملاحة وحسناً فحين أبصرت آسية ما معه قالت لفرعون: قرة عين لي ولك[1]. وقال أبو عبيدة معناه: وجعلت لك محبة عندي، وعند غيري. أحبك فرعون فسلمت من شره وأحبتك امرأته فتبنّتك[2]. قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي ولتربى وتغذى بمرآي. أراد نجري أمرك على ما أريد به من الرفاهية في غذائك. وقال قتادة: جعلناه يتغذى على محبتي وإرادتي. قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أن موسى جعل يبكي ويطلب اللبن فأمر فرعون من أتى بالنساء اللواتي حول دار فرعون ليرضعن موسى فلم يقبل ثديّ واحدةٍ منهن، وكانت أخت موسى متبعة للتابوت ماشية خلفه فلما حمل التابوت إلى فرعون ذهبت هي معه فقالت: هل أدلكم على من يكفله أي من يرضعه، ويضمه، ويحضنه؟ فقالوا من هي؟ قالت: امرأة قد قتل ولدها وهي تحب أن تجد صبياً ترضعه، فأذن لها فرعون في إحضارها، فانطلقت فأتت بأم موسى، فأعطته الثدي فأخذه موسى، وفرح به فرعون، وجعل لها الأجرة على الإرضاع، وحملته أمه إلى دارها فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي رددناك إليها كي تطيب نفسها، ولا تحزن على ابنها ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي من غم القود، وخلصناك من أن تقتل. وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ أي أوقعناك في محنة بعد محنة ونحن نخلصك منها، وذلك أن حمل به في السنة التي يذبح فيها الأطفال ثم إلقاؤه في البحر ثم منع الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جزّ لحية فرعون حتى همّ بقتله ثم تناول الجمرة، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مدين خائفاً يترقّب. فمعنى ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ أي خلصناك من تلك المحن، وقيل معناه: شددنا عليك في أمر المعاش حتى رعيت لشعيب عشر سنين. وقال ابن عباس

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 12.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 19.

معناه: اختبرناك اختباراً، وقال الضحاك: ابتليناك ابتلاءً، وقال مجاهد: خلصناك خلاصاً[1]. قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يعني لبثت في أهل مدين حين كنت راعياً لشعيب مكثت عشر سنين. وتقدير الكلام وفتنّاك فتوناً فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين، وبلاد أهل مدين على ثماني مراحل من مصر. وقال وهب: لبثت في أهل مدين عند شعيب ثماني وعشرين سنة، عشر سنين التي رعى فيها لشعيب، وثماني عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له وقتل القبطي يوم قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ معناه: فلبثت في أهل مدين حين كنت راعياً لشعيب ثم جئت على المقدار الذي قدره اللّه لمجيئك وكتبه في اللوح المحفوظ. قال ابن كيسان: جاء على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء[2].

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿41﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿42﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿43﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿44﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿45﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿46﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿47﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿48﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿49﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿50﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿51﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿52﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿53﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿54﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿41﴾﴾ أي اختصصك لوحيي ورسالتي، والاصطناع: هو الإخلاص بالألطاف، وقال الزجاج معناه: اخترتك لإقامة

---

(1) ذكر البغوي هذه الأقوال في المرجع نفسه.
(2) البغوي في المرجع نفسه: 4/ 13.
القرطبي في تفسيره: 11/ 198.

حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي[1]. قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أي باليد والعصا ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾ أي لا تفترا في تبليغ رسالتي إلى فرعون ولا تضعفا عن ذكري، وقيل لا تقصرا ولا تبطئا. وقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ قد تقدم تفسيره. قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ أي قولا له بالشفقة ولا تقولا له قولاً عنيفاً فيزداد غضباً لغلظ الهول. قال السدي وعكرمة: كنياه قولا له: يا أبا العباس. وقيل: يا أبا الوليد، ويا أيها الملك، وقيل يعني بالقول اللين: هل لك إلى أن تزكّى؟ وأهديك إلى ربك فتخشى. وعن السدي قال: القول اللين: أن موسى أتاه فقال له تؤمن بما جئت به، وتعبد رب العالمين؟ على أن لك شبابك فلا تهرم، ويكون لك ملكك لا تنزع حتى تموت، ولا تنزع عنك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت، فإذا مت دخلت الجنة فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان هامان غائباً فقال فرعون لموسى: إن لي ذا أمر وهو غائب فاصبر حتى يقدم فلما قدم قال له فرعون: يا هامان إن موسى دعاني إلى أمر فأعجبني، وأخبره بالذي دعاه إليه، وأردت أن أقبل منه، فقال هامان: قد كنت أرى أن لك عقلاً بينما أنت رب فتريد أن تكون مربوباً وأن تُعبد فتريد أن تَعبد فغلبه على رأيه فأبى[2].

روي أن رجلاً قرأ في مجلس يحيى بن معاذ هذه الآية ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ فبكى يحيى وقال: إلٓهي هذا رفقك بمن يقول: أنا إلٓه فكيف ورفقك بمن يقول: أنت إلٓهي؟[3] إن قول: لا إلٓه إلا اللّٰه يهدم كفر خمسين سنة. قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ أي يتعظ أو يخشى العاقبة، وكلمة لعل للترجي والطمع أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وأنا عالم بما يفعل فإن قيل كيف قال لعله يتذكر وعلمه سابق في فرعون أنه لا يؤمن، ولا يتذكر، ولا يخشى؟ قيل هذا مصروف إلى غير فرعون تقديره لكي يتذكر متذكر أو يخشى خاشٍ إذا رأى بري، وإلطافي بمن خلقته، ورزقته، وصححت جسمه، وأنعمت عليه ثم ادعى

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 2/ 365.
(2) البغوي في تفسيره: 4/ 14.
(3) المرجع نفسه.

الربوبية دوني[1]. قال بعض العارفين في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ إذا كان هذا رفقك بمن ينافيك فكيف رفقك بمن يصافيك؟ وهذا رفقك بمن يعاديك فكيف رفقك بمن يواليك؟ هذا رفقك بمن يسبك فكيف رفقك بمن يحبك؟ هذا رفقك بمن يقول: نداً فكيف رفقك بمن يقول فرداً؟ هذا رفقك بمن ضلَّ فكيف رفقك بمن ذلَّ؟ هذا رفقك بمن اقترف فكيف رفقك بمن اعترف؟ هذا رفقك بمن أصرَّ فكيف رفقك بمن أقرَّ؟ هذا رفقك بمن استكبر فكيف رفقك بمن استغفر؟ وعن وهب بن منبه قال: أوحى اللَّه إلى موسى انطلق إلى فرعون برسالتي فمعك نظري، وأنت جند عظيم من جنودي بعثتك إلى خلق ضعيف قد غرته الدنيا حتى كفر، وأقسم بعزتي لولا اتخاذ الحجة عليه، والعذر إليه لبطشت به بطشة جبار تغضب لغضبه السموات والأرض، فإن آذن للسماء حصبته، وللأرض ابتلعته، وللجبال دمّرته، وللبحار أغرقته، ولكنه وسعه حلمي فبلغه رسالتي وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لا يغرنك ما لبسته من لباس الدنيا فأجب ربك الذي هو واسع المغفرة إنه قد أمهلك منذ خمسمائة سنة ولم تهرم، ولم تسقم، ولم تفتقر، واعلم أنه أفضل ما يتزين به العباد الزهد في الدنيا، ومن أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة. قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿45﴾﴾ معناه: قال موسى وهارون ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا. قال ابن عباس: يعجل بالقتل والعقوبة، وقيل يغلبنا أو أن يطغى ويتكبر ويستعصي علينا يقال: فرط علينا فلان إذا عجل بمكروه، وفرط منه أمر أي بدر وسبق[2]. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أي معكما بالنصرة والعون أسمع ما يرد عليكما، وأرى ما يصنعه بكما. وقيل معناه: أسمع دعاؤكما فأجيبه، وأرى ما يريد بكما فأمنعه ولست بغافل عنكما فلا تهتما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلقهم من اعتقالك، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ تتبعهم بالأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾أي بعلامة من ربك وهي اليد والعصا وهما أول آية، وقيل اليد خاصة.

---

(1) نسبه البغوي في المرجع نفسه إلى: الحسين بن الفضل.

(2) المرجع نفسه.

وكان فرعون قد أتعب بني إسرائيل بالأعمال الشاقة مثل: اللبن والطين والبناء وما لا يقدرون عليه، فلما قال موسى له قد جئناك بآية من ربك قال: ما هي؟ فأدخل يده في جيب قميصه، ثم أخرجها فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس فعجب منها ولم يره العصا إلا بعد ذلك، يوم الزينة. قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿47﴾﴾ ليس هو تحية لفرعون ولكن معناه: أن من اتبع الهدى مسلم من عذاب اللَّه بدليل أنه عقبه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿48﴾﴾ أي إنما يعذب اللَّه من كذب بما جئنا به، وأعرض عنه، فأما من اتبعه فإنه يسلم. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿49﴾﴾ أي من إلٓهكما الذي أرسلكما؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي ربنا الذي خلق كل شيء على الهيئة التي ينتفع بها وأعطاه صحته وسلامته، وركب فيه شهوته، ثم هداه لمعيشته، وقيل معناه: الذي صور كل جنس من الحيوان على صورة أخرى، فلم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً. وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه: يعني لليد البطش، وللرجل المشي، وللسان النطق، وللعين النظر، وللأذن السمع. وقال سعيد بن جبير: أعطى كل شيء شكله، للإنسان زوجة، وللبعير ناقة، وللفرس رمكة، وللحمار أتانة، وللثور بقرة ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿50﴾﴾ أي ثم ألهم وعرف كيف يأتي الذكر والأنثى في النكاح(1). قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿51﴾﴾ أي ما حال وما شأن الأمم الماضية؟ لم يبعثوا ولم يجازوا على أفعالهم، ومعنى البال: الحال والشأن والمعنى: ما حالها؟ فإنها لم تقر باللَّه ولكنها عبدت الأوثان، ويعني بالقرون الأولى مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ وإذا علم لا بد أن يجازي. وقيل معناه: علم أعمالها عند ربي في كتاب أراد به اللوح المحفوظ. قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يذهب عليه شيء، ولا يخطىء ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يجازيهم عليه، وقيل لا يغفل ربي ولا يترك شيئاً، ولا يغيب عنه شيء، وفي هذا دليل أن اللَّه تعالى لم يكتب أفعال العباد لحاجة في

---

(1) ذكر البغوي في تفسيره: 4/ 15. قولي الضحاك، وابن جبير.
وكذا القرطبي في تفسيره: 11/ 204 ـ 205.

معرفتها إلى الكتاب، ولكن لتعرف الملائكة. ويقال كان سؤال فرعون عن القرون الأولى هل بعث إليهم أنبياء كما بعث إلينا فما حالها على ما في المعلوم من أمرها؟

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وقرأ أهل الكوفة ﴿مَهْدًا﴾ بغير ألف[1] أي فرشاً، والمهاد: الفراش، والمهد: لغة فيه كالفرش والفراش أي جعلها مبسوطة ليمكن القرار عليها ولم يجعلها حادة كرؤوس الجبال. قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقاً تذهبون وتجيئون فيها، وتسلكونها. قال ابن عباس: ﴿وَسَلَكَ﴾ أي سهل لكم فيها طرقاً[2]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر. قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي فأخرجنا بالمطر أصنافاً من نبات مختلف الألوان. وقوله: ﴿شَتَّىٰ﴾ أي مختلف الألوان، والطعوم والمنافع من أخضر، وأحمر، وأصفر. قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي كلوا من نبات الأرض، وارعوا أنعامكم من عشبها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي إن فيما ذكرت لكم لعلامة دالّة على البعث لذوي العقول من الناس وإنما سميت العقول: نهى، لأن أصحابها ينتهون بها عن القبيح، والمعاصي.

قال اللّه تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (55) وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا
فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ
مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ
يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (60) قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (61)
فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (62) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (63) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 2/ 32.
(2) البغوي في تفسيره: 4/ 16.

ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿64﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿65﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿66﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي من الأرض خلقنا أباكم آدم وكلكم من ذريته ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت والدفن ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ مرة أخرى للبعث، وقد جرى ذكر الأرض في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿56﴾﴾ أي أرينا فرعون آياتنا التسع كلها فكذب أي قال: ليست هذه من اللَّه وأبى أن يسلم ويقبل ونسب موسى إلى السحر فقال أجئتنا لتخرجنا من أرض مصر بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر ما جئتنا به ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي ميقاتاً وأجلاً في موضع معلوم ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ أي لا نجاوزه، ولا يقع منا خلف في حضوره. وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿58﴾﴾ أي مكاناً مستوياً يبين للناس ما بيننا ويستوي حالنا من الرضاء به، وقيل تستوي مسافته على الفريقين فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر، فواعده موسى يوماً معلوماً وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي يوم العيد الذي لكم، قال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء[1] قرأ الحسن: يومَ الزينة بنصب الميم أي في يوم، وقرأ الباقون بالرفع على الخبر[2]. وقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي ضحى ذلك اليوم، وأراد بالناس أهل مصر، ومعنى: يحشرون: أي يجمعون إلى العيد، وإنما جعل موسى موعدهم نهاراً في يوم اجتماعهم ليكون أبلغ في الحجة، وأبعد من الريبة. وقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع على معنى موعدكم حشر الناس ووقت الضحى من يوم الزينة، ويحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على الزينة. المعنى: يوم الزينة، ويوم حشر الناس في وقت الضَّحوة.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿60﴾﴾ أي فأعرض فرعون عن

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 18.
(2) ابن حيان، البحر المحيط: 6/ 252.

الحق والطاعة فجمع كيده ومكره وذلك جمعه السحرة، ثم أتى الموعد والمعنى فجمع كيده أي سحرته قيل: كانوا أربعمائة ساحر، فقال موسى للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تشركوا مع اللّه أحداً ولا تختلقوا عليه كذباً بتكذيبي ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي فيهلككم ويستأصلكم بعذاب من عنده ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أي وقد خسر من اختلق على اللّه كذباً. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي ألزمكم اللّه الويل. قرأ أهل الكوفة: فيُسْحِتكم بضم الياء وكسر الحاء[1]. يقال: سحته اللّه وأسحته أي أهلكه. قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (62)﴾ فتشاورت السحرة فيما بينهم سراً من فرعون في أمر موسى وأسروا المناجاة. فقالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه وآمنا به فهذا نجواهم. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ أي قال الملأ من قوم فرعون: إن موسى، وهارون لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي بدينكم الأمثل، وقيل معناه: ويذهبا بأهل طريقتكم. واختلفت القراءة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾ قرأ أبو عمرو: هذان على اللغة المصروفة، وهي لغة الحجاز، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي هذان بالألف[2] وهي لغة كنانة، وبني الحارث بن كعب، وخثعم، وزبيد، وقبائل من اليمن: يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون: جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان. قال الفراء: أنشدني رجل من بني أسد وما رأيت أفصح منه:

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ∴ مساغاً لناباه الشجاع لصمّما[3]

ويقولون: كسرت يداه، وركبت عالاه بمعنى: يديه وعليه قال الشاعر[4]:

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 2/ 34.

(2) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 419.

(3) نسب هذا البيت «للمتلمس» من قصيدة قالها يعتب بها على خاله.
روي «ولو درى»، والشجاع: ذكر الأفاعي، وأطرق: وقف متحيراً، وصمم: عض من العظم.
الفراء، معاني القرآن: 2/ 184، اللسان: صم، المستقصى في أمثال العرب للزمخشري: 1/ 221.

(4) هو بر الحارثي.

تـزوّد مـنـا بـيـن أذنـاه ضـربـة ∴ دعـتـه إلـى هـابـي الـتـراب عـقـيـم[1]

أراد بين أذنيه. وقال آخر:

أي قـلـوص راكـب تـراهـا ∴ طـاروا عـلاهـنَّ فـطـر عـلاهـا[2]

أي عليهن. ولآخر:

إن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا ∴ قـد بـلـغـا فـي الـمـجـد غـايـتـاهـا[3]

وقال بعضهم: إن هنا بمعنى نَعَم.

روي أن أعرابياً سأل ابن الزبير شيئاً فحرمه. فقال لعن اللَّه ناقة حملتني إليك. فقال ابن الزبير: إنّ وصاحبها يعني نعم[4]. وقال الشاعر[5]:

بـكـر الـعـواذل فـي الـصـبـو ∴ ح يـلـمـنـنـي وألـومـهـنّـه[6]

ويـقـلـن شـيـب قـد عـلا ∴ ك وقـد كـبـرت فـقـلـت إنـه

أي نعم. وقد ذكر أهل النحو لتصحيح هذه القراءة وجوهاً: أحدها: ضعف عمل إن لأنها تعمل بشبه الفعل وليست بأهل من العمل. ألا ترى أنها لما خففت لم تعمل، والثاني: أنها تشبه الذين في البناء لأن الذين في الرفع والنصب والخفض سواء، ولأن الألف في هذان ليست ألف التثنية لوجودها في

---

(1) «هابي التراب»: التراب المختلط بالرماد. يقول الشاعر: تلقى منا بين أذنيه ضربة ألقته على الأرض ميتاً.
الخزانة: 7/ 453، اللسان: صرع ـ هبا. حجة القراءات لأبي زرعة: ص 454، شرح المفصل: 3/ 128.

(2) نسب لبعض أهل اليمن، الخزانة: 7/ 113، شرح المفصل: 3/ 129، الخصائص: 2/ 269.

(3) هذا البيت: نسب لرجل من بني الحارث، وبعضهم نسبه إلى: أبي النجم العجلي، ونسب إلى رؤبة بن العجاج، ونسب لبعض أهل اليمن.
الخزانة: 7/ 455، شرح الرضي على الكافية: 3/ 349، نوادر أبي زيد الأنصاري: ص 259.

(4) البغوي في تفسيره: 4/ 19.

(5) عبيد اللَّه بن قيس بن شريح العامري، اشتهر بقيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة كل واحدة منهن اسمها رقية، امتاز شعره بالرقة، وأكثر في الغزل. توفي سنة خمس وثمانين هجرية.

(6) ديوان الشاعر: ص 66، شرح المفصل: 1/ 130، الكتاب: 1/ 475، اللسان: أنف.

الوجدان، وإنما زيدت النون في التثنية ليكون فرقاً بين الواحد والاثنين كما قالوا: الذي ثم زادوا نوناً تدل على الجمع قالوا الذين في رفعهم ونصبهم، والثالث: إن هاهنا هاء مضمرة، المعنى: إنه إلا أنه حذفت الهاء، والرابع: إنه لما حذفت الألف صارت ألف التثنية عوضاً عنها، والخامس: إن بمعنى نعم.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو: فاجمعوا كيدكم بوصل الألف وفتح الميم من الجمع، وتصديقه قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ وقرأ الباقون: فأجمعوا بقطع الهمزة وكسر الميم[1] مأخوذ من أجمعت الأمر إذا عزمت عليه وأحكمته. وقوله تعالى: ﴿كَيْدَكُمْ﴾ أي مكركم وسحركم. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأموركم وأشد لهيبتكم، وقيل معناه: ثم ائتوا المصلى والعرب تسمى المصلى صفاً. قال الزجاج: فعلى هذا معناه: ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم[2]. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي قد فاز بالفلاح والبقاء من كانت الغلبة له. قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿65﴾﴾ أي قالت السحرة يا موسى إما أن تلقي عصاك إلى الأرض، وإما أن نكون أول من ألقى العصيّ والحبال، قال لهم موسى: بل ألقوا أنتم ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ روي أنهم كانوا سبعين ألف ساحر وكان عدد ما عملوا من الحبال والعصي حمل ثلاثمائة بعير. فألقوا ما معهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي تمشي وتتحرك، وكانوا قد احتالوا فيها بحيلة، فكان كل من رآها من بعيد يخيل إليه أنها تتحرك. قرأ ابن عباس بالتاء رده إلى الحبال والعصي، وقرأ الباقون بالياء رده إلى الكيد والسحر[3]، وذلك أنهم لطخوا حبالهم وعصيهم بالزئبق فلما أصابه حر الشمس ارتعشت واهتزت فظنّ موسى أنها تقصده.

قال اللّه تعالى:

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿67﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿68﴾ وَأَلْقِ مَا فِى

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 40.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 365.
(3) مكي في الكشف: 2/ 101، النحاس، إعراب القرآن: 3/ 48.

يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (70) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (72) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (73)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (67)﴾ أي أحسّ ووجد، وقيل أضمر في نفسه خيفة. فإن قيل لم جاز أن يأمرهم بالإلقاء وهو كفر؟ قيل يجوز أن يكون معناه: ألقوا إن كنتم محقين كما زعمتم، ويجوز أن يكون أمراً بالإلقاء على وجه الاعتبار. وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ فإن قيل ما الذي خافه موسى؟ قيل خاف أن يلبس على الناس أمر السحر فيتوهمون أن حبالهم وعصيهم بمنزلة عصاه، وقيل كان خوفه خوف الطبع لما رأى من كثرة الحيات العظام. قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (68)﴾ عليهم بالطعن والغلبة. قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ يعني العصا ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي تبتلع وتلقم ما طرحوا من العصي والحبال ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أي إن الذي صنعوه كيد ساحر وقرىء ـ كيد سحر[1] ـ كما قالوا: قميص حرير ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي لا يغلب حقك بباطله، وقيل لا يسعد الساحر حيث كان. فألقى موسى عصاه فتلقفت جميع ما صنعوا، ثم أخذها موسى فرجعت عصا كما كانت ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها فعند ذلك ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الجنة والنار، وما رأوا من درجاتهم. قال فكانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ قيل لها موسى غلب، فقالت آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقال انظروا إلى أعظم صخرة تجدونها فأتوها فإن هي رجعت عن قولها، وإلا فألقوها عليها، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 44.

فرأت الجنة فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1] فانتُزعت روحُها، وألقى الصخرة على جسد لا روح فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قال فرعون آمنتم لموسى قبل أن آذن لكم في الإيمان له. والفرق بين آمنتم له وبين آمنتم به: أن في آمنتم له يعني الإتباع له، وآمنتم به إيمان بالخير من غير اتباع له فيما دعا إليه. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي رئيسكم ومعلمكم وإنما قال فرعون هذه المقالة قصداً منه إلى صرف الناس عن اتباع موسى لأن السحرة لم يتعلموا من موسى، وإنما كانوا يعلمون السحر قبل قدوم موسى، وقبل ولادته. قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ قد تقدم تفسيره ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل أقيم حرف ـ في ـ مقام حرف ـ على ـ فكان فرعون أول من قطع اليد والرجل من خلاف، وصلب. قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي لتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى أنا أو رب موسى وهارون. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي قالت السحرة لفرعون لن نختارك على ما جاءنا من الحق والبراهين يعني اليد والعصا. وقال عكرمة: هو أنهم لما رفعوا رؤوسهم من السجود رأوا الجنة، والنار، ورأوا منازلهم في الجنة[2]. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي لن نؤثرك على اللّه الذي فطرنا أي خلقنا، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قسماً ـ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي اصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنما تحكم علينا في الدنيا وهي منقضية لا محالة فأما الآخرة فليس لك فيها حظ. قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي شركنا في الجاهلية، ويغفر لنا ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾. قال ابن عباس: كان فرعون يكره الناس على تعلم السحر حتى لا ينقطع عنهم[3]. وقيل إنه أكره هؤلاء السحرة على معارضة موسى. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي هو خير ثواباً إن أطيع، وأبقى عقاباً إن عصى، ويقال: ما عند اللّه من الكرامة والثواب أفضل

---

(1) سورة التحريم (66)، الآية: 11.
(2) البغوي في تفسيره: 4/ 22.
(3) البغوي في المرجع نفسه.

وأدوم مما تعطينا أنت من المال وهذا جواب عن قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وهاهنا انتهى قول السحرة.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (74) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (75) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (76) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (79) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (80) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (81) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (82)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي من يأت إلى موضع الحساب عاصياً فإن له جهنم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه. قال ابن عباس: المجرم الكافر. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي قد عمل الطاعات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي الرفيعة في الجنة فدرجات الجنة بعضها أعلى من بعض ـ والعلى جمع العليا ـ قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كأضواء كوكب دري، وإن أبا بكر وعمر منهم**»(1). قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (76)﴾ أي من تطهر من الذنوب بالطاعة بدلاً من تدنيس النفوس بالمعصية. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ يعني أسر بهم في أول الليل من أرض مصر، يعني بني إسرائيل ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي يابساً وذلك أن اللَّه تعالى أيبس لهم ذلك الطريق حتى لم يكن فيه ماء ولا طين. قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي إنك آمن لا تخاف أن

---

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 4/ 33، بسنده عن أبي سعيد الخدري.

يدركك فرعون ولا تخشى الغرق من البحر. وقرأ حمزة: لا تخف على النهي مجزوماً[1]، ولا تخشى بالألف كأنه استأنف تقديره: وأنت لا تخشى كقوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ من قرأ فأتْبعهم بالتخفيف فمعناه: ألحق جنوده بهم والباء ـ في بجنوده زائدة ـ والمعنى: أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه. ومن قرأ: فاتّبعهم بالتشديد[3] فالمعنى: اتّبعهم بنفسه ومعه الجنود. قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿78﴾﴾ أي علاهم وسيرهم من البحر ما علاهم وهو الفرق. وذلك أنه لما تراءى الجمعان أمر اللَّه موسى أن يضرب بعصاه البحر. فضربه فانفلق الماء في عرض البحر حتى صار فيه اثنا عشر طريقاً، وبقي الماء قائماً بين الطريق والطريق كالجبل فسلك موسى، وأخذ كل سبط من بني إسرائيل طريقاً من هذه الطرق، فلما أشرف فرعون وقومه على البحر فرأوه منفلقاً فيه طرق يابسة أوهم قومه أن البحر إنما انفلق من هيبته فدخل فرعون خلف بني إسرائيل، وصاحت الملائكة في القوم أن الحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج أطبق اللَّه عليهم البحر فغرقوا. وقال وهب: استعار بنو إسرائيل حلياً كثيراً من القبط ثم خرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفاً، فأخبر فرعون بذلك فركب في ستمائة ألف من القبط يقص أثر بني إسرائيل فلما رأى قوم موسى رهج الخيل أي غبارها قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[4] قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[5] فلما قربوا قالوا يا موسى أين نمضي، البحر أمامنا وفرعون خلفنا؟ فضرب البحر بعصاه فانفلق وصار فيه اثنا عشر طريقاً يابسة لكل سبط طريق، وصار بين كل طريقين كالطور العظيم من الماء، وكانوا يمرون في الطريق، ولا يرى بعضهم بعضاً فاستوحشوا وخافوا فجعل اللَّه الأطواد شبكات يرى بعضهم بعضاً، وسمع بعضهم كلام

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 421.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 111.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 422.
(4) سورة الشعراء (26)، الآية: 61.
(5) سورة الشعراء (26)، الآية: 62.

بعض فلما أتى فرعون الساحل، ورأى بني إسرائيل قد عبروا البحر جاء جبريل على رمكة طالبة للذكر وكان فرعون على حصان فأدخل الرمكة في الماء فلم يتمالك حصان فرعون أن اقتحم على أثرها، ودخل القبط عن آخرهم فلما ولجوا كلهم أوحى اللَّه إلى البحر أغرقهم فعلاهم الماء فغرقوا. فعرف السامري فرس جبريل فحمل من أثره تراباً فألقاه في العجل حين اتخذه. قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ أي أضلهم حين دعاهم إلى عبادته ﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ أي وما أرشدهم وحين أوردهم مواقع الهلكة. وهذا تكذيبه له في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ يعني فرعون أغرقه بمرأى منهم ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾، قرأ حمزة والكسائي: أنجيتكم ووعدتكم ورزقتكم ـ بغير ألف[2] ـ وذلك أن اللَّه وعد موسى بعدما أغرق فرعون ليأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فيها بيان ما يحتاجون إليه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ في التيه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي من حلال ما رزقناكم من المن والسلوى، واشكروا إنعامي. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي لا تبطروا فيما أنعمت عليكم فتطاولوا ولا تجاوزوا عن شكري إلى معاصي ولا تجحدوا نعمتي فتكونوا طاغين ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي فتجب عليكم عقوبتي. قرأ الأعمش والكسائي: فيحلُّ[3] أي فينزل. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ أي فقد تردّى في النار، وقيل معناه: قد هلك وسقط في النار، وقرأ الكسائي: ومن يحلُلْ ـ بضم اللام ـ قال الفراء: والكسر في الموضعين أحب إليّ من الضم لأن الضم من الحلول وهو الوقوع، ويحل بالكسر يجب وجاء التفسير بالوجود لا بالوقوع[4]. قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ أي لمن تاب من الشرك، وآمن باللَّه، وعمل

---

(1) سورة غافر (40)، الآية: 29.
(2) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 422.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 25، وابن مجاهد في المرجع نفسه.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/ 188.

صالحاً، ثم استقام على معرفة اللّه، وآداء فرائضه، واجتناب محارمه حتى مات على ذلك، وقيل معنى: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿82﴾﴾ أقام على السنّة والجماعة وتعلم العلم ليهتدي به، وقيل: علم أن ذلك بتوفيق اللّه.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿83﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿84﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿85﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿86﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿87﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿88﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿89﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿90﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿91﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿83﴾﴾ الآية، روي أن موسى لما ذهب مع السبعين إلى ربه وخلف الذين اختارهم إلى الميقات ليأخذ التوراة من ربه تعجل الميقات قبل السبعين شوقاً إلى ربه، وخلف أولئك السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل وهو الطور والميقات. فقال اللّه تعالى: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿83﴾﴾ فقال يا رب ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي هم هؤلاء يجيئون بعدي ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي لتزداد رضى عني[(1)]. والرضاء من اللّه تعالى عن العباد إيجاب الدرجة والكرامة لهم. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿85﴾﴾ أي أبلينا قومك الذين خلقتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف. وقال الزجاج معنى فتنّا قومك أي ألقيناهم في فتنة ومحنة[(2)]. وقال ابن الأنباري: صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 25.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 3/ 371.

العجل فافتتنوا بالعجل غير اثني عشرَ ألفاً. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي من بعد انطلاقك إلى الجبل. قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي دعاهم إلى عبادة العجل وحملهم عليها ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ أي رجع من الميقات مع السبعين إلى قومه، فلما سمع صوت الفتنة رجع غضبان أسفاً، أي حزيناً ـ شديد الحزن جزعاً مع غضبه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ أي ألم يعدكم بإنزال التوراة لتعملوا بما فيها فتستحقوا الجنة والكرامة الدائمة ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ بأن ينزل العذاب بكم بعبادتكم العجل ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ في حسن الخلافة بعدي. قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ أي قال الذين لم يعبدوا العجل ما أخلفنا موعدك ونحن نملك من أمرنا شيئاً، أي لم نطق ردّ عبدة العجل عن ما ارتكبوه لكثرتهم وقلّتنا لأنهم اثنا عشر ألفاً، والذين عبدوا العجل خمسمائة ألف وثمانية وثمانون ألفاً لأنهم كانوا جميعاً ستمائة ألف ـ وأكثر القراءات ـ بملكنا ـ بالكسر ـ أي بأمرنا، ومن قرأ بفتح الميم فهو المصدر، ومن قرأ بضم الميم فمعناه: بسلطاننا وقدرتنا، أي لم نقدر على ردهم[1]. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي أثقالاً وأحمالاً من حلي آل فرعون، والوزر في اللغة: هو الحمل الثقيل، وذلك أن موسى كان أمرهم: أن يستعيروا من حليهم حين أرادوا أن يسيروا. هكذا روي عن ابن عباس، وقيل إنهم كانوا استعاروها ليتزينوا بها في عيد كان لهم ثم لم يردوها عليهم عند الخروج وكان ذلك ذنباً منهم فعلى هذا يكون معناه: حملنا آثاماً من حلي القوم[2]. قوله تعالى: ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي قذفنا الحلي في النار لتذاب، وكذلك ﴿أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ ما معه من الحلي معنا كما ألقينا، وذلك أن اللّه تعالى قد وقّت لموسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر فلما مضت الثلاثون قال السامري: إنما أصابكم هذا عقوبة لكم بالحلي الذي معكم فاجمعوها حتى يجيء موسى فيقضي فيها، فجمعت له فصاغ منها عجلاً في ثلاثة أيام، ثم قذف فيه القبضة التي اتخذها من أثر فرس

---

(1) ذكر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 423. هذه القراءات، وأسماء القراء.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 26.

جبريل. قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي أخرج لهم من النار صورة عجل صاغها من الحلي. وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صوت كصوت العجل، واختلفوا في هذا الخوار. قال مجاهد خواره: حفيف الريح إذا دخلت جوفه، وذلك أنه كان جعل في جوف العجل خروقاً إذا دخلتها الريح أوهم أنه يخور.

وقال الحسن وقتادة والسدي: كان السامري ألقى عليه شيئاً من أثر فرس جبريل كما قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ فانقلب العجل حيواناً يخور وكان معلوماً في ذلك الزمان أن من أخذ من حافر دابة ملك فألقاها على شيء صار ذلك الشيء حيواناً. قالوا وإنما عرف أن راكب تلك الدابة جبريل لأنها كانت لا تضع حوافرها على موضع إلا اخضرّ. ويروى أن هارون مرّ بالسامري وهو يصنع العجل، فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر، ثم قال لهارون: ادع لي. فقال: اللهم اعطه ما يسأل كما يحب[1]. فسأل اللَّه أن يجعل للعجل خواراً فكان الخوار يخرج من ذلك الجسد المجسد كما يخور الثور، فأوهمهم السامري أنه حي فافتتن به قوم فعبدوه، ولو رجعوا إلى عقولهم لعرفوا أنه لا يصلح أن يكون إلَهاً لأنه مصنوع صنعه آدمي مخلوق من حلي مخلوقة. قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي قال لهم السامري ذلك ووافقه قوم على ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي فنسي السامري الإسلام، أي فتركه، وقيل معناه: قال السامري لمن وافقه على كفره: إن موسى أراد هذا العجل فترك الطريق الذي كان يصل به، إليه أي إن موسى ترك إلَهه هنا وذهب يطلبه. قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي أفلا يرى السامري وأصحابه أنه يعني العجل لا يرد إليهم جواباً، ولا يملك لهم جرّ منفعة ولا دفع ضر. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ وذلك أن السامري لما دعاهم إلى عبادة العجل وقال لهم: إن هذا إلَهنا

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 27 ـ 28.

وإله موسى، وإن موسى مضى في طلبه وهو هاهنا فقام هارون فيهم خطيباً وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم﴾ بعبادة العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ لما أدعوكم إليه ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ لأمر السامري فعصوه. وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي لا نزال مقيمين على عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل أن يأتي موسى.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

قال أبو بكر:

فلما رجع موسى قال لهارون ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ لا زائدة أي ما منعك من اتباعي واللحوق بي بمن أقام على إيمانه ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ بإقامتك بينهم وقد كفروا. ثم أخذ موسى برأس هارون ولحيته غضباً منه عليه ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾ ولا بشعر رأسي إني خشيت إن فارقتهم واتبعتك بمن أقام على دينه أن يتفرقوا أحزاباً، وخشيت أن يقتل بعضهم بعضاً، فتقول فرقت بين بني إسرائيل ولم تحفظ قولي ووصيتي ولم تنتظر قدومي وأمري، فلذلك لم أتبعك بمن أقام منهم على دينه. قال ابن عباس: كان هارون أخا موسى لأبيه وأمه وإنما قال: يا ابن أم ليرفقه ويستعطفه عليه، وفي قوله: يا ابن أم ـ قراءتان: من قرأ بفتح الميم جعله بمنزلة اسم

واحد اتصل الثاني بالأول مثل: خمسة عشر، ومن قرأ بالكسر فعلى معنى الإضافة ودلّت كسرة الميم على الياء التي بعدها[1]. فإن قيل كيف جاز أن يأخذ موسى بلحية هارون ورأسه مع أن ذلك يقتضي الاستخفاف به؟ قيل لأن العادة في ذلك الوقت لم تكن هذه العادة بل كان يجري ذلك في زمانهم مجرى القبض على يده، وقيل لأنه أجرى هارون مجرى نفسه لأنه لم يكن يتهم عليه كما لا يتهم على نفسه، وقد يأخذ الإنسان بلحية نفسه إذا غضب، ويقال: إن عمر رضي اللّه عنه كان إذا غضب يفتل شاربه.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ أي أفتركت وصيتي؟ قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ بمعنى ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ فلما اعتذر هارون بهذا العذر أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي ما شأنك؟ وما الذي دعاك إلى ما صنعت؟ وقيل معناه: ما هذا الخطب العظيم الذي دعاك إلى ما صنعت؟ والخطب هو الجليل من الأمر. قال قتادة: كان السامري من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكنه بعدما قطع البحر مع بني إسرائيل مرّ بجماعة وهم يعكفون على أصنام لهم ومعه بنو إسرائيل ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[2] فاغتنمها السامري، واتخذ العجل. قال السامري مجيباً لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا﴾، أي رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا وفطنت ما لم يفطنوا له. قال له موسى: وما الذي بصرت به دون بني إسرائيل؟ قال قبضت قبضة من أثر حافر فرس جبريل وكان قد ألقى في نفسي أن أقبضها، وما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم، فحين رأيت قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلَهاً حدثتني نفسي بذلك فنبذتها أي فطرحتها في العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي كما حدثتك يا موسى، سولت لي نفسي أي زينت لي نفسي من أخذ القبضة وإلقائها في صورة العجل، وقيل معناه: وكذلك سولت لي نفسي، أي أطمعتني نفسي في أن العجل ينقلب حيواناً. وقرأ الحسن: فقبصت قبصة بالصاد فيهما،

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 423.
(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 138.

والفرق بينهما أن القبض جمع الكف، والقبص بأطراف الأصابع[1]. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ أي قال له موسى فاذهب من بيننا فإن لك ما دمت حياً أن تقول لا مساس لا أمسُّ ولا أُقسُّ ولا أخالط، وأمر موسى أن لا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه فحرم عليهم مخالطة السامري زجراً لفعلة، وكان هو يهيم في البرية مع الوحش والسباع، ويقال إنه ابتلي بالوسواس، ويقال إن موسى هم بقتل السامري. فقال اللَّه له لا تقتله فإنه سخيٌّ فكان السامري إذا لقي أحداً يقول: لا مساس أي لا تقربني ولا تمسني، وكان ذلك عقوبة له ولولده، عاقبه اللَّه بذلك حتى إن بقاياهم اليوم يقولون كذلك، وذكر أنه إذا مسّ واحد من نسله أحداً من غيرهم حم كلاهما في الوقت.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ معناه: وإن لك يا سامري أجلاً يكافيك اللَّه فيه على ما فعلت وهو يوم القيامة. قرأ الحسن[2] وابن كثير وأبو عمرو: تُخلِفه بكسر اللام أي لن تغيب عنه بل توافقه ولا مذهب لك عنه. وقرأ الباقون بفتح اللام[3] بمعنى لن يخلفه اللَّه. قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي وانظر إلى العجل الذي أقمت على عبادته وزعمت أنه إلَهك ومعبودك ﴿ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ أي مقيماً تعبده تقول العرب ظلت أفعل كذا بمعنى ظللت. قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾. قال ابن عباس: حرَّقه بالنار، ثم ذراه في اليم، وهذه القراءة تدل على أن ذلك العجل صار حيواناً لحماً ودماً لأن الذهب والفضة لا يمكن إحراقهما بالنار. وذكر في بعض التفاسير أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم لأنه كان قد صار دماً ولحماً ثم أحرقه

---

(1) ابن جني، المحتسب في وجوه شواذ القراءات: 2/ 55.

(2) أبو علي الحسن بن مسلم بن سفيان الضرير المفسر أحد رواة يعقوب، روى القراءة عن أبيه وعن زيد ابن أخي يعقوب وغيرهما، وعنه محمد بن إسحاق البخاري وغيره، غاية النهاية: 1/ 233.
قراءته (نُخْلِفه) بالنون، وكسر اللام، وهي من الشواذ رويت بخلاف عن الحسن. المبسوط في القراءات العشر: ص 297 ـ 298، المحتسب: 2/ 57.

(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 424.

بالنار ثم ذراه في البحر[1]. وكان الحسن يقرأ: لنُحْرقنه بالتخفيف[2] ومعناه: لنذبحنه ثم لنحرقنه بالنار، ثم ذراه في البحر لأنه لا يجوز إحراق الحيوان قبل الذبح كما روي في الخبر: «**لا تعذبوا أحداً بعذاب اللّه**»[3]. وقرأ أبو جعفر وأشهب العقيلي: لنحرُقنه ـ بنصب النون وضم الراء[4] ـ أي لنبردنه بالمبرد. يقال: حرقت الشيء أحرقته إذا بردته والمحرق هو المبرد، وهذه القراءة تدل على أن العجل بقي ذهباً ولكن كان له خوار. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ أي لنذرينه في البحر تذرية. يقال: نسف فلان الطعام بالمنسف إذا ذرّاه لتطير عنه قشوره. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي قال لهم موسى إنما إلّهكم اللّه الذي لا إلّه إلا هو أي لا معبود للخلق سواه، فهو الذي يستحق العبادة لا العجل. قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ أي أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء من أعمال العباد. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى وقومه كذلك نقص عليك من أخبار من قد مضى وتقدم من أخبار الرسل وأممهم ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، أي وقد أكرمناك بالقرآن العظيم. قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿100﴾﴾ أي من أعرض عن القرآن فلم يؤمن به فإنه يحمل يوم القيامة إثماً والوزر هاهنا: الحمل الثقيل من الإثم. وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ أي مقيمين في عقوبة ذلك الإثم، وعذابه، وساء وزرهم يومئذ حملاً.

قال اللّه تعالى:

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿102﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا
عَشۡرٗا ﴿103﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿104﴾
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿105﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿106﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 29.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 3: 57.
(3) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 6: 258 رقم 3017 ـ كتاب الجهاد والسير.
(4) النحاس في المرجع نفسه.

عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿107﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا
تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿108﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿109﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿110﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿102﴾﴾ قرأ أبو عمرو بنون مفتوحة، وقرأ الباقون بياء مضمومة على غير تسمية الفاعل[1]. والصور: قرن ينفخ فيه يومئذ ليقوم الناس من قبورهم مثل بوق الرحيل، وبوق النزول. قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل معناه: قد ازرقت أعينهم من شدة العطش لأن العطش إذا اشتد تغيّر سواد العين إلى الزرقة. وقيل معناه: عمياً. ومعنى الزرقة: الخضرة في سواد العين كعيني النسر. والمعنى في هذا تشويه الخلق بسواد الوجوه وزرقة العيون. قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم ـ بقول بعضهم لبعض ـ إن لبثتم إلا عشراً، أي ما لبثتم من النفخة الأولى إلى الثانية إلا عشر ليال. وذلك أنه يكف عنهم العذاب فيما بين النفختين وهو أربعون سنة فاقتصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا، وقيل معناه: يقولون ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليال وذلك لشدة ما يرون من هول يوم القيامة، ينسون ما لبثوا في الدنيا. قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ﴾ أي أعلمهم عندهم: إن لبثتم إلا يوماً. نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم، فقالوا هذا القول وهو كذب منهم. قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي يسألك الكفار عن حال الجبال يوم القيامة أين تذهب مع عظمها؟ وقال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل اللّه هذه الآية[2].

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 424.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 31.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي يصيرها رملاً تسيل سيلاً، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كتذرية الطعام من القشور والتراب، فيصيرها كالهباء وكالصوف المنفوش. قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿106﴾﴾ أي أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها. والصفصف: الأملس الذي لا نبات فيه. قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿107﴾﴾ قال ابن عباس: العوج: الأودية، والأمت: الروابي، وقال مجاهد: انخفاضاً وارتفاعاً، وقال قتادة: لا يرى فيها صدعاً ولا لكمة، وقال الحسن: العوج: ما انخفض من الأرض، والأمت: ما نشز من الروابي[1]. ويقال: مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أمتى، وملأ سقاه حتى ما ترك فيه أمتى: أي انثناء. قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي يومئذ يتبعون داعي اللّٰه الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، لا عوج لدعائه، وقيل لا عوج له عن دعائه أي لا يرفعون عنه بل يتبعونه سراعاً لا يعدلون عن الطريق يميناً ولا شمالاً، ولا يملكون التأخر. قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ذلت الأصوات لهيبة الرحمن، وقيل سكنت الأصوات، فوصفت الأصوات بالخشوع، والمعنى لأهلها. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي إلا صوتاً خفياً، يعني صوت نقل الأقدام إلى المحشر، والهمس: الصوت الخفي كصوت أخفاف الإبل في المشي. وقال ابن عباس معنى الهمس: تحريك الشفاه بغير منطق. وقال مجاهد: الكلام الخفي[2]، والمعنى على هذا التفسير: سكنت الأصوات فلا يجهر أحد بكلام إلا كالسر من الإشارة بالشفة وتحريك الفم من غير صوت. قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي لا تنفع الشفاعة لأحد من الناس إلا من أذن اللّٰه أن يشفع له فذاك الذي تنفعه الشفاعة، وقيل لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمٰن في أن يشفع، ورضي له قولاً في الدنيا وهم المؤمنون، فإن اللّٰه لا يرضى إلا قول المؤمنين. قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي أي يعلم ما قدموا وما خلفوا. قوله

---

(1) ذكر البغوي في تفسيره: 4/ 31 هذه الأقوال.

(2) البغوي في المرجع نفسه.

تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الكناية تعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم أي هو يعلم ذلك وهم لا يعلمون، ويجوز أن تعود الكناية إلى اللَّه تعالى: أي لا يعلمون ما هو صانع بهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (116) فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (120)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي ذلت الوجوه وخضعت، وأسلمت للحي الذي لا يموت، القائم الذي لا بدَّ له والعاني في اللغة: هو الأسير ومنه قولهم: أخذت الشيء عنوةً أي غلبة بذل المأخوذ منه. قال الشاعر[1]:

مليك على عرش السماء مُهَيْمِنٌ ∴ لعزَّته تعنو الوجوه وتسجدُ[2]

وقال الحسن: القيوم: القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجزيها به. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خاب من ثواب اللَّه من حمل شركاً

---

(1) أمية بن أبي الصلت، تقدمت ترجمته.

(2) القرطبي في تفسيره: 11/ 248.
والثعلبي في تفسيره: خ.
ابن الأنباري، الأضداد: 66.

ومعصيةً، ومعنى خاب: أي خسر. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ الزيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالنقصان من حسناته، والهضم: النقص. يقال: هضمني فلان حقي أي نقصني، وهذا شيء يهضم الطعام أي ينقص ثقله. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وهكذا أنزلناه قرآناً على اللغة العربية ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ﴾ أي وكررنا فيه من الوعيد، وقيل معنى صرفنا أي لقنا فيه من الوعيد يعني الوقائع في الأمم المكذبة لكي يتَّقوا الشِّرك بالاتعاظ بمن قبلهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي أو يحدث لهم القرآن اعتباراً فيذكروا به عقاب اللَّه، وقيل معناه: أو يحدث لهم ذكراً شرفاً بإيمانهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] أي شرف لك ولقومك.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي ارتفعت صفة الرحمن فوق كل شيء سواه لأنه أقدر من كل قادر، وأعلم من كل عالم، وكل قادر وعالم سواه محتاج إليه وهو غني عنه. وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي يحق له الملك فإن كل ملك سواه يملك بعض الأشياء ويبيد ملكه. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ قال الحسن: كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم: إذا نزل عليه الوحي عجل بقراءته مخافة نسيانه، وكان يقرأ مع الملك مخافة أن يذهب عنه شيء فنهي عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بقراءته من قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته عليك[2]. قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي زدنا حفظاً حتى لا ننساه. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ أي أمرناه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي، وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ والمعنى أن هؤلاء الذين صرف لهم في القرآن الوعيد إذا ضيعوا عهدي وخالفوا أمري فإن أباهم آدم عليه السلام عهدنا إليه أيضاً فنسي وترك عهدي وما أمر به ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي لم نجد له حفظاً لما أمرناه به. وقال الحسن: معناه: ولم نجد له صبراً عما نهي عنه[3]، وقيل معناه: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه حيث أطاع

---

(1) سورة الزخرف (43)، الآية: 44.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 33.
(3) البغوي نفسه.

عدوه إبليس الذي حسده، وأبى أن يسجد له. قال الحسن: كان عقل آدم كعقل جميع ذريته. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وجاء في الحديث: «**لو وزن حلم بني آدم مذ كان آدم إلى أن تقوم الساعة لرجح حلم آدم على حلمهم**»[1].
وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ قد تقدّم تفسيره. وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي لك ولامرأتك فلا تميلا إليه ولا تقبلا منه فيكون ذلك سبب خروجكما من الجنة إلى شدائد الدنيا وجوعها وعطشها وفقرها وتعبها في طلب المعاش. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي تتعب بالأكل من كدّ يدك وما تكسبه لنفسك. والمعنى: إن عيشك لا يكون إلا من كدّ يمينك وعرق جبينك. قال سعيد بن جبير: أهبط اللّه إلى آدم ثورين فكان يحرث عليهما ويمسح العرق عن جبينه فهو شقاؤه الذي قال اللّه تعالى[2]. وكان من حقه أن يقول فتشقيا أي فتشقى أنت وزوجك لكن غلب المذكر لأن تعبه أكثر، وقيل لأجل رؤوس الآي. قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ أي إنك ما دمت مقيماً في الجنة على طاعة اللّه فلا تجوع فيها ولا تعرى لكثرة أثمارها وأترابها ونعيمها ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ أي لا تعطش ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي لا تبرز إلى الشمس فيؤذيك حرها وقيل معنى ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي لا تصيبك الشمس لأنه ليس في الجنة شمس. إنما هو ظل ممدود وقرىء: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ﴾ بكسر الهمزة عطفاً على ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ وقرىء بالنصب[3] عطفاً على «أن لا تجوع». قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وسوس له ليأكل من الشجرة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي على شجرة من أكل منها خلّد ولم يمت وبقي في ملك لا يبلى ولا يفنى.

قال اللّه تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ

---

(1) البغوي في المرجع نفسه عن أبي أمامة.
(2) البغوي في المرجع السابق.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 424.

ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ
تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة على وجه الخطأ في التأويل لا تعمّداً للمعصية إذ الأنبياء عليهم السلام لا يتعمّدون المعصية وهم أشد خوفاً من اللّه تعالى أن يفعلوا ذلك لأن بعض المفسرين قال: إن اللّه أشار بالنهي إلى شجرة بعينها فقال له: لا تأكل من هذه الشجرة، وأراد جنس تلك الشجرة فنسي آدم الاستدلال بذلك على الجنس فحمل النهي على العين. وهذا كما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: أنه أخذ الذهب بإحدى يديه والحرير بالأخرى، وقال: «**هذان محرمان على ذكور أمتي حل لأناثهم**»[1] وأراد به الجنس دون العين. قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي ظهرت لهما عوراتهما وإنما جمع السوأة ولم يثنها لأن كل شيء من شيء فهو جمع في موضع التثنية. قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي فجعلا يقطعان عليهما من ورق الجنة ويجعلان على أنفسهما. وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ أي عصاه بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ أي فعل ما لم يكن له فعله، وقيل ضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عن أكله، وقيل الغي: الفساد أي فسد عليه عيشه، وقيل: فغوى أي أخطأ، وقيل: خاب فيما طلبه بأكل الشجرة. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختاره للرسالة، وقيل قربه وهداه إلى ذكره، وقيل:

---

(1) رواه الترمذي في سننه تحفة الأحوذي: 5/ 383، رقم: 1774، باب ما جاء في الحرير والذهب.
رواه البيهقي في الشعب: 5/ 133، رقم: 6083، باب في الملابس والأواني.

اصطفاه فتاب عليه وهداه حتى قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[1] الآية. قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ﴾ قد تقدم تفسيره. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني آدم وذريته وإبليس وذريته. وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أراد به الكتاب والرسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ أي من اتبع الكتاب والرسول ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ في الآخرة. قال ابن عباس: ضمن اللّه لمن قرأ القرآن وعمل به أن لا يضل ولا يشقى[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي عن موعظتي، وقيل عن القرآن فلم يؤمن به، ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الضنك: الضيق والشدة والصعوبة. قال ابن عباس يعني: أن عيشه يكون منغصاً عليه لأنه غير موقن بالخلف والجزاء. وقال عبد اللّه بن مسعود، وأبو سعيد الخدري، والسدي: معنى قوله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هو عذاب القبر يضيق عليه حتى تختلف أضلاعه. وقال الحسن هو: الضريع والزقوم في النار. وقال عكرمة: هو أكل الحرام في الدنيا الذي يؤديه إلى النار[3]. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**أتدرون ما المعيشة الضنكى**»؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «**عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً لكل تنين سبعة رؤوس ينهشونه ويلسعونه ويخدشون لحمه إلى يوم القيامة ولو أن تنيناً نفخ في الأرض لم تنبت شيئاً**»[4]. وقال ابن زبير: المعيشة الضنكى: الزقوم والغسلين والضريع، وقال الضحاك: الكسب الخبيث. وقيل: إذا كان العبد يسيء الظن باللّه ضاق عليه عيشه وضنك. وقال ابن جبير معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي فسلبه القناعة حتى لا يشبع، ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾، قال ابن عباس: أعمى البصر، قال مجاهد: أعمى عن الحجة[5] أي لا حجة له يهتدي إليها. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ

---

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 23.

(2) البغوي في تفسيره: 4/ 36.

(3) ذكر البغوي في معالم التنزيل هذه الأقوال: 4/ 36.

(4) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 67.

(5) البغوي نفسه.

بَصِيرًا ﴿125﴾﴾ بعيني؟ قال كذلك تكون كما أتتك آياتنا فنسيتها أي فتركتها وأعرضت عنها فكذلك اليوم تنسى أي تترك في النار. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ كما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك نجزي من أسرف على نفسه بالمعاصي ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿127﴾﴾ أي أشد من عذاب الدنيا وأدوم لأن عذاب الدنيا ينقطع. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ من قرأ بالياء فمعناه ألم يبين لهم؟ يعني كفار مكة كم أهلكنا قبلهم من القرون والمعنى ألم نبين لهم طريق الاعتبار كثرة إهلاكنا القرون قبلهم بتكذيب الرسل فيعتبروا ويؤمنوا؟ وكانت قريش تتجر إلى الشام فترى مساكن قوم لوط وثمود وفيها علامة الإهلاك، ومن قرأ بالنون[1] فمعناه ألم نبين لأهل مكة بياناً يهتدون به فيرتدعوا عن المعاصي؟ قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ﴾ يعني أهل مكة كانوا يتجرون ويسيرون في مساكن عاد وثمود وفيها علامات الإهلاك، أفلا يخافون أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين رأوا مساكنهم؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿128﴾﴾ أي لذوي العقول. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿129﴾﴾ معناه: ولولا كلمة وإخبار من اللَّه تعالى سبقت من ربك في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكان العذاب لازماً لهم واقعاً في الحال. وتقدير الآية: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، أي لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة.

قال اللَّه تعالى:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿130﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿131﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿132﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿133﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا

---

(1) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 60.

لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿134﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿135﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقولون من الشتم والتكذيب فسيعود عليهم وبال ذلك. قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي صلِّ صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ يعني صل المغرب والعشاء، وآناء الليل: ساعاته. وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾. قال قتادة يعني: صلاة الظهر كأنه ذهب إلى أن آخر النصف الأول من النهار طرف، وأول النصف الثاني طرف. وقال الحسن: وقبل غروبها الظهر والعصر وأطراف النهار صلاة التطوع[1]. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿130﴾﴾ قرأ الكسائي وأبو بكر بضم التاء أي تُعطى الرضاء بالدرجات الرفيعة، ويرضاك اللّه، وتسمى مرضياً وتصديقه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[2] وقرأ الباقون ترضى ـ بفتح التاء[3] ـ أي لعلك ترضى بالثواب والشفاعة. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿5﴾﴾[4] والمعنى أقم هذه الصلوات لكي تعطى من الثواب ما ترضى. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تنظرن بعين الرغبة إلى ما متعنا به رجالاً منهم زينة الحياة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم فيما أعطيناهم من الزينة، وقيل لنجعله فتنة لهم وضلالة بأن أزيد لهم في النعمة فيزدادوا كفراً وطغياناً. قال أبو رافع: بعثني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى يهودي فقال: «**قل له إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعثني إليك لتسلفه كذا وكذا من الدقيق أو تبيعه وتصبر عليه إلى هلال رجب**» قال: فأتيته فقال: واللّه ما أبيعه ولا أسلفه إلا برهن، فأتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 38.
(2) سورة مريم (19)، الآية: 55.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 425.
(4) سورة الضحى (93)، الآية: 5.

فأخبرته فقال: «**والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في الأرض، اذهب بدرعي إليه**». ثم حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا[1]. وقيل معنى قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً من نعم الدنيا وزهرتها. قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ أي رزق ربك الذي وعدك في الجنة خير وأبقى مما رزق هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي وأمر قومك الذين على دينك لا نسألك رزقاً لخلقنا ولا لنفسك أي لم نخلقك لحاجتنا إليك كحاجة السادة إلى عبيدهم بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ونرزق جميع خلقنا. قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ولا يعصيه وتقديره: والعاقبة لأهل التقوى. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليه بعض الضيق في الرزق أمر أهله بالصلاة ثم قرأ هذه الآية[2] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ إلى آخرها. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال المشركون من أهل مكة هلا يأتينا محمد بآية من ربه كما أتى بها الأنبياء نحو الناقة والعصا ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ بيان ما في التوراة والإنجيل من البشارة بما وافقهما من صفة النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل معناه: أولم يأتهم ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم الذين أهلكناهم لما سألوا الآيات ثم كفروا بها، فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤالهم الآية كحال أولئك؟ وهذا البيان إنما قص عليهم في القرآن. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يرشدنا إلى دينك فنتبع دلائلك من قبل أن نذل في الدنيا بالقتل ونفتضح في الآخرة بالعذاب. والمعنى: ولو أنا أهلكنا كفار مكة بعذاب من قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم، ونزول القرآن لقالوا يوم القيامة: ربنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك فنتبع آياتك من قبل أن نذل بالعذاب ونجزى في

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: ص 250 ـ 251، البغوي في معالم التنزيل: 4/ 39.

(2) رواه البيهقي في الشعب 7/ 121، رقم: 9705، باب في الصبر على المصائب.
ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 67.
البغوي المرجع نفسه.

جهنم. قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي قل لهم يا محمد كل منا ومنكم منتظر فانتظروا نحن ننتظر بكم ما وعدنا اللَّه فيكم من النصر والفتح، وأنتم تنتظرون بنا أن نموت فتستريحوا منا، وذلك أنهم كانوا يقولون نتربص بمحمد ريب المنون. قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي ستعلمون بعد هذا إذا قامت القيامة من أصحاب الدين المستقيم؟ ومن اهتدى إلى الرشاد والصلاح نحن أم أنتم؟ وعن أبي بن كعب عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة (طه) أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار**»[1].

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2/ 651.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

سورة الأنبياء مكية وهي أربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفاً، وألف ومائة وثماني وعشرون كلمة ومائة واثنتا عشر آية. قال صلى اللّه عليه وسلم اللّه: «**من قرأ سورة: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ حاسبه اللّه حساباً يسيراً، وصافحه، وسلم عليه كل شيء ذكر اسمه في القرآن**»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿1﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن
رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿2﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿3﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ
ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿4﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ
بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿5﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿6﴾﴾.

بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أي اقترب لأهل مكة حسابهم، والمعنى اقتربت القيامة، واقترب للناس وقت حسابهم. والحساب هاهنا: إظهار ما للعبد، وما عليه ليجازى على ذلك. قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ أي في غفلة عما يفعل اللّه بهم ذلك اليوم معرضون عن التأهب له بالإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم، والقرآن، وقيل معناه: وهم في غفلة عن قرب الحساب والموت، معرضون عن الفكرة في ذلك، والتأهل له. وهذا من اللّه تنبيه وعظة لئلا يغفلوا عن الآخرة. قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره عن أبي بن كعب، وذكره الزمخشري في الكشاف: 2/ 587.

مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أي ما يأتيهم من وحي محدث تنزيله والإحداث يعود إلى الإنزال. قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ قال ابن عباس يستمعون القرآن مستهزئين[1]. وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ منصوب بقوله: يلعبون ومعناه: غافلة قلوبهم عما يراد بهم معرضة عن ذكر اللّٰه. قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي تناجوا فيما بينهم سراً، ثم بين من هم. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي الذين أشركوا باللّٰه، والذين في موضع رفع بدل من الضمير في أسروا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾[2].

ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفض نعتاً ـ للناس ـ أي اقترب للناس الذين هذه حالهم، ثم بين النجوى التي أسروها بقوله: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ أطلع اللّٰه النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنهم قالوا: هل محمد إلا بشر مثلكم؟ فلماذا تتبعون بشراً مثلكم؟ أفتأتون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال السدي: قالوا متابعة محمد متابعة السحر، والمعنى: أتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي قل يا محمد ربي الذي أعبده، وأدعو إلى عبادته هو الذي يعلم ما يسره العباد من القول في السماء والأرض ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لذلك كله، العالم بما يجزي عليه ومن هذه صفته فهو الذي يجب أن يعبد دون الأصنام. وقرأ أهل الكوفة: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على الخبر[3]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأفعالهم. قوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ أي بل قال الكفار إنما أتى به محمد تخاليط رؤيا رآها في المنام ـ وبل هاهنا انتقال إلى خبر آخر عنهم. وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي قالوا اختلقه كذباً من تلقاء نفسه ثم قالوا: بل هو شاعر فجعلوا ينقضون أقوالهم قول متحير لا يمكن الجزم على أمر واحد. قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥﴾ أي قالوا: إن كان صادقاً فليأتنا بآية سوى القرآن كما أرسل الأولون

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 41.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 71.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 428.

بالآيات نحو انفلاق البحر، وإحياء الموتى، والناقة، والعصا. فقال اللَّه تعالى مجيباً لهم: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ أي ما آمنت قبل مشركي مكة من قرية يعني أهلها، المعنى: ما آمنت قرية مهلكة بالآيات المرسلة فكيف يؤمن هؤلاء؟ والمعنى أن مجيء الآيات لو كان سبباً للإيمان من غير إرادة اللَّه لكان سبباً لإيمان أولئك فلما بطل ذلك بطل هذا.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ يعني ما أرسلنا قبلك إلا رجالاً مثلك وهذا جواب لقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم؟ فقال اللَّه تعالى: لم أرسل قبل محمد إلا رجالاً من بني آدم لا الملائكة ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إن الرسل بشر، وأراد بأهل الذكر ـ علماء أهل الكتاب ـ ولأن اليهود والنصارى لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً وإن أنكروا نبوة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وقيل أراد بالذكر القرآن، والمعنى فاسألوا المؤمنين من أهل القرآن إن كنتم يا أهل مكة لا تعلمون[1]. قال عليّ كرَّم اللَّه وجهه لما نزلت هذه الآية: نحن أهل الذكر[2]، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي وما جعلنا الأنبياء ذوي أجساد لا يأكلون الطعام ولا يشربون الشراب وما

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره: 4/ 43 عن ابن زيد.
(2) ذكره الثعلبي عن جابر الجعفي.

كانوا خالدين ـ لا يموتون ـ وذلك أنهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟ فاعلموا أن الرسل كانوا جميعاً يأكلون الطعام، وأنهم يموتون كسائر البشر، وإنما وحد الجسد لأنه مصدر كالخلق. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أي ثم أنجزنا وعد الأنبياء في إنجائنا إياهم، وإهلاك الكفار المكذبين لهم، وأراد بالمسرفين الكفار، لأن المسرف في اللغة: هو الذي يجاوز حد الحق بما تباعد عنه. فالكافر أحق شيء بهذه الصفة. قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ أي من العذاب ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ يعني الذين صدقوهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش كتاباً فيه شرفكم وعزكم إن تمسكتم به يعني القرآن ـ والذكر هو الشرف ـ. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [1] أي شرف، يقال فلان مذكور في البلد إذا كان رفيعاً. وقال الحسن معنى قوله تعالى: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ أي ما تحتاجون إليه من أمر دينكم [2] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلكم به على غيركم أنزلتكم حرمي، وبعثت فيكم نبيي. قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كم أهلكنا من أهل قرية كانوا مشركين. والقصم: الكسر والدق، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي وأحدثنا بعد إهلاكهم قوماً آخرين فسكنوا ديارهم. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿12﴾﴾ أي فلما أحس أهل القرية الكافرة عذابنا إذا هم منها يهربون سراعاً هرب المنهزم من عدوه. ومعنى قوله تعالى: ﴿أَحَسُّوا﴾ أي رأوا، وقيل معناه: لما ذاقوا، والإحساس هو الإدراك بحاسة من الحواس الخمس. قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي قيل لهم لا تركضوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه وإلى منازلكم ـ تقول لهم الملائكة ذلك استهزاء بهم وتقريعاً على ما فرط منهم بحيث لم يسمعوا النداء ـ وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿13﴾﴾ يقال لهم على طريق الهزء بهم وهو توبيخ في الحقيقة. ومعنى لكي تسألوا شيئاً من دنياكم فأنتم أهل بر ونعمة. فقالوا عند ذلك: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا حيث

---

(1) سورة الزخرف (43)، الآية: 44.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 44.

كذبنا الرسل، واعترفوا بالذنب حيث رأوا العذاب ـ فقالوا هذا على سبيل الندم ـ ولم ينفعهم حينئذ الندم. والويل: الوقوع في الهلكة. قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي فما زالت تلك الكلمة، وهو قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿14﴾﴾ لم يزالوا يرددونها إلى أن ماتوا وخمدوا فصاروا كالزرع الحصيد، والحصيد: هو الزرع المحصود، والخمود: هو الهمود كخمود النار إذا أطفئت. قيل نزلت هذه الآية في أهل حضرموت وهي قرية باليمن كان أهلها من العرب بعث اللَّه إليهم نبياً يدعوهم إلى اللَّه فكذبوه وقتلوه، فسلط اللَّه عليهم ـ بختنصر ـ حتى قتلهم وسباهم، ونكل بهم، فلما أثخن فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا فقالت لهم الملائكة على طريق الاستهزاء: لا تركضوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم فاتبعهم ـ بختنصر ـ وأخذتهم السيوف ونادى منادٍ من السماء: يا ثارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حيث لم ينفعهم[1]. فقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي ميتين.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿18﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿19﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿20﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿21﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿22﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿23﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿24﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿25﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿26﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿27﴾﴾.

---

(1) البغوي في المرجع نفسه.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿16﴾﴾ أي ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً بل خلقناهما لأمر أي لأجازي أوليائي، وأعذب أعدائي. وقيل معناه: خلقناهم دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبروا بخلقهما ويتفكروا فيهما فيعلموا أن العبادة لا تكون إلا لخالقهما. قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ قال قتادة: اللهو بلغة اليمن: المرأة، وقال ابن عباس: يريد النساء، وقيل جاء طاوس وعطاء ومجاهد إلى الحسن فسألوه عن هذه الآية فقال اللهو: المرأة. وفي رواية الكلبي اللهو: الولد[1] وقيل معناه: لو أردنا أن نتخذ شريكاً أو ولداً أو امرأة لم نكن لنتخذ ما نسبتمونا إليه من الذي لا يسمع ولا يعقل ولا من هذه النساء والولدان بل كنا نتخذه من جنس أشرف من هذا الجنس كما قال اللّه تعالى: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ يعني من عندنا من الحور العين لا من عندكم. وفي آية أخرى ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[2] وقيل معناه: لو أردنا أن نتخذ ولداً نلهو به لاتخذناه عندنا لا عندكم لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده وبحضرته. نزلت هذه الآية في الذين قالوا اتخذ اللّه ولداً ولو كان ذلك جائزاً في صفة اللّه تعالى لم يتخذه بحيث يظهر لكم ولستره حتى لا تطلعوا عليه تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً. قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله، وقيل إن بمعنى ما أي ما كنا فاعلين. قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أراد بالحق القرآن، وبالباطل الكفر، وقيل معناه: دع ذاك الذي قالوه فإنه كذب وباطل يقذف بالحق على الباطل كذبهم فيدفعه أي فيهلكه ويذهب، فإذا هو زاهق أي زائل ذاهب، والمعنى: إنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل ويذهب ثم وعدهم على قولهم.

فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي لكم العذاب مما تصفون اللّه تعالى به من الصاحبة والولد ثم بين أن جميع الخلق عبيده فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيد أو ملكاً ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾

---

(1) ذكر البغوي في تفسيره: 4/ 45 هذه الأقوال.

(2) سورة الزمر (39)، الآية: 4.

قال الزجاج معناه: إن الذين ذكرتموهم بأنهم أولاد اللَّه هم عباده لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون علينا[1]. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا ينقطعون عن العبادة من الإعياء والتعب من قولهم بغير حسير إذا أعيا أو قام. قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يصلون للَّه تعالى الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يضعفون عن عبادته ولا يملون. وقيل معناه: ينزهون اللَّه دائماً يقولون سبحان اللَّه لا يملون. قال الزجاج: يجري التسبيح منهم كمجرى النفس منا فكما لا يشغلنا عن النفس شيء فكذلك تسبيحهم دائماً[2]. قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ استفهام بمعنى الإنكار أي عند أهل مكة أصناماً أيحيون الموتى؟ وفيه تقريع لهم بأنهم كاذبون إنها آلهة لأن الإلّه يحيي الموتى وهي لا تحيي فكيف تستحق العبادة؟ وقيل معنى الآية: لم يتخذوا آلهة من الأرض، وأصنامهم كانت من الأرض من أي جنس كانت من خشب أو حجارة أو فضة أو ذهب ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي يحيون الموتى. قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي لو كان في السماء والأرض آلهة غير اللَّه لما كانت السموات والأرض لأنه لو أراد أحدهما اتخاذ جسم في مكان وأراد آخر اتخاذ جسم آخر في ذلك المكان لم يخل إما أن يوجد من أحدهما أو لا يوجد مرادهما، أو يوجد مراد أحدهما دون الآخر، فالأول باطل لأن في ذلك وجود جسمين في مكان واحد، والثاني باطل لأن في ذلك كونهما عاجزين والعاجز لا يستحق الألوهية، وإن وجد مراد أحدهما دون الآخر فالذي لا يوجد مراده يكون عاجزاً لا يصلح أن يكون إلّهاً. والمعنى لو كان فيهما آلهة غير اللَّه لفسدتا وخربتا وهلك من فيهما. وغير صفة للآلهة أي لو كان فيهما آلهة هم غير اللَّه كما يزعم المشركون. هذا قول جميع النحويين قالوا: ليس إلا هاهنا باستثناء ولكنه مع ما بعده صفة للآلهة في معنى غير. قال الزجاج: ولذلك ارتفع ما بعده على لفظ الذي قبلها[3]. قال الشاعر[4]:

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 3/ 387 بتصرف.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه، بلفظه تقريباً.
(4) عمرو بن معد يكرب الزبيدي. تقدمت ترجمته، وتخريج البيت.

وكـــل أخ مـــفـــارقـــه أخـــوه .·. لـــعـــمـــر أبـــيـــك إلا الـــفـــرقـــدان

المعنى: كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه. قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيهاً للَّه لما يقولون عليه من الولد والشريك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أن لا يسأل عن أفعاله، وقضائه في خلقه من إعزاز وإضلال وهدى وضلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب مالك الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا؟ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم، واللَّه تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشيء فعله لم فعلته؟ قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ هذا إنكار عليهم وتوبيخ. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم بأن رسولاً من رسل اللَّه أنبأ أمته بأن لهم إلَهاً غير اللَّه. قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ معناه: هذا القرآن فيه ذكر من معي لما يلزمهم من الحلال والحرام، والخطأ والصواب، وقيل: خبر من معي على ديني ما لهم من الثواب والعقاب، وذكر من قبلي من الأمم من نجا منهم بالإيمان، أو هلك بالشرك. وقيل معناه: هذا القرآن الذي هو ذكر من معي، والتوراة والإنجيل هما ذكر من قبلي هل في جميع ذلك غير توحيد اللَّه؟ والمعنى: هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت من قبل فانظروا هل في واحد منها أن اللَّه أمر باتخاذ إلَه سواه؟ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن النظر في دلائل اللَّه، مقصرين على جهلهم وتقليدهم. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿25﴾﴾ أي ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا يوحى إليه أن يقول لقومه: أنه لا إله إلا هو فاعبدوه، أي وحدوه. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أراد به قولهم: إن المسيح ابن اللَّه، والملائكة بنات اللَّه. وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ معناه: بل هم عبيده أكرمهم اللَّه بالطاعة واصطفاهم. قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يخرجون بقولهم عن حد ما أمرهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ

مُشْفِقُونَ ﴿28﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿29﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿30﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا
فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿31﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿32﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿33﴾ وَمَا
جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿34﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ
وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم. ويقال ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة. ويقال: يعلم ما عملوا وما هم عاملون ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لا يشفعون إلا لمن رضي اللّه عنه، وارتضى عمله. قال ابن عباس: لمن قال: لا إله إلا اللّه[(1)]. قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم من خشيتهم منه فأضاف المصدر إلى المفعول. قوله تعالى: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون لا يأمنون مكره. وفي هذا كله بيان أن من هذه صفته لا يكون إلٰهاً مع اللّه ولا ولد له. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ أي من يقل من الملائكة إني إلٰه من دونه فذلك نجزيه جهنم. قال المفسرون يعني: إبليس لأنه أمر بطاعة نفسه ودعا إلى نفسه[(2)]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي كما جزيناه جهنم كذلك نجزي الظالمين ـ أي المشركين ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ قال ابن عباس وعطاء والضحاك: المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزمتين ففصل اللّه بينهما بالهواء[(3)]. قال كعب: خلق اللّه السموات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً وسطهما ففتحتا بها. وقال مجاهد: كانت السموات طبقة واحدة

---

(1) ذكر البغوي في معالم التنزيل: 4/ 47، قول ابن عباس.
(2) البغوي نفسه.
(3) المرجع نفسه.

ففتقها اللَّه تعالى فجعلها سبع سموات، وكانت الأرض مرتفعة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين. وقال عكرمة: كانت السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات. وأصل الرتق: السد، ومنه قيل للمرأة التي فرجها ملتحم رتقاء، وأصل الفتق: الفتح وذلك أن السموات والأرض كانتا مستويتين لا فتق بينهما لخروج الزرع ونزول الغيث ففتقت السماء بالمطر والأرض بالنبات[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي وأحيينا بالمطر والنبات كل ما على الأرض من حيوان يعني أنه سبب لحياة كل شيء، وقال بعضهم: يعني أن كل شيء حي فهو مخلوق من الماء. كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[2]. قال أبو العالية يعني: النطفة[3] فعلى هذا لا يتعلق هذا بما قبله وهو احتجاج على المشركين بقدرة اللَّه تعالى. قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدقون بالإلّه الذي فعل ذلك ليعلموا أنه الإلّه دون غيره. وإنما قال: رتقاً ولم يقل: رتقتين لأن الرتق مصدر. المعنى: كانتا ذوي رتق فجعلناهما ذواتي فتق. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي جعلنا فيها جبالاً أوتاداً فهي راسية كي لا تميد بهم الأرض، والميد الاضطراب بالذهاب في الجهات. قال ابن عباس: إن الأرض بسطت على وجه الماء، وكانت تميد بأهلها كما تميد السفينة فأرساها اللَّه بالجبال الثقال. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي جعلنا في الأرض طرقاً واسعة ليهتدوا إلى مواطنهم، والفج: الطريق الواسع بين الجبلين. وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفجاج. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي محفوظاً من السقوط، وقيل محفوظاً من الشياطين بالنجوم. قال اللَّه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾[4]. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني المشركون. معرضون عن آياتها يعني شمسها وقمرها ونجومها لا يتفكرون فيها فيعلمون أن خالقها لا شريك له. قوله

---

(1) المرجع نفسه.
(2) سورة النور (24)، الآية: 45.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 48.
(4) سورة الحجر (15)، الآية: 17.

تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي خلقهما بعد. رفع السماء على وجه الأرض وسخر الشمس والقمر. كل من الشمس والقمر والنجوم في مواضعها التي ركبت فيها ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي يجرون بسرعة كالسابح في الماء. وقد قال في موضع آخر ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾[1] يعني النجوم. وقال الضحاك: الفلك هو المجرى الذي تجري فيه الشمس والقمر، ويقال: هو موج مكفوف يجريان فيه. وقال القتيبي: الفلك القطب الذي تدور به النجوم وهو كوكب خفي يقرب الفرقدين وبنات نعش عليه تدور السماء. وقال الحسن: هو الطاحونة كهيئة فلكة المغزل، والفلك في كلام العرب: كل شيء دائر وجمعه أفلاك[2]. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ روي أن هذا نزل جواباً لقول الكفار ننتظر ريب المنون فنستريح[3]. والمعنى وما جعلنا لبشر من قبلك البقاء الدائم يعني أن سبيله سبيل من مضى من الرسل ومن بني آدم في الموت. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني مشركي مكة لما قالوا نتربص بمحمد ريب المنون فقيل لهم إن مات محمد فأنتم أيضاً تموتون لأن كل نفس ذائقة الموت. قالت عائشة: استأذن أبو بكر رضي اللَّه عنه على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقد مات وأسجي عليه الثوب، فكشف عن وجهه ووضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه صدق اللَّه ورسوله[4]: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي لنبلوكم بالشدة والرخاء والمرض والعاقبة، والفقر والغناء كلاهما بالابتلاء من اللَّه وتشديد في التعبد ليظهر شكرهم وصبرهم فيما يكرهون ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ

---

(1) سورة النازعات (79)، الآية: 3.
(2) البغوي في المرجع السابق: 4/ 47.
(3) المرجع نفسه.
(4) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 8/ 493، رقم: 4453، كتاب المغازي. السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 655.

ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (36) خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى
فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
(39) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (40) وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (41) قُلْ مَن
يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ
ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ
مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (44)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ روي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرّ بأبي سفيان وأبي جهل فقال أبو جهل لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف كالمستهزىء به، فنزلت هذه الآية[1] ومعناها: وإذا رآك الذين كفروا ما يتخذونك إلا هزواً يستهزئون بك. وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي يقول بعضهم لبعض: أهذا الذي يعيب آلهتكم ويلومكم على عبادتها؟ تقول العرب: فلان يذكر الناس أي يغتابهم ويعيبهم، وفلان يذكر اللّه أي يصفه بالعظمة ويثني عليه فيحذفون من الذكر ما يعقل معناه فيكون معنى : ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي يذكر آلهتكم بسوء. وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (36)﴾ أي يجحدون الألوهية لمن هو منعم عليهم المحيي المميت ـ وهذا نهاية جهلهم ـ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ أي خلق اللّه الإنسان مشتهياً للعجلة فيما يهواه. ولذلك يستعجل أهل مكة الوعد والوعيد. يقال فلان خلق من كذا إذا أكثر من ذلك الشيء كما يقال: فلان خلق من اللعب واللهو والإنسان المراد به جنس. وقال عكرمة: لما خلق اللّه آدم ونفخ فيه الروح وصار في رأسه أراد أن ينهض قبل أن تبلغ

---

(1) السيوطي في أسباب النزول: ص 192.
والبغوي في معالم التنزيل: 4/ 50، ذكر هذه الرواية عن السدي.

الروح رجليه فسقط فقيل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وقال السدي: لما دخل الروح عيني آدم نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة فلم يقدر[1] فذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ وإذا كان خلق آدم من عجل وجد ذلك في أولاده وأورث الأولاد العجلة حتى استعجلوا في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يعني القتل ببدر فلا تستعجلون إنه نازل بكم، وقيل معناه: سأريكم آياتي الدالة على صدق محمد صلى اللّه عليه وسلم فيما توعدكم به من العذاب فلا تستعجلوا حلول العذاب بكم. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يقول المشركون متى هذا الوعد الذي تعدنا؟ يريدون وعدهم يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿38﴾﴾ في هذا الوعد. قال اللّه تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي يعلمون حين يدخلون النار لا يدفعون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، ولا يجدون ناصراً يمنع عنهم ما نزل بهم. وجواب لو محذوف أي لو يعلمون ذلك ما استعجلوه ولا قالوا متى هذا الوعد؟ وقيل معناه: لو علموا ذلك لعلموا صدق محمد صلى اللّه عليه وسلم فيما توعدهم به. قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ معناه: بل تأتيهم الساعة فجأة وهم غافلون فتبهتهم أي فتحيرهم. يقال: بهته إذا واجهه بشيء يحيره فلا يستطيعون ردها ولا هم يمهلون لتوبة أو عذر أو إصلاح عمل. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي ولقد استهزأت الأمم من قبلك برسلهم كما استهزأ بك قومك ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ أي فحل بهم وبال استهزائهم وكان ما أرادوه بالداعي عائد عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2] وقيل في الفرق بين الهزؤ وبين السخرية أن في السخرية طلب الذلة لأن التسخير هو التذليل، وأما الهزؤ فهو استصغار القدر بضرب من القول. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من يحفظكم من بأس الرحمٰن وعوارض الآفات في الليل والنهار، وعقوبات الدنيا والآخرة ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾

---

(1) البغوي نفسه.
(2) سورة فاطر (35)، الآية: 43.

لا يلتفتون إلى شيء من الحجج والمواعظ. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي من عذابنا. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ معناه: إن آلهتهم لا يقدرون عن الدفع عن أنفسهم فيما ينزل بهم من كسر أو فساد فكيف تنصرهم وتمنع عنهم ما ينزل بهم؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يعني الكفار. وقال الكلبي معناه: ولا هم يجارون من عذابنا أي لا يجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب الجار يقال: صحبك اللَّه أي حفظك اللَّه وأجارك. وقال قتادة معناه: ولا هم يصحبون من اللَّه بخير[1]. ويقال: أصحبت الرجل إذا أعطيته أماناً يأمن به. قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة متعهم اللَّه بما أنعم عليهم حتى طال عليهم العمر فاغتروا بذلك. والمعنى ما حملهم على الإعراض إلا الاغترار بطول الإمهال. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾ معناه: أفلا يشهدون أنا نفتح الأرض لمحمد من جوانبها وننقص من الشرك بإهلاك أهله فيزداد هو كل يوم تمكيناً ويزدادون ضعفاً ونقصاً. والمعنى ألم ير المشركون الذين يحاربون النبي صلى اللَّه عليه وسلم ويقاتلونه أنا ننقصهم ونأخذ ما حولهم من قراهم وأرضهم؟ أفلا يرون أنهم هم المنقوصون والمغلوبون؟ ومعنى قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿44﴾﴾ أي أهم الغالبون للنبي صلى اللَّه عليه وسلم؟ بل هو الغالب لهم. وعن ابن مسعود في معنى ننقصها من أطرافها أي بذهاب فقهائها وخيار أهلها فكيف يأمن الرذال؟

قال اللَّه تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿45﴾ وَلَئِن
مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿46﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿47﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ
﴿48﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿49﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ
أَنزَلْنَٰهُۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿50﴾﴾.

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 52.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوفكم من عذاب اللَّه بالقرآن الذي يوحى إليّ، لا من قبل نفسي وذلك أن اللَّه أمره بإنذارهم كقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[1] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ هنا تمثيل للكفار بالصم الذين لا يسمعون النداء، والمعنى: إنهم يعاندون فإذا أسمعتهم لم يعلموا بما سمعوه. وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي إذا ما يُخوّفون. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي لو أصابهم أدنى عذاب لأيقنوا بالهلاك. وقال ابن كيسان معناه: ولئن مسهم قليل من عذاب اللَّه. وقال ابن جريج: نصيب من عذاب اللَّه[2]. والمعنى: ولئن مسهم طرف من العذاب لأيقنوا بالهلاك ودعوا على أنفسهم بالويل، مع الإقرار بأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك وتكذيب النبي صلى اللَّه عليه وسلم. والنفحة: هي الدفعة اليسرة الواقعة من الشيء دون معظمه يقال: نفحه نفحة بالسيف، أي ضربه ضربة خفيفة. قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي نضع الموازين ذوات القسط لأهل يوم القيامة. قال الحسن: هي ميزان لها كفتان ولسان لا يوزن فيها غير الحسنات والسيئات. يجاء بالحسنات في أحسن صورة وبالسيئات في أقبح صورة فلا ينقص من حسنات أحد، ولا يزاد في سيئات أحد. وقال مجاهد: هذا مثل وإنما أراد بالميزان العدل[3].

وروي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال إلٰهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود إني إذا رضيت على عبدي ملأتها بثمرة[4]. ويقال إنما توزن خاتمة العمل فمن كانت خاتمة عمله خيراً جوزي بخير، ومن كانت خاتمته شراً جوزي بشر. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾ معناه: وإن كان العمل

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 51.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 53.
(3) الثعلبي في تفسيره.
(4) البغوي في تفسيره: 4/ 53، ذكر هذه الرواية.

الذي عمله وزن حبة من خردل أتينا بها للجزاء. وقيل معناه: وإن كانت الظلامة مثقال حبة من خردل أتينا بها. أحضرناها للمجازاة حتى لا يبقى لأحد عند أحد ظلامة. قرأ أهل المدينة مثقالُ بالرفع على أن كان بمعنى وقع لا خبر لها، وقرأ الباقون بالنصب على معنى: وإن كان ذلك الشيء[1]، ومثله في لقمان[2]. قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي محصين وقيل حافظين لأن من حسب شيئاً علمه، وحفظه. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي التوراة يفرق بها بين الحق والباطل، والحلال والحرام ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿48﴾﴾ من صفة التوراة مثل قوله تعالى: ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾[3] والمعنى أنهم استضاؤوا بها حتى اهتدوا في دينهم. قوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي موعظة للمتقين الكبائر والفواحش. وعن ابن عباس: أنه كان يقرأ ضياء بحذف الواو[4]. وكان يقول: آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ في الدنيا غائبين عن الآخرة ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون من أن تلحقهم الساعة وما يجري فيها من المحاسبة مثل إصلاح أعمالهم. قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد ذكر يتبرك به قارئه فيجوز به الأجر العظيم ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ يا أهل مكة وهذا توبيخ لهم.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿51﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿52﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿53﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿54﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿55﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿56﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿57﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 429.
(2) سورة لقمان (31)، الآية: 16.
(3) سورة المائدة (5)، الآية: 46.
(4) ابن جني، المحتسب: 2/ 64، ذكر هذه القراءة.
وكذا النحاس في إعراب القرآن: 3/ 72.

يَرْجِعُونَ ﴿58﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿59﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿60﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿61﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بلوغه، وقيل معناه: من قبل موسى وهارون والمعنى: آتيناه هداه وهو صغير عندما كان في السرب حتى عرف الحق من الباطل[1]. ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أنه أهل للهداية والنبوة. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي آتيناه رشده حين قال لأبيه وقومه في الوقت الذي خرج من السرب فرآهم يعكفون على الأصنام: ما هذه التصاوير التي أنتم لأجلها مقيمون عليها؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿53﴾﴾ بينوا بهذا الجواب أن ما لهم في عبادة الأصنام إلا تقليدهم لآبائهم، فأجابهم إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في عبادة الأصنام في ضلال عن الحق ظاهر. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿55﴾﴾ أي قالوا له أجئتنا فيما تقول بحقٍّ أم أنت لاعب مازح؟ وذلك لأنهم كانوا يستبعدون إنكار عبادتها ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي بل ربكم مالك السموات والأرض الذي خلقهن وأنا على ما أقول لكم من الشاهدين. قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أي لأبطلها ولأكسرها ولأمكرن بها وقت مغيبكم عنها، وذلك لأنهم كانوا يعزمون على الذهاب إلى عيد لهم، فقال عند ذلك هذا القول. والكيد في اللغة: هو الإضرار بالشيء. وقال مجاهد وقتادة: إنما قال إبراهيم هذا القول في نفسه سراً من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل منهم وهو الذي أفشاه عليه[2]، وهو الذي قال: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج إبراهيم معهم فلما كان في بعض الطريق ألقى نفسه، وقال: إني سقيم أي أشتكي رجلي

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 54.
(2) البغوي نفسه.

فربطوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿57﴾﴾، ثم رجع إلى بيت أصنامهم، فوجد معهم صنماً كبيراً إلى جنبه أصنام أصغر منه. وإذا هم قد جمعوا طعاماً فوضعوه بين يدي الأصنام. وقالوا إذا كان وقت رجوعنا رجعنا وقد باركت الآلهة لنا في طعامنا[1] فأكلنا .فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء: ألا تأكلون؟ فلما لم يجيبوه قال ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿92﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿93﴾﴾[2] وجعل يكسرهم بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم العظيم فعلق الفأس في عنقه ثم خرج فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره. قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا﴾ فيه إضمار أي لما ولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً. قرأ الكسائي بكسر الجيم أي كسراً وقطعاً جمع جذيذ وهو الهشيم مثل خفيف وخفاف وكريم وكرام. وقرأ الباقون بضم الجيم[3] أي جعلهم حطاماً ورفاتاً. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيحتج عليهم إبراهيم ويبهتهم على أن أصنامهم لما لم تقدر على دفع الكسر عن أنفسها فلم تعبدوها؟ وكيف تدعون أنها ممن لا يقدر على دفع ما نزل به، وقيل معناه: لعلهم يرجعون ـ أي إلى دين إبراهيم ـ وإلى ما يدعوهم إليه بوجوب الحجة عليهم في عبادة ما لا يدفع الضر عن نفسه وينتهوا عن جهلهم وعظيم خطاياهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ أي فلما رجعوا من عيدهم ورأوا أصنامهم مكسرة ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿59﴾﴾ أي فعل ما لم يكن له أن يفعله. فقال الذي سمع إبراهيم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وذلك أن بعضهم كانوا قد سمعوه يذكر أصنامهم بالعيب ويقول إنها ليست بآلهة. فقالوا ينبغي أن يكون ذلك الفتى هو الذي كسرها ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ﴾ أي بذلك الفتى على مرأى من الناس لكي يشهد الذين عرفوه أنه يعيب الأصنام، وقيل إنه لما بلغ النمروذ وأشراف قومه ما فعل بأصنامهم، وما قالوه في إبراهيم إنه هو الذي فعل ذلك

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 55.

(2) سورة الصافات (37)، الآيتان: 92 ـ 93.

(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 63 ـ 64.

منهم قال النمروذ ومن معه: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون أنه هو الذي فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغير بينة، وقيل معناه: لعلهم يشهدون ما يصنع به من العقوبة أي يحضرون.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿62﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿63﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿64﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿65﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿66﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿67﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿68﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿69﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿70﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿71﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿62﴾﴾ أي فلما أتوا به قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ الكسر ﴿بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿62﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الذي الفأس في عنقه ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ حتى يخبروكم. وأراد بهذا تقريرهم بأنهم ضالّون في عبادتهم ما لا يدفع عن نفسه لأن جماعتهم كانوا يعلمون أن آلهتهم لا تعقل ولا تفعل ولا تنطق، فأراد إبراهيم بذلك تبكيت القوم وتوبيخهم على عبادة ما لا يعقل ولا يفعل ولذلك قال: فاسألوهم إن كانوا يقدرون على النطق. قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿64﴾﴾ أي فرجعوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون في سؤاله لأنها لو كانت آلهة لم يصل إلى كسرها أحد ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي أدركتهم حيرة فنكسوا لأجلها رؤوسهم، وأقروا بما هو حجة[1].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي لما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب غضبوا فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم بتحريقه لأنه يعيبها ويطعن

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 57 ـ 58.

عليها فإذا أحرقتموه كان ذلك نصراً منكم إياها. وقيل معناه: وانتقموا لآلهتكم وعظموها إن كنتم فاعلين في هذا شيئاً فاشتغلوا بجمع الحطب حتى كان الشيخ الكبير يأتي بالحطب تقرباً إلى آلهتهم، وحتى إن المريض كان يوصي بكذا وكذا من ماله فيشتري به حطباً فيلقي به في النار، وحتى إن المرأة تغزل فتشتري به حطباً وتلقيه في النار. قال ابن عمر: إن الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم رجل يسمى «هيزن» فخسف اللَّه به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[1]. قال فلما أجمع النمروذ وقومه على تحريق إبراهيم حبسوه في بيت وبنوا بيتاً كالحظيرة فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾[2] ثم جمعوا له صلاب الحطب من أنواع الخشب حتى إن المرأة كانت إذا مرضت تقول لئن عافاني اللَّه لأجمعن حطباً لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبن في نار إبراهيم التي يحرق بها احتساباً لدينها. قال ابن إسحاق: كانوا يجمعون الحطب شهراً فلما اجتمع الحطب شعلوا في كل ناحية منه ناراً واشتعلت النار واشتدّت حتى إن الطائر كان إذا مرّ بها احترق من شدة وهجها، ثم عمدوا إلى إبراهيم وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً فصاحت السموات والأرض والملائكة صيحة واحدة: يا ربنا إن إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يحرق فاذن لنا في نصرته[3]. فقال اللَّه تعالى: إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع أحداً غيري فأنا أعلم به، وأنا وليه فخلوا بيني وبينه. فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الماء فقال له: إن أردت أخمدت النار فإن خزائن المياه والأمطار بيدي، وأتاه خازن الرياح وقال: إن شئت طيرت النار في الهواء. فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللَّهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبي اللَّه ونعم الوكيل. وروي أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: لا إلَه إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك.

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 58.

(2) سورة الصافات (37)، الآية: 97.

(3) البغوي نفسه.

قال: ثم رموا به في المنجنيق فاستقبله جبريل عليه السلام، وقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فاسأل ربك قال: حسبي بسؤالي علمه بحالي. فقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلامها لمات إبراهيم من بردها فلم تبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت وخمدت[1].

قال السدي: وأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. قالوا وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام. قال إبراهيم: ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار. ثم بعث اللّه ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه، وبعث اللّه بقميص من حرير الجنة. قال فنظر النمروذ من صرح له فأشرف على إبراهيم وما يشك في موته فرأى إبراهيم في روضة، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه والنار حواليه، فناداه النمروذ: يا إبراهيم أكبير إلٓهك الذي بلغت قدرته إلى أن حال بينك وبين ناري حتى لم تضرك؟ قال قتادة والزهري: ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت شيئاً إلا وثاق إبراهيم، ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عن إبراهيم النار إلا الوزغ فلذلك أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم بقتله وسماه فاسقاً[2]. قال شعيب الحماني ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة[3]، وذبح إسحاق[4] وهو ابن سبع سنين، وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة ،ولما علمت سارة بما أراد اللّه بإسحاق اضطربت يومين وماتت اليوم الثالث. قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي أرادوا به الحيلة في الإضرار به فجعلنا الكفار الذين أرادوا إحراقه ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ بأن لم يتم لهم ما عزموا عليه، وتبيّن عجزهم عن نصرهم آلهتهم فخسر سعيهم. وقال ابن عباس: هو أن اللّه سلط البعوض على النمروذ وأهله حتى أخذت لحومهم وشربت دماءهم ووقعت واحدة في دماغه

---

(1) البغوي نفسه.

(2) ذكر البغوي في تفسيره: 4/ 59 ـ 60، هذه الأقوال.

(3) القرطبي في تفسيره: 11/ 304.

(4) هذا على غير المعروف في قصة الذبيح.

حتى أهلكته[1]. قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ أي نجينا إبراهيم من كيد النمروذ ونجينا لوطاً معه، أي ورفعنا إبراهيم ولوطاً عن الهلكة إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام، وسميت أرض الشام مباركة لكثرة الأنبياء الذين بعثهم اللّه فيها. وعن أبي العالية: أنه ليس ماء عذب إلا وهو يجري من الصخرة التي ببيت المقدس[2].

قال اللّه تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿72﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟
لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿73﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿74﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿75﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿76﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿77﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَٰهِدِينَ ﴿78﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ
يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿79﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ
بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿80﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولده إسحاق وولد ولده يعقوب، سمي يعقوب نافلة لأنه ولد ولده. والنافلة في اللغة: زيادة على الأصل، ونوافل العبادة: ما تطوّع به المصلي، ويقال: إنهما جميعاً نافلة لأنهما عطية زائدة على ما تقدم من النعم. قال ابن عباس وقتادة: سأل إبراهيم ربه ولداً واحداً فقال رب هب لي من الصالحين فأعطاه اللّه إسحاق ولداً، وزاده يعقوب. قال ابن عباس: نفّله يعقوب أي زاده إياه على ما

(1) البغوي في المرجع السابق.
(2) المرجع نفسه.

سأل[1]. قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناهم أنبياء صالحين. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي قادة في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى أمرنا وديننا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي شرائع النبوة، وقيل أمرناهم بفعل الخيرات ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي خاضعين مطيعين. وإنما قال: وإقام الصلاة بغير هاء، لأن الإضافة صارت عوضاً عن الهاء. قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وآتينا لوطاً النبوة والعلم ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ﴾ يعني: سدوم، كان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في مجالسهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ قيل إنهم كانوا يعملون مع ذلك أشياء أخر من المنكرات. قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي نجينا إياه من القوم السوء وهلاكهم. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي واذكر نوحاً إذ نادى ربه من قبل إبراهيم ولوط، يعني دعا على قومه بالهلاك فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ ومن آمن به من غمّ الفرق وكربه والكرب أشد الغم ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾ أي منعناه من أن يصلوا إليه بسوء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي كفاراً ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالطوفان. قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي وأكرمنا داود وسليمان بالنبوة والحكمة إذ يحكمان في الحرث. قال قتادة: كان الحرث زرعاً. وقال ابن مسعود: كان كرماً قد نبتت عناقيده[3]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي وقعت فيه بالليل ورعته وأفسدته والنفش في اللغة: الرعي بالليل، يقال: نفشت السائمة بالليل، وهملت بالنهار إذا رعت، والهمل الرعي بالنهار. وكلاهما الرعي بلا راع. وقوله تعالى:

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 62.
(2) سورة نوح (71)، الآية: 26.
(3) البغوي نفسه.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي لا يخفى علينا منه شيء ولا يغيب عن علمنا. وإنما قال: لحكمهم بلفظ الجمع لإضافة الحكم إلى من حكم وإلى المحكوم لهم، وقد يذكر لفظ الجمع في موضع التثنية كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[1] أي أخوان. قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي فهمنا القصة سليمان دون داود وكلا منهما آتيناه العلم، والفصل بين الخصوم. وقال ابن مسعود وقتادة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع والكرم: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً. فقال: لك رقاب الغنم، وكانا في القيمة سواء فأعطاه الغنم بالحرث وخرجا، فمرا على سليمان وهو يومئذ ابن إحدى عشرة سنة فقال كيف قضى بينكما؟ فأخبراه فقال سليمان: نعم ما قضى، وغير هذا كان أرفق بالكل، ولو وليت أمركما لقضيت بغير ما قضى، فأخبروا داود بذلك فدعاه فقال: كيف تقضي بينهما؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نسلها ورسلها ومنافعها وسمنها وأصوافها إلى الحول، ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يدفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ويدفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم فقال داود عليه السلام: نعم ما قضيت فيه فالقضاء قضاؤك. وحكم داود بينهم بذلك فقوّم الكرم وما أصابوه من الغنم فوجدوه مثل ثمن الكرم وهكذا أيضاً[2].

روي عن ابن عباس قال الحسن: كان الحكم ما قضى به سليمان ولم يعنف اللَّه داود في حكمه[3]. وهذا يدل على أن كل مجتهد مصيب. وإلى هذا ذهب بعض الناس فقالوا: إذا نفشت الغنم ليلاً في زرع فأفسدته كان على صاحب الغنم ضمان ما أفسدته وإن كان نهاراً لم يضمن شيئاً، واستدلوا أيضاً بما

(1) سورة النساء (4)، الآية: 11.
(2) القرطبي في تفسيره 11/ 308.
البغوي في المرجع نفسه.
(3) البغوي نفسه.

روي: أن ناقة كانت للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدته فقضى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل المواشي حفظها بالليل[1]. وأما أصحابنا فلا يرون في هذه المسألة ضماناً ليلاً ولا نهاراً إذ لم يكن صاحب الغنم هو الذي أرسلها فيه. ولا حجة لهم في هذه الآية لأن لا خلاف أن من نفشت غنمه في حرث رجل أنه لا يجب عليه تسليم الغنم ولا تسليم أولادها وألبانها وأصوافها إليه فثبت أن الحكمين اللذين حكم بها سليمان وداود عليهما السلام منسوخان بشريعة محمد صلى اللَّه عليه وسلم[2]. وقد روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**جرح العجماء جُبار**»[3] ـ وهذا خبر مستعمل متفق على استعماله في البهيمة المنفلتة إذا أصابت إنساناً أو مالاً أنه لا ضمان على صاحبها إذا لم يرسلها هو عليه، وليس في قصة البراء بن عازب إيجاب الضمان، ولأن الأشياء الموجبة للضمان لا تختلف بالليل والنهار. قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود. روي أن الجبال كانت تسير مع داود أين ذهب. ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي فاعلين هذه الأشياء دلالة على نبوته. قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي وعلمنا داود صنعة الدروع وسمّي الدرع لبوساً لأنها تلبس كما يقال للبعير ركوب لأنه يركب، والسلاح كله لبوس عند العرب، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً. والجوشن: هو الدرع الصغيرة. قال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وإنما كانت من صفائح فهو أول من سردها وحلّقها[5]. قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي ليحرزكم

(1) رواه مالك في الموطأ بشرح المنتقى: 7/ 61، القضاء في الضواري والحرسية.
الإمام الشافعي في الأم: 6/ 214 كتاب الأقضية.
القرطبي في تفسيره: 11/ 314، وابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 1267.

(2) أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 223.

(3) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 14/ 250، رقم: 6912، كتاب الديات.
رواه أبو داود في سننه عون المعبود: 12/ 336، رقم: 4568.

(4) سورة سبأ (34)، الآية: 10.

(5) البغوي في تفسيره: 4/ 66.

٣٨٩

من شدّة القتال. قرأ شيبة وأبو بكر ويعقوب: ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾ بالنون. لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء يعني: الصنعة، وقرأ الباقون بالياء على معنى ليحصنكم اللبوس[1]، وقيل على معنى ليحصنكم اللّه عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي من حربكم، وقيل من وقع السلاح فيكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ يا أهل مكة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (81) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (82) ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (83) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ (84) وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (86)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب قال ابن عباس: إن أمر الريح أن تعصف عصفت، وإن أراد أن ترخي أرخت، وذلك قوله تعالى: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تجري بأمر سليمان من إصطخر إلى الأرض التي بارك اللّه فيها بالماء والشجر وهي الأرض المقدسة، روي أن الريح كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ثم تعود به إلى منزله بالشام[3]. قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ بصحة التدبير فيه علمنا أن ما نعطي سليمان من تسخير الريح وغيره يدعو إلى الخضوع لربه. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين في

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 430.
الأصبهاني، المبسوط في القراءات العشر: ص 302.
(2) سورة ص (38)، الآية: 36.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 67.

البحر لاستخراج ما شاء من لؤلؤ ومرجان وغير ذلك من الجواهر. قوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي يعملون دون الغواصة من أعمال البناء. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي من أن يفسدوا ما عملوا ومن أن يهيجوا على أحد في زمانه. قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي دخل الضر في جسدي ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بالعباد فكان هذا تعريضاً منه بالدعاء للّه لإزالة ما به من الضر ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا﴾ ما نزل به من ضر. قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾. قال ابن مسعود وقتادة والحسن: أحيا اللّه له أولاده الذين هلكوا في الدنيا بأعيانهم، وزدنا له مثلهم. ويقال: أبدله اللّه بكل شيء ذهب عنه ضعفين. وعن ابن عباس قال: سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فقال: يا ابن عباس ردّ اللّه امرأته إليه، وزاد في شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكراً[1]. قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي وموعظة للمطيعين.

قال وهب بن منبه: كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم من ذرية إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط، وكان اللّه قد اصطفاه وتنبأه وبسط عليه الدنيا وآتاه من أصناف المال من البقر والإبل والغنم والخيل والحمر ما لا يؤتيه أحداً وكان قد أعطاه اللّه أهلاً وأولاداً من رجال ونساء وكان له خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد، ومال، وكان أيوب عليه السلام براً تقياً رحيماً بالمساكين يكرم الأرامل والأيتام ويكفلهم، ويكرم الضيف، وكان شاكراً لأنعم اللّه، مؤدياً لحق اللّه، قد امتنع من عدو اللّه إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغناء من العزة والغفلة والسهو والتشاغل عن أمر اللّه بما هو فيه من الدنيا، وكان كثير الذكر للّه تعالى مجتهداً في العبادة وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حين أخرجه من الجنة فلم يزل على ذلك يصعد في السموات حتى رفع اللّه عيسى عليه السلام فحجب من أربع وكان يصعد في ثلاث، فلما بعث اللّه محمداً

(1) تفسير البغوي: 4/ 78 ـ 79.

صلى اللَّه عليه وسلم حجب عن الثلاث الباقية فهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾[1] فلما كان إبليس في زمان أيوب يصعد السماء سمع تحادث الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره اللَّه وأثنى عليه، فأدركه الحسد لأيوب فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه وقال: إلَهي عبدك أيوب أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن جربته بالبلاء ليكفرن بك. فقال اللَّه تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله. فانقض إبليس حتى وقع على الأرض وجمع عفاريت الجن، وقال لهم ماذا عندكم من القوة فإني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الكبرى، والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال؟ فقال عفريت من الجن أعطيت من القوة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً من نار وأحرقت كل شيء آتي عليه، فقال له إبليس: اذهب إلى الإبل ورعاتها فذهب إلى الإبل فوجدها في المرعى فلم يشعر الناس حتى ثار إعصار تنفخ منه السموم لا يدنو منه أحد إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها. فلما فرغ منها، تمثّل إبليس على قعود منها كراعيها، وانطلق إلى أيوب فوجده قائماً يصلي. فقال أيوب: هل تدري ما صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعاتها؟ فقال أيوب: إنها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا ما نزعه، وقد وطنت نفسي ومالي على أنها للفناء[2].

فقال إبليس: إن ربك أرسل علينا ناراً فاحترقت هي ورعاتها فصارت الناس مبهوتين يتعجبون. قوم منهم يقولون: لو كان إلَه أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع من إبل وليه، وقوم منهم يقولون: بل إلَه أيوب هو الذي فعل ذلك شمت به عدوه وفجع به صديقه. فقال أيوب: الحمد للَّه على ما قضاه اللَّه وقدّره ولو علم اللَّه فيك أيها العبد خيراً لتقبل روحك مع تلك الأرواح فيأجرني اللَّه فيك وتموت شهيداً، ولكن علم منك شراً فأخرك وخلصك. فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً. فقال لهم: ماذا عندكم من القوة إني لم أجرح قلبه؟ فقال

---

(1) سورة الحجر (15)، الآية: 18.

(2) ذكره البغوي في تفسيره: 4/ 68 ـ 69.

عفريت: عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه. فقال إبليس: اذهب إلى الغنم ورعاتها، فانطلق إليهم فلما توسط الغنم والرعاة صاح صوتاً فماتوا جميعاً ثم خرج إبليس متمثلاً براع من رعاتها إلى أيوب فأخبره بذلك فحمد اللَّه، وقال له مثل ما قال في المرة الأولى. فرجع إبليس إلى أصحابه ذليلاً خاسئاً وأمرهم بالذهاب إلى أصحاب الحرث والزرع فأهلكوه، وكان أيوب عليه السلام كلما انتهى إليه هلاك مال من ماله حمد اللَّه وأحسن الثناء عليه، ورضي بالقضاء، وألزم نفسه الصبر على البلاء حتى لم يبق له مال. فلما رأى إبليس أن ماله قد فني وأنه لم يصب منه حاجته صعد إلى السماء، وقال: يا رب إن أيوب يرى أنك ما أهلكت من ماله أخلفته عليه. فهل أنت مسلطي على أولاده فإنها الفتنة المضلّة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم؟ فسلطه اللَّه على ذلك فانقض إبليس حتى جاء إلى أولاد أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة. ثم ذهب إبليس إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو مجروح يسيل دمه ودماغه فأخبره بذلك فقال له: يا أيوب لو رأيت بنيك كيف حالهم منكسين رؤوسهم يسيل دماغهم من أنوفهم؟ ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم، ولم يزل يردد عليه هذا القول حتى رقّ قلبه وبكى فقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم إبليس ذلك، وصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب، ثم لم يلبث أيوب أن ندم على ذلك، واستغفر ربه فصعدت الملائكة بتوبته فسبقوا إبليس فوقف إبليس حازناً ذليلاً[1].

وقال: إلَهي هل أنت مسلّطي على جسده؟ فإني زعيم لك إن سلطتني عليه عليه ليكفرن بك، فقال اللَّه قد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه، ولا على قلبه، ولا على عقله، ولم يسلطه اللَّه عليه إلا ليعظم له الثواب، ويجعله عبرة للصابرين، وذكرى للعابدين ليقتدوا به في الصبر. فانقض إبليس سريعاً فوجد أيوب ساجداً فأتاه من قبل الأرض في وجهه فنفخ في

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 70 ـ 71.

منخره نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من قرنه إلى قدمه مثل الأثاليل، ووقعت عليه حكة لا يملكها فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالفخار والحجارة فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة واعتزله جميع الناس إلا امرأته ـ رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ـ فإنها كانت تختلف إليه بما يصلحه ويكرمه فلما طال عليه البلاء، وتمادى به الضر، ورفضه جميع الناس حتى أهل دينه تركوه، ولم يتركوا دينه فأقبل على الدعاء متضرعاً وقال: إلٓهي لأي شيء خلقتني ليتك لم تخلقني بل ليتني كنت حيضة ألقتني أمي فلو كنت أمتني كان أجمل بي. إلٓهي أنا عبد ذليل إن أحسنت إليّ فالمنّ لك، وإن عاقبتني فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء عرضاً وللفتنة نصباً، وقد وقع عليّ بلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي؟ إلٓهي تقطعت أصابعي فإني لا أقدر أحمل اللقمة بيدي إلٓهي تساقطت لهواتي ولحم رأسي وما بين أذني وسال دماغي من فمي، وتساقط شعر عيني وكأنما أحرق بالنار وجهي فحدقتاي متدليتان على وجهي وورم لساني حتى ملأ فمي فما أدخل فيه طعاماً إلا غصباً، وورمت شفتاي حتى غطت العليا أنفي، وغطت السفلى ذقني، وتقطعت أمعائي في بطني، إلٓهي ذهبت قوة رجليّ حتى لا أطيق حملهما وذهب المال حتى صرت أسأل اللقمة ممن كنت أعوله فيمنعها عليّ ويعيرني. هلك أولادي، ولو بقي منهم واحد لأعانني ونفعني. إلٓهي قد ملني أهلي وعقني أرحامي وأنكرتني معارفي وأعرض عني صديقي وهجرني أصحابي وجحدت حقوقي ونسيت صنائعي .أصرخ فلا أحد يصرخني وأعتذر فلا أحد يعذرني وأدعو فلا أحد منهم يجيبني، وإن فضلك هو الذي أذلني وأعماني وسلطانك هو الذي أسقمني وأنحلني فلو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري، وأطلق لساني حتى أتكلم بما ينبغي للعبد أن يحاجَّ عن نفسه لرجوت أن يعافيني ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه يسمعني ولا أسمعه لا هو نظر إليّ فرحمني، ولا هو أدناني منه فأتكلم بحاجتي وأنطق ببراءتي وأخاصم عن نفسي[1].

---

(1) الثعلبي في تفسيره.
البغوي في تفسيره: 4/ 72 ـ 73.

فلما قال ذلك أيوب نودي يا أيوب إني لم أزل منك قريباً فقم وخاصم عن نفسك وتكلم ببراءتك وشد أزرك وقم مقام جبار ليخاصمني. يا أيوب إنك أردت أن تخاصمني بعيك وتحاجني بخطئك أم أردت أن تكاثرني بضعفك؟ أين أنت مني يوم خلقت السموات والأرض؟ هل علمت بأي مقدار قدرتها، أم كنت معي يوم مددت أطرافها؟ أم هل علمت ما في زواياها؟ أين أنت مني يوم سجرت البحار وأنبعت الأنهار؟ أقدرتك حسبت البحار وأمواجها، أم قدرتك فتحت الأرحام حتى بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم نصبت شوامخ الجبال، ويوم صببت الماء على التراب، أبحكمتك أحصيت القطر، وقسمت الأرزاق، أم قدرتك تثير السحاب، أم هل هزئت أرواح الأموات؟ هل تدري يا أيوب بأي لغة تتكلم الأشجار، أم هل تدري أين خزانة الثلج وجبال البرد، وهل تدري أين خزانة الليل والنهار؟ وأين طريق النور؟ ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ وأين أنت يا أيوب يوم خلقت التنين رزقه في البحر ومسكنه في السحاب عيناه تتوقدان ناراً، ومنخراه يثوران دخاناً يثور منهما لهب كأنه إعصار نار، جوفه يحترق، ونفسه تلتهب كأن صريف أسنانه أصوات الصواعق، وكأن وسط عينيه لهب البرق لا يفزعه شيء ويهلك كل شيء يمر به؟ هل أنت يا أيوب آخذه بأحبولتك أو واضع اللجام في شدقه، هل تحصي عمره، أو تعرف أجله، أو تعطيه رزقه؟ فقال عند ذلك أيوب: قصرت عن هذا الأمر ليت الأرض تنشق لي فأذهب فيها اجتمع علي البلاء، إلّهي قد جعلتني لك كالعدو، وقد كنت تكرمني هذه كلمة زلت على لساني فلن أعود لشيء تكرهه مني، قد وضعت يدي على فمي، وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، ودسست فيه وجهي لذي ـ وأسكتتني خطيئتي؟ رب فاغفر لي ما قلت فلا أعود لمثله أبداً ـ فقال اللّه عزّ وجلّ يا أيوب قد نفذ فيك علمي، وسبقت رحمتي غضبي إن أخطأت فقد غفرت لك، ورددت عليك مالك وأهلك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿42﴾﴾[1] فيه شفاؤك فركض برجله فانفجرت له عين فدخل

---

(1) سورة ص (38)، الآية: 42.

فيها فاغتسل منها فأذهب اللَّه عنه كل ما كان به من البلاء فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة فوجدته جالساً عند العين فلم تعرفه فقالت له: يا عبد اللَّه هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ فقال: وهل تعرفينه؟ قالت نعم، وما لي لا أعرفه؟ تبسّم وقال: أنا هو، فعرفته بمضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كل مال لهما وولد. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**أقام أيوب في بلائه ثلاث عشرة سنة**»[1].

وقال الحسن: مكث أيوب مطروحاً على كناسة في مزبلة سبع سنين[2]. كان مع ذلك لا يفتر من ذكر اللَّه والثناء عليه والصبر على بلائه، فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوب فلما اجتمعوا إليه قالوا له: ما أصابك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي سألت اللَّه أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالاً ولا ولداً فلم يزدد بذلك إلا صبراً وثناء على اللَّه، ثم سلطت على جسده فتركته جيفة ملقى على كناسة بني إسرائيل لا يقربه إلا امرأته فاستغثت بكم لتقووني عليه. فقالوا له: وأين مكرك؟ أين خدائعك التي أهلكت بها من مضى من الأمم؟ قال بطل ذلك كله مع أيوب. فأشيروا عليّ؟ قالوا: أرأيت حين أخرجت آدم من الجنة من أين أتيته؟ قال من قبل امرأته. قالوا: فشأنك بأيوب من قبل امرأته، فإنه لا يعصيها وليس أحد يقربه غيرها. قال: أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل فقال أين بعلك أمة اللَّه؟ قالت هو ذاك يحك قروحه، والدود يتردد في جسده، فوسوس إليها، وذكرها بأيام شباب أيوب وجماله، وما كان فيه من النعم والحال الطيب، وكيف انقلب عليهم الزمان حتى صارت وأيوب في هذا الضرر العظيم، ولم يزل يذكرها بأيام قد مضت حتى أبكاها، فلما علم أنها قد جزعت وحزنت أتاها بسلخة وقال لها: قولي لأيوب يذبح هذه الشاة لي؟ وهو يبرأ، قال

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 74، والقرطبي في تفسيره: 11/ 327، وذكره الثعلبي في تفسيره: عن أنس بن مالك.
وفي النسخة: س، ثماني عشر سنة.

(2) البغوي نفسه.

فجاءت إلى أيوب، وقالت له: إلى متى يعذبك اللَّه، ألا قد يرحمك؟ أين المال؟ أين الماشية؟ أين الولد؟ أين لونك الحسن قد تغيّر وصار كما ترى؟ أين جسمك الحسن قد بلي وتردّد فيه الديدان؟ اذبح هذه السخلة واسترح، فقال لها أيوب: أتاك عدوّ اللَّه فنفخ فيك فأجبتيه ويلك أرأيت الذي تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت اللَّه، قال فكم متعنا به؟ قالت ثمانين سنة، قال فكم ابتلانا اللَّه؟ قالت سبع سنين، قال ويلك ما عدلت ولا أنصفت ألا صبرت حتى نكون في البلاء ثمانين كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، واللَّه لئن شفاني اللَّه لأجلدنك مائة جلدة. كيف ترينني أن أذبح لغير اللَّه، طعامك وشرابك عليّ حرام أن أذوق مما تأتيني به بعد إذ قلت لي هذا القول فاعتزلي عني ولا أراك فطردها فذهبت[1]، وقال وهب: لم يأمرها إبليس بذبح السخلة[2] وإنما قال لها لو أن بعلك أكل طعاماً ولم يسم اللَّه عليه لعوفي من البلاء.

وروي أن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة وأرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك، فأنا الذي صنعت بكم ما صنعت. فرجعت إلى أيوب فأخبرته بذلك فقال لها أتاك عدو اللَّه ليفتنك عن دينك، وحلف إن عافاه اللَّه ليضربنها مائة ضربة وحرم طعامها وشرابها وطردها[3]، فلما نظر أيوب إلى أنه قد طرد امرأته وليس عنده طعام ولا شراب، ولا صديق خرّ ساجداً للَّه عزّ وجلّ. وقال: إلّهي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. من طمع إبليس في سجود امرأتي له ودعائه إياها وإياي إلى الكفر وقيل إنما قال مسني الضر حين قصدت الدودة إلى قلبه، ولسانه فخشي أن يفتر عن ذكر اللَّه، وقيل إنما قال ذلك حين أتاه صديقان له، وقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من ريحه. فقال أحدهما لصاحبه: لو علم اللَّه في أيوب خيراً ما ابتلاه بما نرى. قال فما سمع أيوب شيئاً كان أشد عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: مسني الضر من

---

(1) الثعلبي في تفسيره، بعبارة قريبة من هذه.
البغوي في المرجع نفسه: 4/ 75.
(2) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 76 ـ 77.

شماتة الأعداء يدل عليه ما روي أنه قيل له، بعدما عوفي: ما كان أشد عليك في بلائك؟ قال شماتة الأعداء وأنشدوا في معناه:

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى ∴ فتهون غير شماتة الحسّاد[1]

كل المصائب تنقضي أيامها ∴ وشماتة الحسَّاد بالمرصاد

قال وهب: فلما طرد أيوب امرأته، وبقي وحيداً ليس معه من يطعمه ويسقيه قال عند ذلك: يا رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فقال اللَّه له: ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها، ولم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط عنه، وأذهب اللَّه عنه كل ألم وسقام، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن مما كان، وأفضل، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج فقام صحيحاً وكسي حلة، ثم التفت عن يمينه فرأى جميع ما كان له من أهل ومال وولد وقد صار معهم مثلهم قال اللَّه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قال وهب: كان له سبع بنات وثلاثة بنين، وقال ابن يسار[2]: سبعة بنين وسبع بنات فردهم اللَّه بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم، وهذا قول ابن مسعود وقتادة وكعب قالوا: أحياهم اللَّه عزّ وجلّ وأبدله بكل شيء ذهب عنه ضعفين. قال ابن عباس: ردّ اللَّه امرأته في شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل واختلفوا في ذي الكفل. قال أبو موسى الأشعري وقتادة ومجاهد: كان ذو الكفل رجلاً صالحاً كفل لنبي من الأنبياء أنه يصوم النهار ويقوم الليل، وأن لا يغضب ويقضي بالحق فوفى بذلك كله فأثنى اللَّه عليه وذكره مع الأنبياء. وذلك أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى اللَّه إليه إني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم النهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل

---

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس: 1/ 390 من غير نسبة.

(2) أبو محمد إسحاق بن يسار والد صاحب المغازي والسير، الطبقات الكبرى: 5/ 346.

(3) البغوي في المرجع نفسه: 4/ 79.

ذلك فقام شاب فقال: أنا أتكفّل لك بهذا فتكفّل ووفى به فشكره اللّه وأثنى عليه[1]، ولذلك سمي ذا الكفل، وقال الحسن: هو نبي اسمه: ذو الكفل ومعنى ذي الكفل أي ضوعف ثوابه على ثواب غيره ممن آمن به في زمانه. وقال مجاهد أيضاً: لما كبر اليسع عليه السلام قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل؟ قال فجمع الناس، وقال من يتكفّل لي بثلاث أستخلفه؟ يصوم النهار، ويقوم الليل، ويحكم بين الناس ولا يغضب فقام رجل تزدريه العيون فقال: أنا، فردّه في ذلك اليوم، ثم قال كذلك في الثاني فقام ذلك الرجل فرده، فقال مثل ذلك في اليوم الثالث فقام ذلك الرجل فاستخلفه فوفى بذلك كله[2]. قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي على طاعة اللّه، وعن معاصيه ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ يعني ما أنعم عليهم من النبوة، وما صيّرهم إليه في الجنة من الثواب.

قال اللّه تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (87) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (89) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ (90) وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (91) إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ (93)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يعني يونس بن متى ـ حبسه اللّه في بطن النون وهو الحوت ـ ومعنى الآية: واذكر

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 80 ـ 81.
(2) المرجع نفسه.

ذا الحوت إذ ذهب مغاضباً لقومه. روي أنه خرج من بينهم قبل أن يؤذن له في الخروج، وكان خروجه من بينهم خطيئة وإنما خرج منهم على تركهم الإيمان به، هكذا روي أن ابن عباس والضحاك[1]. وقيل كان يونس وقومه يسكنون ـ فلسطين ـ فغزاهم ملك فسبا منهم خلقاً كثيراً فأوحى اللّه إلى شعيب النبي صلى اللّه عليه وسلم: اذهب إلى الملك ـ حزقيا ـ فقل له: يوجه نبياً قوياً أميناً فإني ألقي في قلوب أولئك حتى ترسلوا معه بني إسرائيل. فقال الملك: من ترى نرسل وكان في مملكته خمسة من الأنبياء؟ فقال له: أرسل يونس، فإنه قوي أمين، فدعا الملك يونس، فأخبره أن يخرج فقال يونس: هل أمرك اللّه بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا. قال: فهنا أنبياء غيري أقوياء أمناء فألحّوا عليه فخرج مغاضباً للنبي والملك ولقومه. فأتى بحر الروم، فإذا سفينة مشحونة فركب مع أصحابها[2]، فلما صارت في لجة البحر انكفأت حتى كادوا يغرقون، فقال الملاحون: هاهنا عبد آبق عاص، فاقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، لأن يغرق واحد منا خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاث مرات، فوقعت القرعة كلها على يونس فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى نفسه في الماء فجاء حوت فابتلعه، ثم جاء حوت آخر أكبر منه فابتلع الحوت أيضاً، فأوحى اللّه إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة، فإني قد جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله رزقاً لك.

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة يقال: قدر اللّه الشيء وأقدره أي قضاه، وقيل معناه: فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾[3] أي ضيق عليه وقوله: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾[4] وقد ضيّق اللّه على يونس أشد تضييق. وقيل معناه: فظنّ أن لن نقدر عليه ما قدرنا من كونه في بطن الحوت. قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ قال ابن عباس: هي ظلمة الليل، وظلمة

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 81.
(2) المرجع نفسه.
(3) سورة الطلاق (65)، الآية: 7.
(4) سورة الإسراء (17)، الآية: 30.

البحر، وظلمة بطن الحوت. وقال سالم بن أبي الجعد: كان حوتاً في بطن حوت. وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الظالمين لنفسي في خروجي من قومي قبل الإذن. قال الحسن: وهذا من يونس اعتراف بذنبه وتوبته من خطيئته تاب إلى ربه في بطن الحوت، وراجع نفسه. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج عنه**[1]، **كلمة أخي يونس** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾». وقال وهب بن منبه: إن يونس بن متى عليه السلام كان عبداً صالحاً، وكان في خلقه ضيق فلما حملت عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقدمها بين يديه، وخرج هارباً منها فلذلك أخرجه اللَّه من أولي العزم. فقال اللَّه تعالى لمحمد صلى اللَّه عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] وقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[3] أي لا تلق أمري كما ألقاه. قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظن أن لن نقضي عليه مما قضيناه من العقوبة، ودليله قراءة الزهري: ﴿أَن لَّن نُّقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ مشدداً، وقرأ عبيد بن عمير ـ يُقدَّر ـ بالتشديد على المجهول[4] واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت فقيل: أربعين يوماً، وقيل سبعة أيام، وقيل ثلاثة أيام[5] وأمسك اللَّه نفسه فلم يقتله هناك. وروى أبو هريرة عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**لما أراد اللَّه حبس يونس في بطن الحوت أوحى اللَّه إلى الحوت خذه، ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً. فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى به إلى أسفل سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى اللَّه إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا يا ربنا إنا سمعنا صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت. قالوا: العبد الصالح الذي**

---

(1) رواه الترمذي في سننه تحفة الأحوذي: 9/ 479، رقم: 3572.
(2) سورة الأحقاف (46)، الآية: 35.
(3) سورة القلم (68)، الآية: 48.
(4) البغوي في تفسيره: 4/ 82.
(5) المرجع السابق نفسه.

كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم فشفعوا له فأمر اللَّه الحوت فقذفه على الساحل وهو سقيم»[1].

وعن ابن عباس قال: أتى جبريل إلى يونس فقال له: انطلق إلى أهل نينوى، فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال: حتى ألتمس دابة، قال له الأمر أعجل من ذلك، فانطلق إلى السفينة فركبها فاحتبست السفينة فساهموا فخرج السهم عليه[2]. فجاء الحوت يبصبص بذنبه فالتقمه الحوت فنودي الحوت، إنا لم نجعله رزقاً لك وإنما جعلناك له سجناً، وانطلق به الحوت من ذلك المكان حتى مرَّ به على الأبلة، ثم مرَّ به على دجلة، وكان ابن عباس يقول: كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت، ودليل هذا أن اللَّه ذكر قصة يونس في سورة (والصافات) ثم عقبها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[3]. وقال آخرون: بل كانت قصة الحوت بعد دعائه قومه، وتبليغه الرسالة. قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي أجبنا دعوته ونجيناه من تلك الظلمات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعوني كما نجينا ذا النون. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**اسم اللَّه الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى ـ دعوة يونس بن متى**» ـ قيل يا رسول اللَّه هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع إلى قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]» واختلفت القراءة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقرأ ابن عامر وأبو بكر ـ نُجَّى المؤمنين ـ بنون واحدة، وتشديد الجيم، وتسكين الياء، وجميع النحويين حكوا على هذه القراءة بالغلط، وقالوا هي لحن، ثم ذكر القراء لها وجهاً فقالوا أضمر المصدر في نجي أي نُجي النجاءُ المؤمنين كقولك ضُرب الضرب زيداً على إضمار المصدر[5] أي

(1) ابن جرير في تفسيره: 10/ 107، دار الفكر ـ بيروت، والثعلبي في تفسيره.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 82.
(3) سورة الصافات (37)، الآية: 147.
(4) ذكره الثعلبي في تفسيره عن سعد بن أبي وقاص.
(5) الفراء، معاني القرآن: 2/ 210، الزجاج، معاني القرآن: 3/ 403، المبسوط في القراءات العشر: ص 302.

ضرب الضرب زيداً، وقال الشاعر[1]:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب ∴ لسُبّ بذلك الجرو الكلابا[2]

أي لسب السب بذلك الجرو الكلابا، وممن صوب هذه القراءة أبو عبيد، وأما أبو حاتم السجستاني فإنه لحنها ونسب قارئها إلى الجهل، وقال هذا لحن لا يجوز في اللغة، ولا يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب اللّه إلا أن يقول: وكذلك نجي المؤمنين، ولو قرىء ذلك لكان صواباً. قال أبو علي الفارسي: هذا إنما يجوز في ضرورة الشعر فإن قيل لِمَ كتب في المصاحف بنون واحدة قيل لأن النون الثانية لما سكنت، وكان الساكن غير ظاهر على اللسان حذفت كما فعل ذلك بألاّ تحذف النون من أن لخفائها إذ كانت مدغمة في اللام.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي واذكر زكرياء إذ دعا ربه فقال رب لا تتركني فرداً، أي ارزقني ولداً آنس به ويعينني على أمر الدين والدنيا ويقوم بأمر الدين بعد وفاتي وأنت وارث جميع الخلق لأنهم وأمورهم صائرون إليك. قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي فأجبنا له دعاءه هذا ووهبنا له ابنه يحيى وأصلحنا عقر امرأته قال قتادة: كانت عقيماً فجعلناها ولوداً، وقيل كانت سيئة الخلق فرزقها اللّه حسن الخلق[3]. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يتبادرون إلى الطاعات مخافة أن يعرض لهم ما يشغلهم عنها، ويعني بذلك زكرياء وامرأته ويحيى. وقال بعض المفسرين: الكناية تعود على الأنبياء الذين ذكرهم اللّه في هذه السورة[4]. قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي طمعاً في ثوابنا وخوفاً من عقابنا ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي خاضعين ذليلين. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ

---

(1) جرير ـ تقدمت ترجمته ـ.

(2) البيت من الوافر من قصيدة لجرير يهجو بها الفرزدق مطلعها:
أقلّي اللوم عاذل والعتابا ∴ وقولي إن أصبت لقد أصابا
الخزانة: 1/ 163، الخصائص: 1/ 397، النحاس، إعراب القرآن: 3/ 78.

(3) البغوي في تفسيره: 4/ 85.

(4) الزمخشري في الكشاف: 2/ 582، والقرطبي في تفسيره: 11/ 336.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهي مريم بنت عمران ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي نفخ جبريل في جيب درعها بأمرنا والمعنى: واذكر التي حفظت فرجها من الأوزار وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي دلالة للعالمين من حيث إنها جاءت بالولد من غير بعل يتكلم في المهد بما يوجب براءة ساحتها من العيب وفي ذلك دليل على مقدرات اللَّه، وعن هذا لم يقل آيتين لأن شأنهما في الدلالة كان واحداً. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه: أن هذا دينكم دين واحد والأمة: الدين. ومنه قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[1] أي على دين الأصل. إنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد أمة فتقام الأمة مقام الدين وهو نصب على الحال أي حال اجتماعهما على الحق. قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي لا دين سوى ديني ولا ربّ غيري. قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿93﴾﴾ معناه: كان أمرهم في الدين واحداً ولكنهم تفرقوا واختلفوا بما لا يجوز وهم اليهود والنصارى والمجوس. قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي جميع أهل هذه الأديان راجعون إلى حكمنا يوم القيامة فيجزيهم بأعمالهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ
﴿94﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿95﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ
وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿96﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ
أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿97﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿98﴾ لَوْ
كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿99﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا
لَا يَسْمَعُونَ ﴿100﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿101﴾ لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿102﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ
ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿103﴾﴾.

---

(1) سورة الزخرف (43)، الآيتان: 22 ـ 23.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا جحود لعمله بل يتقبلها اللّه، ويثيبه عليها والمعنى لا يمنع ثواب عمله ولا يجحد إحسانه. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي نأمر الحفظة أن يكتبوا لذلك العامل عمله ليجازيه عليه. قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿95﴾﴾ أي واجب على قرية إذا هلكت لا ترجع إلى دنياها. قال الكلبي يعني بقوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ عذبناها ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا والمعنى أن اللّه تعالى أوجب على من أهلك أن يبقى في الأرض مدفوناً إلى يوم القيامة وأن لا يرجع إلى الدنيا. قرأ حمزة والكسائي: وحِرْم بكسر الحاء وجزم الراء من غير ألف وهما لغتان مثل حِل وحلال[1]. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وفتحهما إخراجهما من السد. وقرأ ابن عامر ويعقوب فتّحت بالتشديد على التكثير[2]. قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي من كل أكمة وربوة مرتفعة من الأرض يخرجون بإسراع، والحدب الارتفاع ومن الحدبة: خروج الظهر ونتوّه، والنسول: هو الخروج بسرعة كنسلان الذئب يعني مشيته إذا أسرع فيها. والمعنى: إنهم من كل نشز من الأرض يسرعون ويتفرقون في الأرض، فلا ترى أكمة إلا وفوقها قوم منهم يهبطون منها مسرعين، فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه. قال المفسرون: أولاد آدم عشرة أجزاء تسعة منهم ياجوج وماجوج وقد ذكرنا قصتهم في سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ قيل إن الواو هنا مقحمة والمعنى: حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج اقترب الوعد الحق أي يكون ذلك عند اقتراب الساعة، وذكر الوعد والمراد به الموعود. روي عن حذيفة رضي اللّه عنه أنه قال: لو أن رجلاً اقتنى قلوصاً بعد خروج ياجوج وماجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة[3]. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي تشخص

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 431.

(2) الأصبهاني، المبسوط في القراءات العشر: ص 303.

(3) البغوي في تفسيره: 4/ 88.

أبصارهم يوم القيامة نحو الجهة التي يتوقعون نزول العذاب بهم منها، وقيل شخصت أبصارهم من شدة ذلك اليوم. قال الكلبي: شخصت أبصارهم فلا تكاد تطرق من شدة الأهوال[1]. وأما الضمير في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ يعود إلى معلوم قد بيّنه وهو قوله: ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كقول الشاعر[2]:

لعمر أبيها لا تقول ظعينتي ∴ ألا فرَّ عني مالك بن أبي كعب

فكنى عن الظعينة ثم أظهرها ـ ويكون تقدير الكلام فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا وقيل يكون قوله: ﴿هِيَ﴾ عماد مثل قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[3]. وقوله: ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ أي قالوا: ﴿يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بالكفر. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿98﴾﴾ معناه: إنكم يا أهل مكة وما تعبدون من الأصنام وقود جهنم والحصب في اللغة: هو كل ما يرمى به. يقال: حصبه بالحصباء إذا رماه بها، وفي القراءة الشاذة[4]: حضب جهنم، وهي قراءة ابن عباس، والحضب ما يهيج به النار. ومنه قيل لدقاق النار حضب. وقرأ عليّ وعائشة ـ حطب جهنم[5] ـ وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي فيها خالدون. والحكمة في إدخال الأصنام النار مع أنها لا ذنب لها في عبادة من يعبدها أن يقصد بإدخالها تعذيب عبادها فما كان منها حجراً أو حديداً تحمى فتلتزق بعبادها. وما كان خشباً يجعل حمرة فيعذبون بها ويكون في إدخال معبودهم معهم في النار زيادة ذل وصغار عليهم. قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ استجهالاً لهم في عبادة الأصنام أي لو كان الأصنام آلهة كما يزعم الكفار ما وردوها أي ما دخل عابدوها النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني العابد والمعبود. قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿100﴾﴾ الزفير: شدة النفس بهول ما يرد على

---

(1) المرجع نفسه.
(2) مالك بن أبي كعب، من شعر قاله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر، الأغاني، 16/ 234.
(3) سورة الحج (22)، الآية: 46.
(4) ابن جني في المحتسب: 2/ 66.
(5) المرجع نفسه.

صاحبه ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره. قال ابن مسعود: يجعلون في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى فلا يسمعون شيئاً[1].

وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه أتى قريشاً وهم في المسجد مجتمعون وحولهم ثلاثمائة وستون صنماً مصفوفة كل صنم لكل قوم بحيالهم، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إنكم وما تعبدون من دون اللَّه حصب جهنم أنتم لها واردون**». ثم ذهب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فشق ذلك عليهم فأتاهم عبد اللَّه بن الزبعرى[2] فرآهم يتهامسون فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال ابن الزبعرى: أما واللَّه لو وجدته لخصمته فدعوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى: أنت قلت إنا وما نعبد في النار؟ قال خصمتك ورب الكعبة، أليست اليهود تعبد عزيراً؟ والنصارى تعبد المسيح؟ وبنو مليح يعبدون الملائكة فترى أن هؤلاء يكونون في النار؟ فبيَّن له النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن اللَّه تعالى أراد به الأوثان، وفي الآية ما يدل على ذلك، لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لا يكون إلا لما لا يعقل إذ لو أراد الملائكة، والناس لقال: ومن تعبدون. ثم أنزل[3] اللَّه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ معناه: أن عيسى وعزيراً والملائكة هم الذين سبقت لهم مني الحسنى أي وجبت لهم العدة من اللَّه بالبشرى والسعادة، ويدخل في هذه الآية جملة المؤمنين لما روي أن عثمان رضي اللَّه عنه سمع علياً كرَّم اللَّه وجهه يقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ فقال عثمان: إنا منهم، وقيل تلا علي رضي اللَّه عنه هذه الآية فقال[4]: أنا منهم

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 89.

(2) أبو سعد عبد اللَّه بن الزبعرى السهمي، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين بعد فتح مكة، هرب إلى نجران، ولما بلغه ما قاله فيه حسان من الشعر رجع إلى مكة فأسلم ومدح النبي صلى اللَّه عليه وسلم. الأعلام: 4/ 87، إمتاع الأسماع: 1/ 391.

(3) الواحدي في أسباب النزول: ص 252، ابن إسحاق في السيرة النبوية: 1/ 358 ـ 359.

(4) الثعلبي في تفسيره: الورقة 30.

وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد[1]، وعبد الرحمن، وأبو عبيدة. وقال الجنيد: سبقت لهم من اللّه العناية في البداية وظهرت الولاية في النهاية[2]. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ أي منحُّون عن النار. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي حسها وحركتها بلعبها، والمعنى لا يسمعون صوت النار ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ أي فيما اشتهت أنفسهم من نعيم الجنة مقيمون دائمون. قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾. قال أكثر المفسرين: يعني إطباق جهنم على أهلها. وقال ابن عباس: هي النفخة الأخيرة، وقيل هو: ذبح الموت بين الفريقين، وقيل هو: حين يؤمر بأهل النار إلى النار[3]، وذلك حين يقال: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾[4]. قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي بالتهنئة على باب الجنة، فيقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فيه بالفوز.

قال اللّه تعالى:

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾.

---

(1) أبو الأعور سعيد بن زيد العدوي صحابي جليل هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها إلا بدراً، وهو أحد المبشرين بالجنة. الاستيعاب: 2/ 614، أسد الغابة: 2/ 306، طبقات ابن سعد: 3/ 289.

(2) الثعلبي في المرجع نفسه.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 90.

(4) سورة يس (36)، الآية: 59.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: السجل هو الصحيفة على باب الجنة تطوي بما فيها من الكتابة[1]. وقال السدي: هو ملك موكل بالصحف إذا مات الإنسان رفع كتابه إليه فطواه، وقيل إن السجل كاتب لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم[2]، ويقال: هو الرجل بلغة الحبشة[3]. قرأ أبو جعفر: تُطوى السماء بالتاء ورفع السماء على ما لم يسم فاعله[4]، وقرأ أهل الكوفة: للكتب على الجمع[5]. والمراد بطي السماء أن اللَّه تعالى يطويها ثم يفنيها ثم يعيدها، ولذلك قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أي كما بدأناها أول مرة نعيدها إلى الحالة الأولى. ويجوز أن يكون معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أي نعيد الخلق للبعث كما بدأناه من النطفة ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[6] والطيُّ في هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما الدرج الذي هو ضد النشر. قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[7]، والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو والطمس لأن اللَّه تعالى يمحو رسومها ويكدر نجومها، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة. قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآۚ﴾ نصب على المصدر بمعنى قد وعدنا هذا وعداً. قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي قادرين على فعل ما نشاء لا خلف لوعدنا ـ وسنفعل ما قلنا ـ وقيل معناه: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ما وعدناكم من ذلك، وقيل: إنا كنا فاعلين الإعادة والبعث. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 90.
(2) فكتّاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم أحد اسمه السجل.
(3) الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 3/ 406.
(4) النشر في القراءات العشر: 2/ 324.
(5) مكي في الكشف: 2/ 114.
(6) سورة الأعراف (7)، الآية: 29.
(7) سورة الزمر (39)، الآية: 67.

كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي كتبنا في زبور داود من بعد توراة موسى.

وقال ابن عباس والضحاك: الذكر التوراة، والزبور الكتب المنزلة من بعد التوراة، وقيل الزبور زبور داود، والذكر الفرقان وبعد بمعنى قبل، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[1] أي أمامهم. وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[2] أي قبل ذلك قوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني أرض الجنة يرثها الصالحون من أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وقيل جميع المؤمنين العاملين بطاعة اللَّه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي إن في هذا القرآن بلاغاً للكفاية والمعنى أن من اتبع القرآن وعمل به كان القرآن بلاغه إلى الجنة. وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ قال كعب هم أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان[3]. وروي أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قرأ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾. ثم قال: «**هي الصلوات الخمس في الجماعة في المسجد الحرام**». قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ معناه: وما أرسلناك يا محمد إلا نعمة للعالمين. قال ابن زيد يعني للمؤمنين خاصة، وقال ابن عباس: هو عام لمن آمن به كتب له من الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفي مما أصاب الأمم من المسخ والخسف والقذف والمعنى أنه كان إذا أرسل نبي من الأنبياء فإن آمن به قومه وإلا عذبوا، وأرسل النبي صلى اللَّه عليه وسلم فكان كل من كفر به يؤخر إلى يوم القيامة فهو نعمة على الكافر إذ عوفي مما أصاب الأمم من قبل. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما يوحى إليّ في القرآن ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو اللَّه لا شريك له ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ يا أهل مكة ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون له بالعبادة والتوحيد. قوله تعالى:

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 79.
(2) سورة النازعات (79)، الآية: 30.
(3) الطبري في تفسيره: 10/ 140.
البغوي في معالم التنزيل: 4/ 91.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي فإن أعرضوا من قبول قولك ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم بالوحي من اللَّه على سواء في الإعلام أي لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره، وقيل: على سواء في العلم إني حرب لكم لا صلح بيننا، وإني مخالفكم لدينكم فتأهّبوا لما يراد بكم، إذ ليس الغدر من أخلاق الأنبياء صلوات اللَّه عليهم. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي ما أدري متى ما توعدون به من العذاب؟ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿110﴾﴾ معناه: أن اللَّه يعلم ما تعلمون به من القول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من سركم لا يغيب من علمه شيء منكم. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي ما أدري لعل تأخير العذاب اختيار لكم ليُرى كيف صنعكم؟ ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ آجالكم أي تتمتعون إلى انقضاء آجالكم. قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد رب احكم بعذاب أهل مكة الذي هو حق نازل بهم؟ والحق هاهنا هو العذاب كأنه استعجل العذاب لقومه، فعذبوا يوم بدر. قال قتادة: كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم إذا شهد قتالاً قال: «**رب احكم بالحق**». قال الكلبي: يحكم عليهم بالقتل يوم بدر، ويوم الأحزاب.

سُورَةُ الحَجِّ

سورة الحج مكية إلا آيات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[1] إلى آخر الآيتين، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾[2] إلى آخر الآيتين. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾[3] إلى آخر السورة فهذه الآيات مدنيات وكل شيء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني، وكل شيء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، ومنه مدني. ولا تجد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلا مدنياً فقط. هكذا روي عن ابن عباس وعدد آيات السورة ثماني وسبعون آية، وخمسة آلاف وتسعون حرفاً، وألف ومائتان وإحدى وتسعون كلمة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا
تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ
سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي
ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ
وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم
مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ
وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ

(1) الآية: 11.
(2) الآية: 39.
(3) الآية: 77.

شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس: يريد يا أهل مكة اتقوا ربكم واخشوا عقابه إن زلزلة قيام الساعة شيء عظيم أي هول عظيم لا يوصف لعظمه. والزلزلة: شدة الحركة مع الحال الهائلة. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي يوم ترون تلك الزلزلة تذهل في ذلك اليوم كل مرضعة عما أرضعت أي تنساه وقيل: تشغل، وقيل تترك يقال: ذهلت عن كذا أي تركته. وقيل معنى الآية: يوم ترون الساعة والزلزلة تشغل كل مرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ـ وهذا إنما يكون على وجه التشبيه ـ والمعنى: أن لو كانت ثم مرضعة لذهلت عن ولدها، وحامل لوضعت حملها.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي من شدة الفزع والخوف من عذاب اللَّه يتحيرون كأنهم سكارى وما هم بسكارى من الشراب. والمعنى ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم، وشدة ما يمر بهم، يضطربون اضطراب السكران، وسكارى ـ جمع سكران ـ وقرأ أهل الكوفة[1]: سكرى، وسكرى ـ بغير ألف ـ قال الفراء: وهو وجه جيد في العربية لأنه بمنزلة الهلكى والجرحى والمرضى[2]. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**يقول اللَّه تعالى يوم القيامة لآدم: يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك، وما بعث النار؟ فيقول من كل ألفٍ تسعمائةٍ وتسعة وتسعينَ إلى النار وواحد إلى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع الحامل ما في بطنها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى**». فقالوا يا رسول اللَّه: أينا ذلك الرجل الذي يبقى؟ قال: «**أبشروا فإني لأرجو أن يكون من ياجوج وماجوج ألف ومنكم واحد**»، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**» فكبرنا وحمدنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن**

---

(1) مكي في الكشف: 2/ 116، والداني في التيسير: ص 156.
(2) معاني القرآن: 2/ 214.

تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبرنا وحمدنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا**»[1] وحمدنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي**»، ثم قال صلى اللّه عليه وسلم: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، ومع كل واحد سبعون ألفاً**»، فقال عكاشة بن محصن[2]: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**»، فقام رجل من الأنصار[3] فقال يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[4]. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال ابن عباس نزلت في النضر بن الحارث[5]، كان كذب بالقرآن وزعم أنه من أساطير الأولين، وكان كثير الجدل، ويقول الملائكة بنات اللّه، وزعم أن اللّه غير قادر على إحياء الموتى[6]. والمعنى ومن الناس من يخاصم في دين اللّه بغير علم ولا حجة، ويتبع كل شيطان مريد أي متمرد على اللّه. قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أي كتب على الشيطان إضلال من تولاه وهدايته إياه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقيل إن: الهاء في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ راجعة إلى من يتبع الشيطان فيقبل منه. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ معناه: يا أهل مكة إن كنتم في شك من البعث بعد الموت فتفكروا في ابتداء خلقكم فإن إعادتكم ليست بأشد من أول

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني عن أبي سعيد الخدري: 7/ 29، رقم: 3348، كتاب أحاديث الأنبياء.
مسلم في صحيحه بشرح النووي: 3/ 97، بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة.

(2) أبو محصن عكاشة بن محصن الأسدي صحابي من أمراء السرايا شهد المشاهد كلها مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وقتل في حرب الردة بأرض نجد سنة اثنتي عشرة. الإصابة: 6734، طبقات ابن سعد: 3/ 67.

(3) هو سعد بن عبادة الخزرجي رضي اللّه عنه.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني فتح الباري: 13/ 223 ـ 6542، كتاب الرقاق، ومسلم في صحيحه شرح النووي: 3/ 89.

(5) النضر بن الحارث بن علقمة من بني عبد الدار القرشي كان من شجعان قريش وصاحب لواء المشركين ببدر له اطلاع على ثقافة الفرس وقرأ تاريخهم، أسره المسلمون في بدر، ومات بعد انصرافهم من الوقعة. الأعلام: 8/ 33، الكامل لابن الأثير: 2/ 26.

(6) الطبري في تفسيره: 10/ 152.

خلقكم ثم بين ابتداء خلقهم. فقال ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلقنا أباكم آدم ثم صيّرناه لحماً ودماً. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم خلقناكم بعد ذلك من النطفة التي تكون من الذكر والأنثى، ثم خلقنا تلك النطفة علقة وهي قطعة من الدم ثم جعلنا العلقة مضغة وهي قطعة من اللحم تسمى مضغة لأنها تكون مقدار ما يمضغ من اللحم. قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي تامة الخلق وغير تامة الخلق، وقيل: مصورة وغير مصورة وهو السقط.

قال عبد اللّٰه بن مسعود: إذا وقعت النطفة في الرحم بعث اللّٰه ملكاً يأخذها بكفه فيقول يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً، وإن قال: مخلقة، قال يا رب أذكر أم أنثى؟ وما رزقها؟ وما أجلها؟ أشقي أم سعيد؟ بأي أرض تموت؟ فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد ذلك تستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق فيستنسخها فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها حتى إذا جاء أجلها ماتت فتذهب إلى المكان الذي كتب لها[1]. قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي لنبين لكم كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريفنا في الخلق. قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ونترك في الأرحام ما نشاء من الولد إلى وقت التمام ولا نسقطه. وقد روي عن عاصم ونقرَّ ـ بالنصب على العطف[2]، وقراءة الباقين بالرفع على معنى ونحن نقر[3]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم نخرجكم من الأرحام طفلاً صغاراً، وإنما لم يقل: أطفالاً لأنه لم يخرجهم من أم واحدة، ولكنه يخرجهم من أمهات شتى كأنه قال: ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً[4]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نعمركم لتبلغوا أشدكم يعني الكمال والقوة، ومنكم من يتوفى من قبل بلوغ الأشد، ومنكم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر ـ أي

(1) الطبري في تفسيره: 10/ 154 بتصرف.
والبغوي في معالم التنزيل: 4/ 97.
(2) قاله أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن: 3/ 87. وروى أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن عاصم.
(3) أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 3/ 412.
(4) الزجاج في المرجع نفسه.

أهويه وأخسّه وهو الهرم والخرف ـ قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً، قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه دلالة أخرى لهم على إحياء الموتى بإحياء الأرض الميتة، والهامدة هي: اليابسة الجافة، كأنه قال: وترى الأرض يابسة جافة ذات تراب كالنار إذا طفئت ورمّت ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي على الأرض ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وازدادت وأضعفت النبات. وذلك أن الأرض ترتفع عن النبات كذلك تحريكها وهو معنى قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي ارتفعت وزادت وانتفخت للنبات، من ربا يربو إذا زاد. قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي وأخرجت بالماء من كل لون حسن البهجة، ومن كل صنف موبق العين ـ والبهيج الحسن ـ قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[1].

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿6﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿7﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿8﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿9﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿10﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿11﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿12﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿13﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي ذلك الذي وصفناه من تصريف الخلق على هذه الأحوال وفي إحياء الأرض الميتة لتعلموا وتقروا بأن الله هو الحق، أي هو المستحق لصفات التعظيم، وهو الإله الواحد الذي

(1) سورة النمل (27)، الآية: 60.

يقدر على كل شيء وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي ويدلكم على أنه يحيي الموتى كما أحياكم ابتداء، وبأنه على كل شيء من الإيجاد والإعدام قدير، ويدلكم على أن الساعة كائنة ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ للحساب والجزاء. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ⑧﴾ نزلت في النضر بن الحارث[1] أيضاً ومعناه: يجادل ليحق الحق ويبطل ما دلّ عليه الدليل بغير معرفة ولا دليل ولا كتاب مضيء فيه حجة ما يقول. قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ أي لاوي عنقه متكبراً معرضاً عن ما يدعى إليه كبراً وهو منصوب على الحال والمعنى: ومن الناس من يجادل في اللَّه متكبراً شامخاً بأنفه ليضل عن سبيل اللَّه أي عن دين اللَّه وطاعته. وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ أي عقوبة بالخدمة والقتل، ونذيقه في القيامة عذاب الحريق أي عذاب النار. فقتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً، ومن قال نزلت في أبي جهل[2] فهو قتل يوم بدر أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ مبالغة في إضافة الخزي إليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ظاهر المعنى فإن قيل لِمَ قال تعالى بظلام على صفة المبالغة وهو لا يظلم مثقال ذرة؟ قيل: إنه تعالى لو فعل أقل قليل الظلم لكان عظيماً منه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآيات[3] في أناس من بني أسد بن خزيمة أصابتهم سنة شديدة فأجدبوا فيها فمضوا بعيالهم إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة مهاجرين، فكانوا إذا أعطوا من اللَّه وأصابوا خيراً اطمأنوا بذلك وفرحوا به، وإن أصابهم وجع وآفة وولدت نساؤهم البنات وتأخرت عنهم الصدقة قالوا ما أصابنا مذ كنا على هذا الدين إلا شر فينقلب دينه وذلك الفتنة ومعنى الآية: ومن الناس من

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 158. وقال القرطبي في تفسيره: نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى، والتكرير للمبالغة في الذم، كما تقول للرجل تذمه وتوبخه: أنت فعلت هذا، أنت فعلت هذا. ويجوز أن يكون التكرار لأنه وصفه في كل آية بزيادة فهو تكرار مفيد. الجامع لأحكام القرآن: 12/ 15.

(2) قال الثعلبي في تفسيره: وقيل نزلت في أبي جهل بن هشام.

(3) الواحدي في أسباب النزول، ص 254.

يعبد اللَّه على حرف أي على ضعف في العبادة كضعف القيام على حرف جرف لا يدخل في الدين على ثبات وتمكين، وقيل معناه على شك كأنه قائم على حرف جدار، وطرف جبل لا يدخل في الدين على ثبات وتيقن وطمأنينة فهو كالمضطر على شفا جرف فإن أصابه رخاء وعافية وخصب اطمأن على عبادة اللَّه بذلك الخير، وإن أصابته فتنة أي محنة بضيق العيش ونحو ذلك انقلب على وجهه أي رجع إلى دينه الأول وهو الشرك باللَّه. وقوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ﴾ أي خسر في الدنيا العز والغنيمة وفي الآخرة الجنة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الظاهر. وقرأ الأعرج ويعقوب: انقلب على وجهه خاسر الدنيا والآخرة ـ بالألف والآخرة بالخفض[1] ونصب خاسرَ على الحال[2] ـ قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ أي يعبد من دون اللَّه ما لا يضره إن ترك عبادته، ولا ينفعه إن عبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق والرشد. قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾ أي يدعو ما لا نفع له أصلاً، ومن عادة العرب أنهم يقولون لشيء لا منفعة فيه: ضرره أكثر من نفعه، كما يقولون لشيء لا يكون أصلاً: هذا بعيد. وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي بئس الناصر. وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي بئس الصاحب والعشير يعني الصنم واختلفوا في اللام في قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ فقيل معناها: التأخير كأنه قال: يدعو من واللَّه لضره أقرب من نفعه، وإنما قدمت اللام للتأكيد ونظير هذا عندي لما غيره خير منه معناه عندي ما تعبّده خير منه، وقيل لمن ضره كلام مبتدأ وخبره لبئس المولى ولبئس العشير ويكون المعنى: الذي هو الضلال البعيد يدعوه فهذا حد الكلام وما بعده كلام مستأنف، وقيل هذه اللام صلة أي يدعو من ضره أقرب من نفعه[3].

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ

---

(1) ابن الجزري في النشر: 2/ 325.
وابن جني في المحتسب: 2/ 75.
(2) أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن: 3/ 89.
(3) يراجع الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 3/ 415.

ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿14﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿15﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ
بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿16﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿17﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿18﴾ ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ظاهر المعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة، وبأهل معصيته من الهوان. قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية. معناه: من كان يظن أن لن ينصر اللَّه محمداً صلى اللَّه عليه وسلم فليطلب سبباً يطأ به إلى السماء ثم ليقطع نصرة اللَّه لنبيه صلى اللَّه عليه وسلم، ولينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيله. فكما لا يمكنه أن يحتال إلى السماء في الوصول كذا لا يمكنه الحيلة في قطع نصرة اللَّه تعالى للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، وقيل معناه: من كان يظن أن لن ينصر اللَّه النبي صلى اللَّه عليه وسلم حتى يظهر على الدين فليمت غيظاً. وقيل الهاء راجعة إلى من كان يظن كأنه قال: من كان يظن أن لن يرزقه اللَّه فليمدد بحبل إلى سقف بيته واضعاً ذلك على حلقه مخنقاً نفسه ليذهب غيظ نفسه. وهذا مثل ضرب لهذا الجاهل أي مثل هذا الذي يظن أن لن يرزقه اللَّه على سبيل السخط مثل من فعل مثل هذا الفعل بنفسه، هل كان ذلك إلا زائداً في بلائه، وهل يذهب خنقه نفسه غيظه في رزقه؟ وإنما ذكر النصرة بمعنى الرزق لأن العرب تقول: من ينصرني نصره اللَّه أي من يعطني أعطاه اللَّه[1].

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 166 ثم قال: وحكوا سماعاً ـ نصر المطر أرض كذا ـ إذا جاءها وأحياها واستشهد لذلك ببيت الفقعسي:

وإنَّك لا تُعطي امرءًا فوق حظِّه ∴ ولا تملكُ الشِّقَّ الَّذي الغَيْثُ ناصِرُهُ

ويراجع في اللسان: نصر.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ ما بمعنى المصدر أي هل يذهبن كيده وحيلته غيظه؟ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وكذلك أنزلنا القرآن على محمد صلى اللَّه عليه وسلم دلالات واضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ إلى النبوة ﴿مَا يُرِيدُ﴾ وقيل يهدي إلى الدين وإلى الثواب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ إن الذين آمنوا بمحمد والقرآن وجميع أصناف الكفار من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا إن اللَّه يفصل بين هؤلاء الفرق الخمس وبين المؤمنين يوم القيامة بأن يدخل المؤمنين الجنة، وتلك الفرق النار إن اللَّه على كل شيء شهيد أي عليم بكل شيء من أعمال هؤلاء. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ألم تعلم يا محمد أن اللَّه يسجد له أهل السماوات من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجن والأنس من المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ يسجدون للَّه أي يخضعون لأن سجود هذه الأشياء هو خضوعها، وانقيادها لخالقها فيما يريد منها. وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا وهو يسجد للَّه حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له[1]. قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي وكثير من الكفار الذين سيؤمنون من بعد وانقطع ذكر الساجدين ثم ابتدأ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي ممن لا يوحدونه وأبوا السجود. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي من يهنه اللَّه بالشقاء فما أحد يكرمه بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإهانة والكرامة، والشقاوة والسعادة، وهو المالك للعقوبة والمثوبة.

قال اللَّه تعالى:

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿19﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿20﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ
حَدِيدٍ ﴿21﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿22﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿23﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى

---

(1) قول أبي العالية تقريباً بلفظه في معالم التنزيل للبغوي: 4/ 103.

ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿24﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿25﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ أراد بالخصمين المؤمنين والكفار، وقيل هم أهل الكتاب وأهل القرآن[1] والمعنى: اختصموا في دين ربهم، فقالت اليهود والنصارى: نحن أولى بالله منكم لأن نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، وقالت المسلمون: نحن أحق بالله منكم، آمنا بكتابنا وكتابكم ونبينا ونبيكم وأنتم كفرتم بنبينا حسداً. وقيل أراد بالخصمين الفريقين اللذين تبارزا يوم بدر[2]، والخصم يقع على الواحد والجمع ألا ترى أنه جعل الكفار خصماً والمؤمنين خصماً، ولهذا قال: اختصموا لأنهما جمعان وليسا برجلين. وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم أن هذه الآيات نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر، ثلاثة من المؤمنين: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وثلاثة من المشركين وهم: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة[3]. قال: وقال علي رضي الله عنه إني لأول من يجثو للخصومة يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ[4]. قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي نحاس قد أذيب في النار فجعل على أبدانهم بمنزلة الثياب وليس شيء إذا أحمي أشد حراً من النحاس ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار قد انتهى حرّه. قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿20﴾﴾ أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم حتى تخرج من

---

(1) نسبه الثعلبي في تفسيره، والبغوي في معالم التنزيل: 4/ 105 إلى ابن عباس وقتادة.
(2) الواحدي في أسباب النزول: ص 255، وابن عطية في المحرر الوجيز: 11/ 187.
(3) أخرجه البخاري في صحيح فتح الباري: 9/ 374 ـ 47433، كتاب التفسير.
ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 18/ 166، كتاب التفسير، والواحدي في أسباب النزول: ص 255.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9/ 374 ـ 4744، كتاب التفسير.

أدبارهم وتذاب به الجلود أيضاً فإن جلودهم تتساقط من حرّ جهنم. والصهر: الإذابة، يقال: صهرت الألية بالنار أصهرها أذبتها.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿21﴾﴾ المقامع جمع مقمعة وهي مدقة الرأس. روي أن الملائكة يضربون رؤوسهم بأعمدة من حديد فيهوون في النار سبعين خريفاً. قال مقاتل: يضرب الملك رأس الكافر بالمقمعة فيثقب رأسه ثم يصب فيه الحميم الذي انتهى حره فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوف الكافر فيسلت ما في جوفه من الأحشاء حتى يحرق قدميه[1]. قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي كلما رفعتهم النار بلهبها فحاولوا الخروج منها من غم العذاب أعيدوا في النار بضرب المقامع، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المحرق مثل الأليم بمعنى المؤلم. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿21﴾﴾: «**لو وضع مقمع من حديد على الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما رفعوه من الأرض**»[2]. ثم ذكر اللَّه تعالى الخصم الآخر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ قد تقدم تفسير ذلك في سورة الكهف ـ قرأ أهل المدينة وعاصم ـ ولؤلؤاً بالنصب على معنى: ويحلون فيها لؤلؤاً. ومن قرأ بالخفض كان المعنى: ويحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤ[3]. وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ظاهر المراد. قال أبو سعيد الخدري: من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة[4]، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة كلهم غيره[5]. قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي هدوا في الدنيا إلى

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/ 387، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع: 1433.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/ 601، وأحمد في المسند: 3/ 83. وذكره الألباني في ضعيف الجامع: 4812.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 73، والداني في التيسير: ص 156.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 11/ 463 ـ 5934، كتاب اللباس. ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 14/ 51، تحريم الذهب والحرير على الرجال.
(5) القرطبي في تفسيره: 12/ 30.

القول الطيب وهو قول: لا إله إلا اللَّه، وقيل إلى القرآن. وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وصراطه طريق الجنة، والمعنى: أرشدوا إلى الإسلام يجوز أن يكون الحميد نعتاً للصراط كما في قوله: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾[1]، وقيل معنى الآية: وأرشدوا إلى القول الطيب في الآخرة مثل قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إن الذين كفروا بمحمد والقرآن ويصدون عن سبيل اللَّه عطف المضارع على الماضي لأن المراد بالمضارع الماضي أيضاً، ويجوز أن يكون المعنى: إن الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون عن سبيل اللَّه مع كفرهم والمعنى يمنعون الناس عن طاعة اللَّه وعن الطواف في المسجد الحرام.

وهم أبو سفيان وأصحابه الذين صدوا النبي صلى اللَّه عليه وسلم عام الحديبية. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ معناه: الذي جعلناه للناس كلهم لم يخص به بعضهم دون بعض، سواء المقيم فيه والذي يأتي من غير أهله، وليس الذين صدوا عنه بأحق به من غيرهم. قيل إن المراد بالمسجد الحرام في هذه الآية: الحرم كله كما في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾[3] وكان العهد بالحديبية. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إن مكة حرام لا يحل بيع رباعها، ولا إجارة بيوتها**»[4]. وقيل المراد بالمسجد الحرام نفس المسجد سواء المعتكف فيه المجاور، والبادي الذي لا يكون ملازماً له في حرمته وحق اللَّه عليهما فيه سواء. قرأ حفص سواء بالنصب بإيقاع الجعل عليه لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين. وقرأ الباقون: بالرفع على الابتداء وما بعده خبره[5]، وقيل ـ سواء ـ خبر مبتدأ متقدم تقديره: العاكف والبادي فيه سواء. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ

---

(1) سورة الواقعة (56)، الآية: 95.
(2) سورة الزمر (39)، الآية: 74.
(3) سورة التوبة (9)، الآية: 7.
(4) في أحكام القرآن للجصاص: 3/ 228، باب بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها.
(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 74.

﴿فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ معناه: ومن يرد فيه إلحاداً وظلماً. وفي هذه الآية دليل أن المراد بالمسجد الحرام: كل الحرم فإن الذنب في الحرم أعظم منه في غيره فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي سواء في النزول فليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه، وحرموا بهذه الآية كري دور مكة وإجارتها في أيام الموسم. قال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة أحق بمنزله منهم. وروي أنها كانت تدعى السوائب في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبي بكر وعمر، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن(1). والإلحاد: هو الشرك باللّه تعالى، وقيل: كل ظالم فيه فهو ملحد. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**احتكار الطعام بمكة إلحاد**»(2). وأما دخول ـ الباء ـ في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ فعلى معنى ومن إرادته فيه بأن يلحد ويظلم وقيل الإلحاد: دخول مكة بغير إحرام، وأخذ حمام مكة، وأشياء كثيرة لا يجوز للمحرم أن يفعلها. وقوله تعالى: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر لكل ما تقدم من الجملتين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومن قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿26﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿27﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿28﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿29﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿30﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ

---

(1) الجصاص في المرجع نفسه.

(2) رواه أبو داود في سننه: 2: 219، رقم: 2020، كتاب المناسك.
رواه البيهقي في الشعب: 7/ 527، رقم: 11221.

غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ معناه: واذكر إذ جعلنا البيت مبوأً لإبراهيم ومنزلاً وقال الحسن: بوأناه أنزلناه، وقال مقاتل: دللناه عليه، وقيل: هيأنا مكانه نظيره ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وبوأكم في الأرض ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[2]، وقيل معنى: بوأناه أي بيّنا له مكان البيت. قال السدي: لما أمره اللَّه ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث اللَّه إليه ريحاً فكشفت له بناء حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه قبل أن يرفع أيام الطوفان[3]. وقال الكلبي: بعث اللَّه إليه سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم فقامت بحيال البيت، وقالت: يا إبراهيم ابنِ على قدري[4]. قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي قلنا له وأوحينا إليه أن لا يعبد معي غيري. قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي طهره من ذبائح المشركين، ومما كانوا يطرحون حوله من الدم والفرث، وقيل طهره من عبادة الأوثان ومن دخول المشركين فيه. قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي الذين يطوفون حوله. وأما القائمون والركع السجود فهم المصلون. قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي وعهدنا إلى إبراهيم أيضاً أن أذن في الناس بالحج. فقال إبراهيم: يا رب وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الآذن وعلي البلاغ فصعد أبا قبيس ونادى في الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وأمركم أن تحجوه فحجوه فأسمع اللَّه نداءه جميع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وما بين المشرق والمغرب، والبر والبحر فلباه كل حجر ومدر، وكل مؤمن ومؤمنة في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات. قال: لبيك اللّهم لبيك فجعل اللَّه التلبية شعاراً للحج فكل من حجّ فهو ممن أجاب إبراهيم عليه السلام.

---

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 121.
(2) سورة العنكبوت (29)، الآية: 58.
(3) البغوي في تفسيره: 4/110.
(4) البغوي في المرجع نفسه.

قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ معناه: يأتوك مشاة على أرجلهم وعلى كل جمل مهزول أضمره السفر. ورجال جمع راجل نحو صاحب وصحاب. وعن ابن عباس أنه قال: ما ندمت على شيء فاتني إلا أني لم أحج راجلاً[1]. وقد حج الحسن بن علي رضي اللّه عنهما خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة، وإن النجائب لتقاد معه[2]. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم**». قيل وما حسنات الحرم؟ قال «**الحسنة بمائة ألف**». قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي من كل طريق بعيد من بلدان شتى. يقال بئر عميقة إذا كانت بعيدة القعر، وإنما قال يأتين لأنه في معنى الجمع، وقيل معناه: وعلى كل ناقة ضامرة. وعن بشر بن محمد قال: رأيت في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة، واصفرّ لونه وبيده عصا وهو يطوف معتمداً عليها، فتقدمت إليه لأسأله فقال لي: من أين أنت؟ قلت من خراسان. قال من أي ناحية هي؟ قلت من نواحي المشرق. فقال لي في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت في شهرين أو ثلاثة. قال أفلا تحجون في كل عام وأنتم جيران هذا البيت؟ قلت وأنتم كم بينكم وبين هذا البيت؟ فقال مسيرة خمس سنين. فقلت واللّه إن هذا الجهد البين والطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فضحك في وجهي وأنشأ يقول:

زر مَن هويت وإن شطت بك الدار ∴ وحال من دونه حجب وأستار[3]

لا يمنعنَّك بُعْدٌ من زيارته ∴ إن المحب لمن يهواه زوَّار

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي ليشهدوا ما ندبهم اللّه إليه مما لهم فيه نفع آخرتهم، ويدخل في ذلك منافع الدنيا من التجارة بيعاً ورخصة. قال ابن جبير: يعني بالمنافع التجارة، وقال مجاهد: هي التجارة وما يرضي اللّه من أمر الدنيا والآخرة، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول: إذا وقف بعرفة

---

(1) ابن عطية في المحرر الوجيز: 11/ 194.
(2) الرازي الجصاص في أحكام القرآن: 3/ 232.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره من غير نسبة.

اللَّهم إنك دعوت إلى حج بيتك وذكرت المنفعة على شهود مناسكك وقد أجبتك، فاجعل منفعة ما تنفعني به أن تؤتيني في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وأن تقيني عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال الحسن: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق، وإنما قال لها معدودات لأنها قليلة، وقيل لتلك المعلومات للحرص على علمنا بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها[1]. وإلى هذا ذهب أبو حنيفة، وقال أبو يوسف ومحمد: الأيام المعلومات أيام النحر وهي ثلاثة أيام، والأيام المعدودات أيام التشريق وهي ثلاثة أيام بعد اليوم الأول من أيام النحر، فيكون اليوم الأول من أيام النحر من المعلومات دون المعدودات، واليوم الآخر من أيام التشريق من المعدودات ويومان في وسطها من المعلومات والمعدودات جميعاً. وكان يستدل على هذا القول في الأيام المعلومات بهذه الآية فإنه تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ فاقتضى ظاهره أن المراد به التسمية على ما يذبح من هدي المتعة والقران، وأما على قول أبي حنيفة فالمراد بالذكر إكثار الذكر في الأيام العشر. كما روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ما من أيام العمل الصالح أفضل فيهن من الأيام العشر فأكثروا فيها من التحميد والتكبير والتهليل**»[2]. وعلى هذا يكون معنى على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، لما رزقهم من بهيمة الأنعام كما قال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[3] أي لما هداكم. وقال محمد بن كعب: المعلومات والمعدودات واحد[4]. قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني الهدايا والضحايا من الإبل والبقر والغنم. قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال الحسن: وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة وشرحوا اللحم

---

(1) الجصاص في أحكام القرآن: 3/ 233.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 3/ 354، رقم: 3751.

(3) سورة البقرة (2)، الآية: 185.

(4) الثعلبي في تفسيره بنصه.

فوضعوه على الحجارة حتى تأكله السباع والطيور. وقالوا لا يحل لنا أن نأكل شيئاً جعلناه للَّه. فلما جاء الإسلام قال الناس: يا رسول اللَّه كنا نضعه في الجاهلية ألا نضعه الآن؟ فنزلت هذه الآية[1] ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ يعني من الأنعام التي تنحر وأطعموا البائس ـ وهو الذي قد أصابه ضرر الجوع ـ والفقير الذي لا شيء له. ويقال: البائس الذي يتبين عليه أثر البؤس بأن يمدّ يده إليك، وقيل البائس المزمن، وإنما خص البائس الفقير لأنه أحوج من غيره. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: التفث هو المناسك كلها، والمراد به هنا رمي الجمار والحلق، ويقال: قضاء التفث والطواف بالبيت ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران. ودلت هذه الآية على جواز الأكل مما يذبح للمتعة والقران، وقيل التفث: هو الوسخ والقذر من طول الشعر والأظفار وقضاؤه إذهابه وإزالته. قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ يعني نحر ما نذروا من البدن. وقيل يعني ما نذروا من أعمال البر في أيام الموسم، وربما نذر الرجل أن يتصدق إن رزقه اللَّه لقاء الكعبة. قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يعني طواف الزيارة بعد التعريف إما يوم النحر، وإما بعده، ويسمى طواف الإفاضة، والعتيق: القديم لأنه أول بيت وضع للناس، وقيل العتيق من أيدي الجبابرة فلا يظهر عليه جبار قط إلا أذلّه اللَّه.

وعن ابن عباس قال: حج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلما أتى وادي عسفان قال: لقد مرَّ بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات ضمر خطمهن الليف يحجون البيت العتيق[2]. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذلك الذي أمرتم به ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ باجتناب ما حرَّم اللَّه تعظيماً للَّه فهو خير له في الآخرة ممن ترك استعظامه. وقال بعضهم: الحرمات هاهنا البيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام. قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي فالتعظيم خير له عند ربه من التهاون يعني في الآخرة. قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي رخصت لكم ذبيحة الأنعام أن تأكلوها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في كتاب اللَّه من الميتة

---

(1) بنصه تقريباً عند الجصاص في المرجع السابق.
(2) رواه البيهقي في الشعب: 3/ 440، رقم: 4003، باب في المناسك.

والدم وغير ذلك مما بيّنه اللّه في سورة المائدة من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، ومما لم يذكر اسم اللّه عليه. وقيل معناه: وأحلت لكم الأنعام في حال إحرامكم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من الصيد فإنه حرام حال الإحرام. قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي اجتنبوا عبادتها وتعظيمها وأن تذبحوا لها كما يفعله المشركون، سماها رجساً استقذاراً لها واستخفافاً، بها وذلك أن المشركين كانوا ينحرون عليها هداياهم ويصبون عليها الدماء، وكانوا مع هذه النجاسات يعظمونها، ويجوز أن يكون سماها رجساً للزوم اجتنابها كاجتناب الأنجاس. وأما حرف ـ من ـ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ فهو لتخليص جنس من الأجناس. المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن. قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿30﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ يعني قول الكذب ومن أعظم وجوه الكذب الكفر باللّه، والكذب على اللّه ويدخل في ذلك شهادة الزور كما روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أنه قال: «**عدلت شهادة الزور بالإشراك باللّه**»[1]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**شاهد الزور لا تزول قدماه من مكانهما حتى تجب له النار**». قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي مخلصين للّه مستقيمين على أمره غير مشركين به في تلبية ولا حج، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللّهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه ـ يعنون الصنم ـ وانتصب قوله: (حنفاء) على الحال. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط من السماء فتخطفه الطير في الهواء فتمزقه أو تذهب به الريح في موضع بعيد مرتفع إلى منحدر فيقع على رأسه فيهلك. أي كما أن الذي يسقط من السماء لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضر وكذلك الذي تهوي به الريح في مكان سحيق، فكذلك المشرك لا ينتفع بشيء من أعماله ولا يقدر على شيء منها. قرأ أهل المدينة: فتخطفه الطير بالتشديد[2] أي فتتخطفه فأدغم إحدى التاءين في الأخرى والتخطف الأخذ بسرعة. قال ابن عباس: يريد تخطف لحمه أو تهوي به الريح

---

(1) رواه أحمد في المسند: 4/ 178.
رواه البيهقي في الشعب: 4/ 224، رقم: 4862، باب في حفظ اللسان.

(2) الداني في التيسير: ص 157.
مكي في الكشف: 2/ 119.

أي تسقطه في مكان سحيق أي بعيد شبه حال المشرك بحالة هذا الهاوي من السماء في أنه لا يملك حركة حتى يسقط فهو هالك لا محالة إما بانسلاب الطير لحمه وإما بالسقوط في المكان السحيق.

قال اللَّه تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿32﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿33﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿34﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿35﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿36﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿37﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك التباعد والهلاك لمن أشرك باللَّه، ومن لم يعظم شعائر اللَّه أي مناسك اللَّه ـ وقيل أراد بالشعائر ـ البدن فمن عظمها باستسمانها واستحسانها ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي فإن تعظيمها من تقوى القلوب يعني من صفاوة القلوب. وإنما أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب. قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لكم في بهيمة الأنعام منافع بركوبها وشرب ألبانها قبل أن تشعروها أو تسمّوها هدياً إلى أن تقلدوها وتسموها هدياً، وأما إذا تقلدها وسماها هدياً انقطعت هذه المنافع فلا يجوز له حينئذ شرب ألبانها، ولا جزّ صوفها، ولا بيع أولادها، وأما ركوبها فعند الشافعي: يجوز إذا لم يضر بها. وعندنا: لا يجوز إلا إذا اضطر إليه، وعن أبي هريرة أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة فقال له: «**ويحك اركبها**»، فقال: إنها بدنة، فقال له: «**ويحك اركبها**»[1].

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 4/ 117.
والجصاص في أحكام القرآن: 3/ 242.

وهذا عندنا محمول على أنه عليه السلام إنما أباحها لضرورة علمها من الرجل فأذن له في ذلك إلى أن يجد ظهر غيرها. يدل على ذلك أنه لا يجوز له أن يؤجرها للركوب[1]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يعني أن منحرها إلى الحرم وعبر عن الحرم بالبيت لأن حرمة الحرم متعلقة بالبيت كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[2] ومن المعلوم أنه لا يذبح عند البيت. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي لكل أمة سلفت قبلكم جعلنا لها عيداً ليذكروا اسم اللّه تعالى على بهيمة الأنعام عند الذبح، وقيل معناه: ولكل أمة جعلنا عبادة في الذبح، وقيل معناه: جعلنا متعبداً يعبدون اللّه فيه.

٩٩

قرأ أهل الكوفة ـ منسِكاً ـ بكسر السين أي مذبحاً وهو موضع القربان. وقرأ الباقون: بفتح السين[3] على المصدر مثل المدخل والمخرج أي إهراقه الدماء وذبح القرابين. فمن فتح السين أخذه من نسك ينسك مثل دخل يدخل ويستوي فيه المكان والمصدر، ومن كسرها أخذه من نسك ينسك مثل: جلس يجلس. قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي أخلصوا دينكم وأعمالكم للّه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي بشر المتواضعين بالجنة، واشتقاق المخبت من الخبت وهو المكان المطمئن. وقال مجاهد يعني المخبتين: المطمئنين إلى اللّه، وقال الأخفش: الخاشعين، وقيل الخائفين، وقيل: هم الذين إذا ظلموا لا ينتصرون. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نعت للمخبتين الذين يخافون على أعمالهم أن لا تقبل منهم. وقيل معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا خوّفوا باللّه خافوا اللّه. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي وبشر الصابرين على ما أصابهم من البلايا والشدائد، وبشر المقيمين للصلاة في أوقاتها، وحذفت النون لطول الاسم وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون من الواجب وغيره. قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم

---

(1) الجصاص في المرجع نفسه.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 95.
(3) مكي في الكشف: 2/ 119، وابن خالويه في إعراب القراءات: 2/ 77.

﴿مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ البدن جمع بدنة وهي الناقة والبقرة، والبدانة: الضخامة والمعنى: والإبل جعلناها لكم من أعلام دين اللَّه أي جعلنا لكم فيها عبادة اللَّه من سوقها إلى البيت وتقليدها، وإشعارها، ونحرها والإطعام منها. قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يعني النفع في الدنيا والآخرة. قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي عند نحرها والصواف جمع الصافة وهي القائمة على ثلاث قوائم قد عقلت، وكذا السنة في الإبل معنى الآية: فاذكروا اللَّه على نحرها قياماً معقولة إحدى يديها يعني اليسرى. وروي أن ابن مسعود كان يقرأ: صوافن بالنون وهي المعقولة من قولهم صفن الفرس إذا قام على ثلاث قوائم. قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿31﴾﴾[1] وقرأ الحسن ومجاهد: صوافي ـ بالياء ـ أي صافية خالصة للَّه تعالى[2]. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض، وخرجت روحها ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، ولا يجوز الأكل من البدن إلا بعد خروج الروح لأن ما أبين من الحي فهو ميت وأصل الوجوب الوقوع. ومنه وجبت الشمس إذا وقعت في المغيب، ووجب الحائط إذا وقع، ووجب القلب: إذا وقع فيه الفزع، ووجب الفعل إذا وقع ما يلزم به فعله. قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمر إباحة ورخصة مثل قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]. قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ اختلفوا في معناهما. فروي عن ابن عباس ومجاهد: أن القانع هو الذي يقنع، ويرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتر: هو الذي يتعرّض لك أن تطعمه من اللحم يقال: قنع قناعة إذا رضي فهو قانع، وعراه واعتراه إذا سأله ولذلك قال عكرمة وقتادة إن القانع: هو المتعفف الجالس في بيته، والمعتر: السائل الذي يعتريك ويسألك.

---

(1) سورة ص (38)، الآية: 31.
(2) الثعلبي في تفسيره: الورقة 37.
(3) سورة المائدة (5)، الآية: 2.
(4) سورة الجمعة (62)، الآية: 10.

وقال سعيد بن جبير والكلبي. القانع: هو الذي يسأل، والمعتر هو الذي يتعرض لك، ويريك نفسه ولا يسأل فعلى هذا يكون القانع من القنوع وهو السؤال يقال منه قنع الرجل يقنع إذا سأل مثل ذهب يذهب فهو قانع قال الشماخ[1]:

لمال المرء يصلحه فيغنى ∴ مفاقره أعف من القنوع[2]

أي من السؤال. وقال زيد بن أسلم: القانع: هو المسكين الذي يطوف فيسأل، والمعتر: الصديق الزائر والمعتر هو الذي يعتري القوم للحمهم وليس بمسكين إلا أنه ليست له ذبيحة يأتي القوم لأجل لحمهم[3] وقرأ الحسن: المعتري - بالياء - من قولهم اعتراه إذا غشيه لحاجته[4]. وروى عطاء عن ابن عباس: أن القانع الذي يسأل والمعتر الذي يأتيك بالسلام ويريك وجهه ولا يسأل. وعن مجاهد إن القانع جارك الغني والمعتر الذي يعتريك من الناس[5] أي يسألك فعلى هذا تقتضي الآية أن المستحب أن يتصدق بالثلث لأن في الآية أمر بالأكل، وإعطاء الغني، والبائس الفقير. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال في لحوم الأضاحي: «**كلوا وادخروا**»[6]. وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿28﴾﴾ فإذا جمعت بين الآية والخبر حصل الثلث للصدقة. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ أي مثل ما وصفنا لكم من نحرها وقيامها سخرناها لكم أي ذللناها لكم لتتمكنوا من نحرها على الوجه المسنون لكي تشكروا نعم اللَّه تعالى عليكم. قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا

---

(1) الشماخ بن ضرار الشيباني، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وعد من طبقة لبيد والنابغة واشتهر بوصف القوس وحمار الوحش. جمع شعره في ديوان مطبوع، توفي سنة اثنتين وعشرين هجرية.
الشعر والشعراء: ص 177، الأعلام: 3/ 175.

(2) ديوانه: ص 56، اللسان - قنع - فقر، مجاز أبي عبيدة: 2/ 51.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 119.

(4) الثعلبي في تفسيره: الورقة 37.

(5) الثعلبي نفسه.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 11/ 141، رقم: 5569، كتاب الأضاحي. ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 131، النهي عن أكل لحوم الأضاحي ونسخه.

دِمَآؤُهَا﴾ قال الكلبي: كان أهل الجاهلية ينحرون البدن للأصنام ويلطخون البيت بدمائها فنهاهم اللَّه عن ذلك. والمعنى: لن يرفع إلى اللَّه لحومها ولا دماؤها ولكن يرفع إلى اللَّه منكم الأعمال الصالحة والتقوى وهو ما أريد به وجهه الكريم، ويقال: إنما لا يتقبل اللَّه اللحوم والدماء لأنها فعل اللَّه ولكن يتقبل التقوى الذي هو فعل العبد يوجب له الثواب على ذلك. والمعنى: لن يتقبل اللَّه اللحوم والدماء إذا كانت من غير تقوى، وإنما يتقبل منكم التقوى والطاعة فيما يأمركم به بالنية والإخلاص له. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي ذللها لكم، قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ لدينه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة يعني الموحدين المخلصين. ويقال معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ يعني على ما بين لكم وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ
حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ
وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (41) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٖ (43) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ
مُوسَىٰۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصْرٖ مَّشِيدٍ
(45)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتم به وخالفتم فعل الجاهلية في نحرهم وإشراكهم باللَّه فإن اللَّه يدفع عنكم غائلة المشركين وأذاهم وينصركم عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي لا يحب كل مظهر للنصيحة مضمر للغش والنفاق، فهو كافر باللَّه وبنعمته. قال ابن

عباس: يريد الذين خافوا اللَّه بأن جعلوا معه شريكاً وكفروا نعمه[1]. وقال الزجاج: من ذكر غير اسم اللَّه، وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوان كفور[2]. قرأ أبو عمرو، وابن كثير يدفع، وقرأ الباقون: يدافع وهو بمعنى واحد[3]. قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ قال ابن عباس: هذه أول آية نزلت في الإذن بالقتال. أذن اللَّه تعالى للمؤمنين المهاجرين أن يقاتلوا كفار مكة بسبب ما ظلموا بأن أخرجوا من مكة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ هذا وعد لهم بالنصر، وقيل كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلا يزالون يجيئون من مشجوج ومضروب ويشكون ذلك إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فيقول لهم: «**اصبروا فإني لم أومر بالقتال**» حتى هاجروا، فأنزل اللَّه هذه الآية بالمدينة[4]. قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم: أذن بضم الألف، وقرأ الباقون بالفتح[5] أي أذن اللَّه لهم. وقوله تعالى: ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ قراءة نافع، وابن عامر، وحفص بفتح التاء أي أذن للمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون، وقرأ الباقون بكسرها[6] يعني أذن لهم في الجهاد يقاتلون المشركين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أول الآية نزل في الذين يقاتلون، أخرجهم أهل مكة من منازلهم بغير جرم منهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ معناه لم يخرجوا إلا بأن كانوا يوحدون اللَّه فأخرجوهم لتوحيدهم، المعنى: لم يخرجوهم من ديارهم إلا بقولهم ربنا اللَّه فيكون أن في موضع الخفض ردّ على الباء في قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الاستثناء. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾ أي لولا أن

(1) البغوي في معالم التنزيل بلفظه تقريباً: 4/ 120.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 3/ 429 بلفظه تقريباً.

(3) التيسير: ص 157، والكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 119.

(4) الواحدي في أسباب النزول: ص 255، والثعلبي في تفسيره: الورقة 37.

(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 79.

(6) ابن خالويه في المرجع نفسه.

يدفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدم في زمن كل نبي ما بني للصلاة والعبادة نحو الصوامع. قال مجاهد والضحاك يعني صوامع الرهبان[1]. وقال قتادة: الصوامع للصابئين[2] وهي متعبداتهم، والبيع جمع بيعة وهي متعبد النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود ـ كانت اليهودية تسميها بالعبرانية صلوات ـ والمساجد التي يصلي فيها المسلمون، والمعنى: لولا كف الناس بعضهم ببعض بالجهاد، وكف الظلم لخرب في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه فكان لولا الدفع لهدم في زمن موسى عليه السلام الكنائس، وفي زمن عيسى عليه السلام الصوامع والبيع، وفي زمن محمد صلى اللّه عليه وسلم المساجد. وعن مجاهد أنه قال: البيع لليهود ويسمونها صلوات. وقال أبو العالية: هي مساجد الصابئين فعلى هذا يكون المعنى لهدمت صوامع الصلوات، ويقال أراد بالصلوات الصلوات الموجودة التي للمسلمين وهدمها وإبطالها وإهلاك من يفعلها. والأولى أن يستدل بهذه الآية على أن هذه المواضع المذكورة التي يجري فيها اسم اللّه تعالى لا يجوز أن تهدم في شريعة نبينا صلى اللّه عليه وسلم على كل من كان له ذمة، أو عهد من الكفار. فأما في دار الحرب فيجوز للمسلمين هدمها إذا فتحت دارهم عنوة ولم يقرّوا عليها بالجزية كما يجوز هدم سائر دورهم[3]. قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ الهدم هو نقض البناء .قرأ أهل الحجاز لهدمت بالتخفيف[4]. فإن قيل: لم قدم مصليات الكافرين على مساجد المؤمنين؟ قيل لأنه أقدم، وقيل لقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر كما أخر السابق في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾[5] لقربه من الخيرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ أي لينصرن اللّه من ينصر دينه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي لقوي على أخذ الأعداء عزيز أي ممتنع بالنقمة

---

(1) الثعلبي في تفسيره: الورقة 38.
(2) الثعلبي نفسه.
(3) الجصاص في أحكام القرآن: 3/ 246.
القرطبي في تفسيره: 12/ 70.
(4) الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 121.
(5) سورة فاطر (35)، الآية: 32.

منهم. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نعت للذين ينصرون دين اللَّه أي هم الذين إن مكّنهم اللَّه في الأرض ينصرهم على عدوهم، حتى يمكنوا في البلاد ولم يعملوا ما عمله الذين من قبلهم ولكن أقاموا الصلاة المكتوبة، وأعطوا الزكاة المفروضة فأمروا بالحق ونهوا عن الباطل. قال مقاتل: هم أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وقال الحسن هم هذه الأمة أهل الصلوات الخمس[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور كلها إليه بلا منازع ولا مدع. قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ في هذه الآية تسلية للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، وإن يكذبك قومك فقد كذبت الأمم أنبياءهم من قبلك. وقوله تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي كذبه فرعون ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَـٰفِرِينَ﴾ أي أمهلتهم فأخرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡ﴾ بالعقوبة ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم حين بادوا وضربت قراهم فأبدلتهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة هلاكاً. قال الزجاج معناه: فأنكرت أبلغ الإنكار[2]. قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ أي كم من قرية أهلكتها بالعذاب بظلمهم. وقرىء: أهلكناها والاختيار أهلكتها بالتاء لقوله: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على سقوفها وذلك أن السقف يقع على الحيطان ثم تقع الحيطان عليه. قوله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ أي وكم من بئر عطلها أربابها، وكم من قصر مشيد عطله أهله والمشيد: هو المجصص، والشيد الجص والنورة. ويجوز أن يكون معنى المشيد الرفيع يقال: شاد البناء وأشاده إذا رفعه، وشاده إذا طلاه بالشيد وهو النورة.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ

---

(1) الثعلبي في تفسيره: الورقة 38.
وابن عطية في المحرر الوجيز: 11/ 207.
(2) في معاني القرآن وإعرابه: 3/ 421.
(3) مكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 121.

ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿47﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿48﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿49﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿50﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿51﴾».

قال أبو بكر:

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا» أي أفلم يَسِرْ قومك يا محمد في أرض اليمن، والشام لينظروا آثار المهلكين فيعقلوا بقلوبهم ما نزل بمن كذب من قبلهم ويسمعوا بآذانهم أخبار الأمم المكذبة. وقوله تعالى: «فَتَكُونَ» نصب على جواب الجحد. وقوله تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ» الهاء في قوله: «فَإِنَّهَا» عماء وهو إضمار على شريطة التفسير، والمعنى: فإن الأبصار لا تعمى أي يرون بأبصارهم ولكن تعمى قلوبهم بذهابها عن إدراك الحق بما يؤدي إليه الدليل. وفي الآية دليل: أن العقل في القلب بخلاف ما قاله الفلاسفة والأطباء. إن محل العقل الدماغ لأن العقل لو لم يكن في القلب لم يوصف القلب بالأعمى كما لا يوصف بذلك اليد والرجل. وأما وصف القلوب بأنها في الصدور فعلى وجه التأكيد كما في قوله تعالى: «يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ»[1] وقوله تعالى: «وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ»[2]. قوله تعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ» أي يستعجلونك يا محمد بالعذاب كما قالوا: «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ»[3] وقالوا: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ»[4] «وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ» في إنزال العذاب بهم في الدنيا.

قال ابن عباس: يعني يوم بدر. قوله تعالى: «وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» معناه: يستعجلونك بالعذاب وإن يوماً من أيام عذابهم في

---

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 167.
(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 38.
(3) سورة الشعراء (26)، الآية: 187.
(4) سورة الأنفال (8)، الآية: 32.

الآخرة ألف سنة. فكيف يستعجلونه؟ قال الفراء: في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة[1]. وقيل معناه: وإن يوماً عند اللّه وألف سنة في قدرته واحد، فليس تأخير العذاب عنهم إلا تفضلاً من اللّه عليهم. قال الزجاج: أعلم اللّه أنه لا يفوته شيء وإن يوماً عنده وألف سنة سواء، ولا فرق بين إيقاع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره في القدرة إلا أن اللّه تعالى تفضل بالإمهال فسواء عنده في الإمهال يوم وألف سنة لأنه قادر عليهم متى شاء أخذهم[2]. قرأ الكوفيون، وابن كثير: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿47﴾﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء[3]. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ ظاهر المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿49﴾﴾ أي قل لهم: يا أهل مكة إنما أنا لكم رسول مخوف بالنار لمن عصى اللّه بلغة تعرفونها فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة لذنبهم ورزق حسن في الجنة. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي والذين أسرعوا في تكذيب آياتنا وإبطال الدين، مغالبين للّه ظانين أن يعجزونا ويفوتونا بقولهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال قتادة: ظنوا بجهلهم أنهم يعجزون اللّه فلا يقدر عليهم وهيهات[4]. وهذا كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾[5] ومن قرأ[6] معجّزين فمعناه: أنهم كانوا يعجزون من اتبع النبي صلى اللّه عليه وسلم أي ينسبونهم إلى العجز.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿52﴾ لِّيَجْعَلَ

---

(1) في معاني القرآن: 2/ 229.
(2) في معاني القرآن وإعرابه: 3/ 433.
(3) التيسير: ص 158، الكشف: 2/ 122.
(4) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 124.
(5) سورة العنكبوت (29)، الآية: 4.
(6) نسب الداني في التيسير: ص 158، ومكي في الكشف: 2/ 22، هذه القراءة إلى ابن كثير، وأبي عمرو.

مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿53﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿54﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿55﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿56﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ﴾ قال ابن عباس، وابن جبير، والضحاك: وذلك أن الشيطان أتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في صورة جبريل وهو قائم يصلي عند الكعبة يقرأ سورة النجم حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿19﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿20﴾﴾[1] ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق[2] العلى منها الشفاعة ترتجى، فلما سمعها المشركون أعجبهم ذلك فلما انتهى إلى آخر السورة سجد وسجد معه المسلمون والمشركون - إلا الوليد بن المغيرة - فإنه لم يقدر على السجود لكبره فقال: ائتوني بالتراب؟ فأتوه به فوضعه في كفه، ثم سجد على كفه فلما نزل جبريل على النبي صلى اللَّه عليه وسلم ذكر له ذلك فقال له جبريل: ما جئتك بهذا، ولا أنزله اللَّه تعالى. فقال: أتاني شيء مثل صورتك فألقاه عليّ، وهذا حديث أنكر أهل العلم إجراءه على ظاهره[3]، وقالوا كيف يجوز أن يجعل اللَّه

---

(1) سورة النجم (53)، الآية: 19 - 20.

(2) الغرانيق هاهنا: الأصنام، وهي في الأصل الذكور من طير الماء طويلة العنق واحدها: غرنوق، وغرنيق، سمي به لبياضه، وقيل هو الكركيُّ وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من اللَّه وتشفع لهم: النهاية غرنق.

(3) قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير: 3/ 653. ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب اللَّه تعالى في الحاقة: 44 -

للشيطان على رسوله هذا السلطان؟ أو يختار لرسالته من لا يميِّز بين وحي اللَّه ووساوس الشيطان؟ ومن المعلوم أن من نسب النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى ما يرجع إلى تعظيم الأصنام فقد كفر، إلا أنه يحتمل أن يكون الشيطان ألقى في تلاوة النبي صلى اللَّه عليه وسلم ما لم يتله، وخيِّل إلى من لم يسمع تلاوته من الذين كانوا بالبعد منه أنه جرى على لسانه، وإنما هو من لسان الشيطان، وكان ذلك فتنة للسامعين.

وكان النبي صلى اللَّه عليه وسلم معصوماً من أن يجري على لسانه ما لم ينزله اللَّه. وقد يذكر التمني ويراد به القراءة كما قال الشاعر[1]:

تمنَّى كتاب اللَّه أول ليله ∴ وآخره لاقى حمام المقادر[2]

وقال المفسرون: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حريصاً على إيمان قومه، وتمنى في نفسه أن يأتيه من اللَّه ما يقارب بينه وبين قومه فجلس ذات يوم في مجلس لهم كثير أهله، وأحب يومئذ أن يأتيه من اللَّه شيء فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿19﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿20﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، ومضى النبي صلى

= 46 ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿44﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿45﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿46﴾﴾، والنجم: 3 ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿3﴾﴾، والإسراء: 74 ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه. يروي عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم بإسناد متصل، وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة العقل، وقال ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. وقال القاضي عياض في الشفا 2/ 288: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطا، وقال ابن كثير في تفسيره: 4/ 657: قد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

(1) أبو عبد اللَّه كعب من مالك الخزرجي، صحابي جليل من شعراء النبي صلى اللَّه عليه وسلم المجيدين، وشهد معه أكثر الوقائع، وله ديوان شعر مطبوع، وتوفي سنة خمسين هجرية. الاستيعاب: 3/ 1323، السيرة النبوية: 2/ 538.

(2) هذا البيت من البحر الطويل من قصيدة رثى بها الشاعر الخليفة عثمان بن عفان. الأغاني: 6/ 164، اللسان: مني.

اللَّه عليه وسلم في قراءته فلما ختم السورة سجد في آخرها وسجد معه المسلمون والمشركون إلا الوليد بن المغيرة، وسعيد بن العاص[1]، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين لم يستطيعا أن يسجدا، وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا، وقالوا قد عرفنا أن آلهتنا تشفع لنا فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فقال له: يا محمد لقد تلوت على قومك ما لم آتك به عن اللَّه عزّ وجلّ، فاشتدّ ذلك على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وحزن حزناً شديداً وخاف من اللَّه خوفاً كثيراً فأنزل اللَّه هذه الآية، يطيب بها نفس محمد صلى اللَّه عليه وسلم، ويخبره أن الأنبياء قبله قد كانوا مثله، ولم يبعث اللَّه نبياً إلا تمنّى أن يؤمن قومه، ولم يتمنّ ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضي قومه. فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند اللَّه فغير ذلك وجاء بغيره[2]. وقال عطاء عن ابن عباس: إن شيطاناً يقال له الأبيض أتى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فألقى في قراءته أنها الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى، ولم يقله النبي صلى اللَّه عليه وسلم بل سمعه القوم من الشيطان وكان ذلك فتنة من اللَّه تعالى لعباده المسلمين والمشركين، فالمشركون ازدادوا كفراً بذلك، والمسلمون اشتدّ عليهم الأمر ومعنى الآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً وشفاهاً، ولا نبي وهو الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً[3]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي إذا أحبّ شيئاً، واشتهاه، وحدّث به نفسه من غير أن يؤمر به ألقى الشيطان في أمنيته أي في مراده.

وقال أكثر المفسرين معنى قوله تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ قرأ كتاب اللَّه تعالى ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي في قراءته وتلاوته، نظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ

---

(1) أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية القرشي، سيد قومه وكان إذا اعتم لم يعتم أحد من قريش حتى ينزع عمامته أو لم يعتم قرشي بعمامة على لونها فكان يقال له ذو العمامة. تهذيب ابن عساكر: 6 131. البيان والتبيين: 3/ 97.

(2) الواحدي في أسباب النزول: ص 236.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 126.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1] أي قراءة يقرأ عليهم، قال الشاعر في عثمان رضي اللَّه عنه:

تمنَّى كتاب اللَّه أول ليله ∴ وآخره لاقى حمام المقادر

وقال الحسن: أراد بالغرانيق الملائكة يعني أن شفاعتهم ترتجى منهم لا من الأصنام[2]. قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي يبطله ويزيله ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ فيثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٞ﴾ في تدبيره. قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم شك ونفاق لأنهم افتتنوا بما سمعوا وازدادوا عتواً، وظنوا أن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم يقول الشيء من عند نفسه فيبطله، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ يعني المشركين كذلك ازدادوا فتنة وضلالة وتكذيباً، سماهم قاسية قلوبهم لأنها لا تلين لتوحيد اللَّه. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أهل مكة ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي متباينة بعيدة عن الحق. قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ معناه: وليعلم المؤمنون رجوعك إلى الصواب إن ذلك حق من ربك وتذل له قلوبهم، وقيل معناه: وليعلم الذين أوتوا العلم التوحيد والقرآن. وقال السدي: التصديق أنه الحق أي أن نسخ ذلك وإبطاله حق من اللَّه ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ ويصدقوا النسخ[3] ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي ترق قلوبهم للقرآن فينقادوا لأحكامه بخلاف المشركين الذين قيل لهم: ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ فيه بيان أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف اللَّه وهدايته إياهم والمعنى إن اللَّه لهاديهم إلى دين يرضاه. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي في شك من القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ يعني ساعة موتهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ يعني يوم بدر في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد. سماه اللَّه عقيماً لأنه لم يكن فيه للكفار

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 79.
(2) الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان: الورقة 39.
(3) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 128.

بركة ولا خير فهو كالريح العقيم التي لا تأتي بخير[1]، وقيل في يوم القيامة: سماه اللَّه عقيماً لأنه لا مثل له في عظم أمره. قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي الملك يوم القيامة للَّه تعالى من غير منازع ولا مدع لا يظهر الأمر فيه إلا للَّه تعالى يقضي فيه بين المؤمنين والكافرين بإدخال المؤمنين الجنة وإدخال الكافرين النار.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿57﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿58﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿59﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿60﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿61﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿62﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿63﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿64﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ معناه: والذين هاجروا وخرجوا من ديارهم وأوطانهم في طاعة اللَّه من مكة إلى المدينة، ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم اللَّه رزقاً حسناً وهو نعيم الجنة. وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ﴾ معنى المنازل التي أعدها اللَّه لهم في الجنة لهم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿108﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿59﴾﴾ أي عليم بمصالح عباده ونياتهم حليم لا يعجل بعقوبة أعدائه. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

---

(1) البغوي في المرجع نفسه.
(2) سورة الكهف (18)، الآية: 108.

وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ الآية، أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك ثم قال: ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه اللّه، نزلت هذه الآية في قوم من المشركين لقوا جماعة من المسلمين فقاتلوهم في الشهر الحرام فنهاهم المسلمون عن ذلك، فأبوا فلما أبوا قاتلهم المسلمون فنصروا عليهم[1] أي، ومن عاقب بالقتال بمثل ما عوقب به أي بالقتال في الشهر الحرام والحرم ثم بغى على المدافع لينصرنه اللّه على من بغى عليه إن اللّه لعفو أي متجاوز عمن مات، غفور لمن مات على التوبة. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي ذلك النصر بأنه القادر على من يشاء فمن قدرته أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لمن دعاه، بصير بعباده. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي فعله من نصرة المؤمنين بأن اللّه ذو الحق في فعله وقدرته وأن ما يدعو المشركون من دونه هو الباطل ليس فيه نفع ولا ضر وأن اللّه هو العلي على كل شيء بقدرته، الكبير الذي يصغر كل شيء سواه. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي ألم تعلم وتشاهد أن اللّه أنزل من السماء ماء يعني المطر فتصبح الأرض ذات خضرة بالنبات إن اللّه لطيف بأرزاق عباده واستخراج النبات من الأرض، خبير بما في قلوب العباد وبما يصلح لهم في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عبيداً وملكاً إن اللّه هو الغني عن عباده الحميد إلى أوليائه وأهل طاعته، وقيل الغني عن إيمان الخلق وطاعتهم المحمود في أفعالهم.

قال اللّه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ
ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ (66) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا

---

(1) السيوطي في أسباب النزويل: ص 195، البغوي في تفسيره: 4/ 129.

مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ
(67) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن اللَّه ذلّل لكم ما في الأرض، يعني البهائم التي تركب وسخّر لكم الفلك، أي السفن تجري في البحر بأمره. وقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي حبس عنهم السماء حتى لا تقع عليهم فيهلكوا. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا بإرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي متفضل على عباده منعم عليهم. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي أحياكم في أرحام أمهاتكم ولم تكونوا شيئاً، وقيل معناه: أحياكم بعد أن كنتم نطفة ميتة، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم بعد الموت عند البعث للحساب ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ يعني المشرك أي الجحود لنعم اللَّه حين ترك توحيده بعد ظهور الآيات الداعية إلى الحق. قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي لكل أهل دين جعلنا شريعة هم عاملون بها. وقيل موضعاً يعتادونه لعبادة اللَّه تعالى، ومكاناً يغشونه ويعملون الخير فيه، وقيل معناه: لكل أمة جعلنا عيداً، وقال قتادة: موضع قربان يذبحون فيه[1]، وقيل المنسك: جميع العبادات التي أمر اللَّه بها كما قال صلى اللَّه عليه وسلم يوم الأضحى: «**إن أول نسكنا في يومنا هذا الصلاة ثم الذبح**»[2]، وقيل أراد بالمنسك في هذه الآية: المذبح الذي يتقربون فيه بذبائحهم إلى اللَّه تعالى كما جعل اللَّه منى منحراً للناس لأن النسك إذا أطلق: أريد به الذبح على جهة القربة كما قال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3] قوله تعالى: ﴿فَلَا

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 130.
(2) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 11/ 135، رقم: 5560، كتاب الأضاحي. ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 114، كتاب الأضاحي.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 196.

يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ معناه: النهي عن المنازعة بعد ظهور ما يوجب نسخ شرائع الأمم المتقدمة كما يقال: لا يخاصمك فلان في هذا الأمر، وقيل معناه: لا ينازعنك في أمر الذبح، وذلك أن كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه في أمر الذبيحة وقالوا: ما لكم تأكلون ما قتلتم بأيديكم ولا تأكلون ما قتله اللَّه؟ قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي ادع إلى دين ربك وطاعته إنك على هدى مستقيم، وقيل: على دلالة ودين مستقيم، ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ على سبيل المراء والتعنت كما يفعله السفهاء ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿68﴾﴾ أي ادفعهم بهذا القول، ولا تجادل إلا لتبين الحق والمعنى: وإن خاصموك في أمر الذبح فقل: اللَّه أعلم بما تعملون من التكذيب فهو يجازيكم به، وهذا قبل الأمر بالقتال. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أن يقضي بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون من الدين والذبيحة.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿70﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿71﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿72﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي قد علمت وأيقنت ذلك، وهذا استفهام يراد به التقدير وقيل معناه: ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم أعمال أهل السماء والأرض وأسرارهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يعني ما يجري في السماء والأرض كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿70﴾﴾ أي إن علم اللَّه بجميع ذلك عليه ليسير. قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ معناه: ويعبدون من دونه من الأصنام ما لم ينزل به كتاباً ولا حجة وما ليس لهم به

علم أنها آلهة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي وما للمشركين من مانع يمنع من عذاب اللّه عنهم. نزلت هذه الآية في أهل مكة[1]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وإذا تقرأ عليهم القرآن تعرف في وجوههم الإنكار للقرآن من الكراهة والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين ليؤذوهم. وقيل معناه: يكادون يقعون بمحمد صلى اللّه عليه وسلم من شدة الغيظ، وقيل: يكادون يبسطون إلى المؤمنين أيديهم بالسوء. يقال سطا فلان على فلان: إذا تناوله بالبطش والعنف، وأخذه بالشدة والإخافة، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أفأخبركم بشر عليكم من غيظكم على التالي لآيات اللّه وهو النار وعدها اللّه الذين كفروا يصيرون إليها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقيل: إن الكفار قالوا: واللّه ما رأينا قوماً أقل حظاً منكم يا أصحاب محمد، فقال اللّه تعالى قل يا محمد: أفأخبركم بشرٍّ من ذلكم؟ أي بشرٍّ مما قلتم: النار من دخلها فحاله شر من حالنا.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿73﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿74﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿75﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿76﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ معناه: يا أهل مكة بين مثل آلهتكم فاستمعوا له ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام لن يقدروا أن يخلقوا ذباباً مع صغره وقلته ولو اجتمع العابد والمعبود على ذلك، وكان لهم ثلاثمائة وستون صنماً حول الكعبة. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا

(1) يراجع ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: 11/ 217 ـ 218.

﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران والعسل فيأتي الذباب فيختلسه فلا يقدرون أن يستردوه من الذباب(1). وقال السدي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليهم الذباب فيأكل منه ولا يستطيعون استنقاذه منه ضعف الطالب من الأصنام، والمطلوب: هو الذباب(2). وقال الضحاك معناه: ضعف العابد والمعبود(3)، وقيل معناه: ضعف الذباب الطالب لما يأخذه من الصنم وضعف المطلوب يعني الصنم وقيل ضعف الطالب من هذا الصنم المتقرّب إليه، والصنم المطلوب منه ذلك وقيل إن المشركين كانوا خرجوا في عيد لهم بأصنامهم وقد زينوها باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر، وطيبوها بأنواع الطيب، وغشوها بالحلي والحلل فجاء ذباب فأخذ شظية من تلك الزينة أي قطعة فطار بها في الهواء فأراهم اللَّه تعالى العبرة في ضعفهم، وضعف معبودهم فلا أحد أضعف ممن لا يمكنه الاستنقاذ من الضعيف. قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق عظمته حيث عدلوا به من لا يقدر أن يخلق ذباباً أو يستنقذ من ذباب ما ذهب به منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿74﴾﴾ أي قوي على خلقه عزيز في ملكه لا يقدر أحد على مغالبته. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ معناه اللَّه يختار من الملائكة رسلاً يعني: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني النبيين أخبر اللَّه عزّ وجلّ أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه ويجعلهم رسله وأنبياءه ويبعثهم إلى خلقه [وعلى الخلق أن] يطيعوهم ويحذروا معصيتهم إن اللَّه سميع لمقالتهم بصير بأعمالهم وضمائرهم وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ أي يعلم ما بين يدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم وما خلفهم أي ما يكون بعد فنائهم وإلى اللَّه ترجع عواقب الأمور.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ

---

(1) القرطبي في تفسيره: 12/ 97.
(2) القرطبي نفسه.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 132.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي صلوا، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي لجميع العبادات ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ من أنواع البر مثل صلة الرحم، وبر الوالدين، ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ روي أنهم كانوا في أول الإسلام يسجدون بغير ركوع حتى نزلت هذه الآية[1]. قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي جاهدوا المشركين بحسب الطاقة واستفراغها ولا تخافوا في اللَّه لومة لائم. وقال بعض المفسرين معناه: اعبدوا اللَّه حق عبادته، وأطيعوه حق طاعته. قال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى، وقال مقاتل: نسختها آية التغابن[2] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3] وقيل: هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد[4]، وهو الجهاد الأكبر لما روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته[5] قال: رجعنا «**من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[6]، وقال بعضهم في حق الجهاد: إنه كلمة عدل عند سلطان جائر[7]. وقال الحسن: هو أن تؤدي جميع ما أمرك اللَّه به، وتتجنّب جميع ما نهاك عنه، وتترك رغبة الدنيا برغبة الآخرة. وقال الضحاك معناه: جاهدوا بالسيف من كفر باللَّه وإن كانوا الآباء والأبناء. قوله تعالى:

---

(1) الزمخشري في تفسيره، الكشاف: 3/ 23.
(2) القرطبي في تفسيره: 12/ 99.
(3) سورة التغابن (64)، الآية 16.
(4) يراجع الناسخ والمنسوخ لابن العربي: 2/ 307، والنحاس في إعراب القرآن: 3/ 106.
(5) غزوة تبوك، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر حين طابت ثمار أهل المدينة أمرهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالخروج للجهاد ضد الروم في رجب سنة تسع من الهجرة. سيرة ابن هشام: 4/ 515.
(6) ذكره الثعلبي في تفسيره من غير إسناد.
(7) أخرجه البيهقي في الشعب: 6/ 93، رقم: 958، ومسند الإمام أحمد: 5/ 256.

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي اختاركم لدينه وجهاد أعدائه والاجتباء هو اختيار الشيء بما فيه من الصلاح. يقال الحق يجتبى، والباطل يتقى. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي ما جعل عليكم في شرائع دينكم من ضيق لا مخرج منه وذلك أن منه ما يتخلص منه بالتوبة، ومنه ما يتخلص منه بردّ المظلمة، ومنه ما يتخلص منه بالقصاص، وليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به بل من أذنب ذنباً جعل اللّه له مخرجاً منه بالتوبة والكفارات، ولم يبق في ضيق ذلك الذنب. وقال مجاهد يعني: الرخص عند الضرورات كالقصر، والتيمم، وأكل الميتة، والإفطار عند المرض والسفر[1].

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ أي الزموا واتبعوا ملته، وقيل معناه: وسع عليكم في الدين كلمة أبيكم إبراهيم إلا أنه لما حذف حرف الجر نصب الملة[2]، وإنما أمر باتباع ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة نبينا صلى اللّه عليه وسلم، وإنما قال أبيكم إبراهيم وإن لم يكن جميعهم من نسبه لأن حرمة إبراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على الولد وحقه كحق الوالد كما قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾[3] قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد معناه: اللّه تعالى سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن أيضاً كما روي أن اللّه تعالى: أوحى إلى إبراهيم: يبعث بعدك نبي فيكون قومه مسلمين، وقيل معناه: إن إبراهيم سماكم المسلمين كما قال في دعائه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾[4] قوله تعالى ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ أي ليكون محمد صلى اللّه عليه وسلم شهيداً عليكم يوم القيامة بطاعة من أطاع في تبليغه وعصيان من عصى وتكونوا أنتم شهداء على الناس أي الرسل بلغتهم. قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدوهما كما وجبتا. قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي اعتصموا بدين اللّه وتمسكوا به وقيل

---

(1) الجصاص في أحكام القرآن: 3/ 251.

(2) الفراء في معاني القرآن: 2/ 231.
والنحاس في إعراب القرآن: 2/ 106.

(3) سورة الأحزاب (33)، الآية: 6.

(4) سورة البقرة (2)، الآية: 128.

معناه: ثقوا باللَّه وتوكلوا عليه هو مولاكم أي هو ربكم وحافظكم فنعم المولى ونعم النصير، أي فنعم الحافظ لكم ونعم الناصر، وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي**»[1].

---

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف: 3/ 24.
وذكره الثعلبي في تفسيره: خ.